
غيوم ميسو
بيبلوتيكا
سنترال بارك
facebook.com/ktabpdf/
رواية

غيوم ميسو

سنترال بارك

رواية

ترجمة: الجيلالي مويري

المركز الثقافي العربي

سما للنشر

للأشياء التي تفلت منك أهمية أكثر
من تلك التي تحصل عليها.

سومرست موغام

القسم الأول

المُقَيَّدان

1

أليس

أعتقد أن في داخل كل شخص شخصاً
آخر، غريباً، ومتآمراً، ومحتالاً.

ستيفن كينغ

هناك أولاً ريح باردة تُلامس وجهاً.

وحفيف خفيف يصدر عن أوراق الأشجار. وخرير مجرى مائي بعيد. وزقزقة عصافير خافتة. وأشعة الشمس الأولى تُستشعر من خلال جفون منسدلة.

ثم خشخشة الأغصان، ورائحة الأرض المبلَّلة، وأوراق الأشجار المتحلِّلة.

وبعيداً عن المكان أزيز يكاد لا يُسمع كأنه حلم صامت.

فتحت أليس شفري عينيها بصعوبة. كانت أشعة الشمس الأولى تحجب عنها الرؤية، وندى الصباح يعلو ملابسها. كانت ترتعش من شدة العرق، وتحس بحنجرتها جافة، وبطعم الرماد في فمها، وبألم في مفاصلها وكل أعضائها المتجمدة، وبفتور في همتها.

عندما انتصبت جالسة أدركت أنها كانت متمددة فوق مقعد قديم من خشب خشن. واندهشت حين اكتشفت فجأة أن جسد رجل ثقيل يتكئ عليها.

كتمت أليس صرختها وتسارعت نبضات قلبها فجأة. وحاولت أن تتخلص من الجسد بأن مالت نحو الأرض قليلاً، ولكنها كادت تسقط لولا أنها تداركت نفسها. في تلك اللحظة رأت أن يدها اليمنى مقيدة إلى يد الرجل الغريب اليسرى. تراجعت إلى الخلف قليلاً إلا أن الرجل لم يتحرك.

اللعنة!

خفق قلبها بشدة. ألقت نظرة على ساعتها «الباتيك»، فرأت أن إطارها مخدوش إلا أنها لم تكن معطلة، كانت تشير إلى: الثامنة صباحاً من يوم الثلاثاء 8 أكتوبر.

اللعنة، أين أنا؟ تساءلت أليس وهي تمسح العرق عن وجهها.

نظرت حولها مستطلعة الوضع: إنها في قلب غابة في فصل الخريف، غابة ذهبية الألوان متعددة النباتات، والمكان هادئ محاط بأشجار البلوط، وبأدغال كثيفة وصخور ناتئة. لا أحد حولها، وبالنظر إلى الظرف الحالي فإن ذلك أحسن، من دون شك.

رفعت أليس عينيها. ضوء النهار جميل، عذب، ويكاد يكون خيالياً. والندائف تلمع من خلال أوراق شجرة دردار كبيرة مشعَّة تمزق جذورها الأرض والأوراق المبللة.

هل هي غابة رامبوييه؟ أم غابة فانتنبلو؟ أم غابة فانسن؟

تساءلت محاولة التخمين.

إنها في قلب لوحة انطباعية يتناقض هدوؤها مع عنف هذا الاستيقاظ السُريالي إلى جانب رجل غريب.

انحنت إلى الأمام لتتبيَّن وجهه أكثر. إنه وجه رجل بين الخامسة والثلاثين والأربعين، ذو شعر كستنائي ولحية غير حليقة.

جثة؟

جثت على ركبتيها ووضعت ثلاثة أصابع على عنقه، يمين الغدة الدرقية. أحست بنبض قلبه فاطمأنت. كان فاقداً الوعي، لكنه لم يكن ميتاً. تأملته لحظة. هل تعرفه؟ هل هو مجرم سبق لها أن ألقت القبض عليه؟ صديق طفولة نسيته؟ لا، قسمات وجهه لا توحي لها بأي شيء.

أبعدت أليس خصلات من شعرها الأشقر عن عينيها ونظرت إلى الأساور الحديدية التي تقيدها إلى ذلك الشخص. إنه نوع متداول من الأصفاد يستعمله عدد كبير من قوات الأمن والمكلفين بحراسة الأشخاص عبر العالم. وهناك احتمال أن تكون تلك الأصفاد أصفادها الخاصة. بحثت أليس في جيب سروالها الجينز متمنية أن تعثر على المفتاح.

لا أثر للمفتاح. وأحست بالمقابل بمسدس وُضع في جيب سترتها الجلدية الداخلي. اعتقدت أنه مسدسها فأحكمت القبض عليه. لكنه لم يكن مسدسها «السيك ساور» الذي تستعمله شرطة محاربة الجريمة، وإنما مسدساً آخر من صنف «غلوك 22» لا تعرف كيف وصل إلى جيبها. أرادت أن تتأكد إن كان محشواً بالرصاص، إلا أن يدها المقيدة لم تسهّل الأمر عليها. ورغم ذلك نجحت في التأكد بعد جهد كبير، دون أن توقظ الغريب. في الوقت الذي كانت تنظر إن كان المسدس محشواً رأت أن قبضته ملطخة بالدم. فتحت سترتها عن آخرها فاكتشفت أن خطوطاً من الدم المتجمد تنتشر على جانبي قميصها هو الآخر.

اللعنة! ماذا فعلت؟

مسّدت أليس جفونها بيدها غير المقيدة. كانت قد أحست في تلك اللحظة بصداع حاد ينبعث من صدغيها، كما لو أن آلة حديدية ضاغطة تحكم القبض على جمجمتها. تنفست بعمق لتتخلص من خوفها وحاولت أن تستعيد ذكرياتها.

مساء أمس كانت قد خرجت صحبة صديقاتها الثلاث إلى شارع الشانزلزيه للترفيه عن النفس. شربت كثيراً من النبيذ متنقلة من حانة إلى أخرى: من المونلايت إلى الطابق الثالث عشر إلى اللوندنديري... وافترقت الصديقات الأربع حوالي منتصف الليل. وعادت وحدها إلى ذلك المرآب الموجود في قبو بشارع فرنكلان-روزفلت الذي كانت قد تركت فيه سيارتها، ثم...

لا شيء. حجاب يغطي عقلها فيجعله يدور في الفراغ. بقيت ذاكرتها متجمدة عند تلك الصورة الأخيرة.

هيا، قومي بمجهود أكبر. اللعنة! ما الذي حدث بعد ذلك؟

رأت نفسها بوضوح وهي تؤدّي ثمن تذكرتها في الشباك الأوتوماتيكي ثم تنزل الأدراج نحو طابق القبو الثالث حيث السيارة. أكيد أنها قد شربت كثيراً. وصلت إلى حيث سيارتها «الأودي»، فتحت الباب، جلست خلف المقود و...

لا شيء بعد ذلك.

ورغم محاولتها الجادة للتركيز، إلا أن حائطاً كان يمنعها من العُبور نحو ذاكرتها، حائطاً أبيض ضخماً، ضخامة سور الصين العظيم. فشلت كل محاولاتها.

ابتلعت ريقها. ارتفعت درجة خوفها. هذه الغابة، هذا الدم على قميصها، هذا المسدس الذي ليس مسدسها... مستحيل أن

تكون هذه الأشياء مجرد صحو من حالة سكر بعد ليلة صاخبة. إذا كانت عاجزة عن تذكر طريقة وصولها إلى هذا المكان، فلأنها خُدِّرت من دون شك. أيكون أحد الأغبياء قد صبَّ في كأسها مخدِّراً! شيء محتمل: ألم يسبق لها أن واجهت كشرطية عدة قضايا خلال السنوات الأخيرة استُعمل فيها ذلك المخدِّر الذي عادة ما يستعمل في حالات الاغتصاب. ركنت تلك الفكرة في أحد أركان ذاكرتها وانصرفت إلى إفراغ جيوبها: اختفت محفظتها وبطاقتها المهنية. لم يعد معها بطاقة هوية، ولا مال، ولا هاتف محمول.

انضاف إلى شعورها بالخوف شعور بالخطر.

طقطق أحد أغصان الشجرة فطار سرب من الطيور. حلَّقت بعض الأوراق الصفراء في الهواء ولامست وجه أليس. اخذت تزرر سترتها بيدها اليسرى بعد أن أمسكت أعلاها بذقنها. في تلك اللحظة رأت في باطن يدها شيئاً خُطَّ بقلم حبر جاف؛ إنه رقم كتب على عجل ويهدد بالانمحاء في أية لحظة:

2125558900

ما هذ الرقم؟ هل خطته بنفسها؟ **ممكن، لكن ليس مؤكداً**... هذا ما اعتقدته وهي تتأمل الخط.

أغلقت عينيها هنيهة، حائرة ومذعورة.

رفضت الاستسلام. واضح أن حدثاً خطيراً وقع أثناء الليل. وإذا لم تتذكر أي شيء من ذلك الحدث، فإن هذا الرجل الذي قيدت إليه سيذكرها بسرعة. هذا ما تتمناه على الأقل.

أعدو هو أم صديق؟

وبما أنها كانت تجهل كل شيء عما حدث، فقد قامت بإعادة

الرصاصات إلى المسدس وجهزته، وصوبته بيدها غير المقيدة نحو رفيقها قبل أن تحرك كتفه بقوة ودون أية مراعاة.

- «هيه، هوه، استيقظ!».

وجد الرجل صعوبة في الاستيقاظ.

- «هيا تحرك، يا هذا!» صاحت وهي تستعجله محركة كتفه.

طرفت عيناه وكتم تثاؤبه قبل أن ينتصب جالساً بصعوبة. حين فتح عينيه رأى المسدس على بعد سنتمترات قليلة من صدغه فقفز مندهشاً.

نظر إلى أليس بعينين مندهشتين، وأخذ يلتفت إلى كل الجهات مكتشفاً بذهول منظر الغابة من حوله.

ابتلع ريقه بعد لحظات من الدهشة، ثم فتح فمه وسألها بالإنكليزية:

- «من أنت، بحق السماء؟ وما الذي أتى بنا إلى هنا؟».

2

غابرييل

داخل كل واحدٍ منا شخص
غريب ومحيِّر.

الأخوين غريم

تكلم الغريب بنبرة أمريكية واضحة، وهو يُجهِز على حرف «الراء» بشكل تام.

- «اللعنة، أين نحن؟»، ألحَّ ثانية وجفونه تطرف.

أحكمت أليس قبضتها حول المسدس.

- «أعتقد أنت من يجب أن يطلعني على ذلك!»، أجابته بالإنكليزية وهي تقرب المسدس من صدغه.

- «هيه، ألا تعتقدين أنك يجب أن تهدئي؟»، سألها وهو يرفع يديه. «انزلي مسدسك: إن هذه الآلات خطيرة...».

أشار برأسه إلى الأصفاد التي حول معصمه وهو لم يستيقظ بعد بشكل تام.

- «لماذا قيَّدتني بهذه؟ ماذا فعلت هذه المرة؟ تعاركت؟ سكرت علناً في مكان عمومي؟».

- «لست أنا من قيّدتك»، أجابته.

تفحصته أليس: كان يرتدي سروال جينز داكن اللون، وحذاء كونفرس، وقميصاً أزرق مجعد، وسترة سوداء. وكانت عيناه الصافيتان المطمئنتان محاطتان بهالة سوداء جراء التعب.

- «البرد قارس»، اشتكى الغريب وهو يدخل عنقه بين كتفيه.

وخفض عينيه نحو معصمه لينظر إلى ساعته، لكن الساعة لم تكن حول معصمه.

- «اللعنة، ما الساعة الآن؟».

- «الثامنة صباحاً».

أخذ يبحث في جيوبه بقدر ما يسمح به وضعه. فما لبث أن صرخ ثائراً:

- «سرقتِ مني كل شيء! نقودي ومحفظتي وهاتفي...».

- «لم أسرق منك شيئاً»، أكدت أليس. «أنا أيضاً سُرِقت».

- «وضُربتُ على رأسي»، قال وهو يحك رأسه من خلفٍ بيده غير المقيدة. «وهذه الضربة أيضاً، ألست مسؤولة عنها؟»، سألها مشتكياً دون أن ينتظر منها جواباً.

نظر إليها بطرف عينه: رأى أنها ترتدي جينزاً لصيقاً وسترة جلدية يظهر تحتها جزء من قميص ملطخ ببقع من الدم. شقراء هيفاء في حوالي الثلاثين، مبعثرة الشعر. ذات وجه صارم لكن متناسق القسمات - وجنتان عاليتان، أنف دقيق، سحنة شديدة الشحوب - وعينان تنعكس عليهما أطياف أوراق الخريف فتلمعان بقوة.

أخرجه الألم من تأملاته: أحسَّ بشيء حارق يسيل على ذراعه.

- «ماذا بك مرة أخرى؟»، سألته متنهدة.

- «أحسُّ بألم»، قال وهو يصر على أسنانه. «كأن جرحاً...».

لم يستطِع غابرييل أن يزيل سترته أو يشمّر عن ساعده بسبب الأصفاد، إلا أن إصراره أدّى إلى نجاحه في ذلك ليكتشف ما يشبه ضمادة حول ذراعه، ضمادة حديثة العهد ملطخة بدم سال حتى المعصم.

- «حسناً، كفى ترهات!»، قال غاضباً. «أين نحن الآن؟ في ويكلوو؟».

حركت الشابة رأسها.

- «ويكلوو؟ أين تقع ويكلوو؟».

- «إنها غابة في الجنوب»، قال متنهداً.

- «جنوب ماذا؟»، سألته.

- «هل تسخرين مني؟ جنوب دبلن!».

نظرت إليه بعينين مندهشتين.

- «أتعتقد أننا في أيرلندا حقاً؟».

تنهد.

- «وأين يمكن أن نكون إذا لم نكن في أيرلندا؟».

- «في فرنسا، على ما أعتقد. قرب باريس، أو في غابة رامبوييه أو...».

- «توقفي عن هذيانك هذا!»، قاطعها بحدّة، «واخبريني عن حقيقتك، من أنت؟».

- «فتاة تحمل مسدساً، وتملك وحدها، بفضل ذلك، الحقَّ في طرح الأسئلة».

تحداها بنظرته لكنه سرعان ما انتبه أن الوضع في غير صالحه فالتزم الصمت.

- «اسمي أليس شافر، كابتن في فرقة مكافحة الجريمة.

أمضيت أمسية البارحة مع صديقاتي في الشانزلزيه. أجهل أين نحن الآن وكيف وصلنا إلى هنا مقيدين إلى بعضنا. ولا أعرف أي شيء عن هويتك. أتى دورك الآن».

بعد ثوانٍ قليلة من التردد قرر الغريب أن يكشف عن هويته.

- «أنا أمريكي. اسمي غابرييل كوين. عازف بيانو في فرقة جاز. أسكن في لوس أنجلس، ولكني كثيراً ما أتغيب عنها بسبب الحفلات التي نقيمها».

- «ما هو آخر شيء تتذكره؟»، سألته مستعجلة.

طرفت عينا غابرييل وأغلقهما ليتذكر أكثر.

- «في الحقيقة... مساء أمس أقمت حفلاً برفقة الفرقة في «براون شوغر»، وهو نادٍ للجاز في تمبل بار في دبلن».

في دبلن... هذا الشخص أحمق من دون شك!

- «بعد الحفلة، جلست في البار كي أشرب نبيذاً ويبدو أني بالغت في الشرب قليلاً»، واصل غابرييل وقد فتح جفونه.

- «وبعد ذلك؟».

- «بعد ذلك...».

انقبض وجهه وعضّ على شفته. «أعتقد أني تشاجرت مع شخص لم تعجبه موسيقاي، ثم تحرشت ببعض الفتيات، ولكني كنت من السكر بحيث عجزت عن إقناع أي واحدة منهن بالذهاب معي».

- «ممتاز. رائع حقاً».

تجاهل العتاب بحركة من يده ثم نهض من على مقعده، مرغِماً أليس على أن تفعل الشيء نفسه، غير أن هذه الأخيرة أرغمته بحركة مفاجئة من ساعدها على أن يعود إلى الجلوس.

- «غادرت النادي حوالي منتصف الليل»، واصل مؤكداً، «كنت سكراناً، بالكاد كنت أستطيع الوقوف على قدمي، فناديت على تاكسي في شارع «أستون كي»، بعد دقائق قليلة توقفت سيارة و...».

- «وماذا؟».

- «لا أعرف»، اعترف قائلاً، «يبدو أني أطلعت السائق على عنوان فندقي وتهالكت على المقعد».

- «وبعد ذلك؟».

- «أؤكد لك أني لا أتذكر شيئاً!».

أبعدت أليس مسدسها وتركت الدقائق تمر ريثما تهضم هذه الأخبار غير السارة. واضح أن هذا الشخص ليس هو من سيساعدها على أن تتعرف إلى حقيقة الوضع. بالعكس.

- «هل أنت على وعي تام بأن كل ما حكيته لي ليس إلا مزحة كبيرة؟».

- «لماذا؟».

- «لأننا في فرنسا، يا هذا؟».

أخذ غابرييل ينظر إلى الغابة الممتدة من حوله: إلى النباتات العشوائية، والدَّغل الملتف، والأماكن الصخرية المغطاة باللبلاب، وإلى جذع شجرة دردار كبيرة يتسلقها سنجابان يقفزان قفزات سريعة من غصن إلى آخر ملاحقين شحروراً أزرق.

- «إني مستعد أن أراهن بقميصي هذا على أننا لسنا في فرنسا»، قال وهو يحك رأسه.

- «على أية حال ليس هناك إلا طريقة واحدة للتأكد»، قالت

أليس متذمرة وهي تخفي مسدسها وتدعوه إلى أن ينهض من على المقعد.

غادرا مكانهما وسارا وسط نباتات أَجَمة كثيفة الأعشاب والأشجار المورقة. مضيا مقيدين إلى بعضهما في طريق صاعد، ثم نزلا منحدراً متمسكين بالصخور الناتئة. تطلّب منهما الخروج من تلك المتاهة عشر دقائق كاملة، متجاوزين مجاري المياه الصغيرة، متعرجين حول مسالك كثيرة ملتوية. وصلا أخيراً إلى طريق معبّدة ضيقة محاطة بأشجار شكلت قبة فوق رأسيهما. كانا كلما مضيا في طريقهما تعالت أصوات تشير إلى عودتهما إلى حضن الحضارة.

سمعا دمدمة أليفة: إنه صوت المدينة الصاخب...

شعرت أليس بإحساس غريب، فسحبت غابرييل نحو ضوء شمس ينبعث من وسط أوراق الأشجار. مضيا منجذبين بذلك الضوء إلى أن وصلا إلى ما يبدو أنه جرف ماء مُعشوشب.

آنذاك شاهداه.

إنه جسر من حديد مقوس يعبر بأبهة إحدى ضفتي البحيرة. جسر طويل سكّري اللون مزركش بأربيسكات ومزين بما يشبه الزهريات.

جسر مألوف لطالما شوهد في مئات الأفلام.

جسر بُوو.

لم يكونا في باريس. ولا في دبلن.

كانا في نيويورك.

في سنترال بارك.

3

سنترال بارك ويست

نتمنى أن نصل إلى الحقيقة فلا نجد
في داخلنا إلا الشك.

بليز باسكال

- «يا إلهي!»، هتف غابرييل بينما الدهشة تعلو وجه أليس.

حتى إن كانت الحقيقة صعبة التصديق، فهي الآن ماثلة أمام أعينهم. لقد استيقظا في «الرامبل»، وهو المكان الأكثر توحشاً في سنترال بارك. إنه عبارة عن غابة حقيقية تمتد على الضفة الشمالية للبحيرة على مدى خمسة عشر هكتاراً.

كان قلباهما يخفقان وهما يقتربان من ضفة البحيرة. وصلا إلى معبر يُعدُّ نموذجاً للحركة التي يعرفها المنتزه في بداية الصباح، إذ يقصده محبو رياضة العدْو، وهواة الدراجات الهوائية، ومحبو التاي شي، والمتجولون الذين يفسّحون كلابهم.

بدا عالم المدينة المثقل بالأصوات فجأة وكأنه يفجر آذانهما: أزيز حركة السير المحمومة، أبواق السيارات، منبهات سيارات الإطفاء وسيارات الشرطة.

- «شيء شيطاني فعلاً»، همست أليس.

أحست أليس أنها أمام باب مسدود فحاولت أن تفكر. لقد كانت مستعدة أن تتقبل فكرة أنهما قد شربا مساء أمس كثيراً، إلى درجة أنهما نسيا بقية ما حدث لهما خلال الليل، ولكنه شيء غير قابل للتصديق أن يكون شخص ما قد حملهما في طائرة رغم أنفهما. لقد سبق لها أن زارت نيويورك أثناء عطلٍ كثيرة صحبة سيمور زميلها وأعز أصدقائها. وهي تعرف أن الرحلة بين باريس ونيويورك تستغرق أكثر من ثماني ساعات، إلا أن فارق الوقت بين المدينتين يجعل هذه المدة تنخفض إلى ساعتين. عندما كانا يأتيان لزيارة نيويورك كان سيمور يحجز أغلب الأوقات على رحلة الثامنة والنصف صباحاً من مطار شارل ديغول ليصلا إلى نيويورك على الساعة العاشرة والنصف صباحاً. وقد لاحظت أن آخر رحلة تنطلق من باريس تكون قبل الساعة الثامنة مساء بقليل. والحال أنها مساء أمس، الساعة الثامنة مساء، كانت في باريس. إذن لقد سافرت هي وغابرييل على متن طائرة خاصة. إذا افترضنا أنها أُركِبت طائرة غادرت باريس الساعة الثانية صباحاً، فإنها كانت ستصل إلى نيويورك الساعة الرابعة صباحاً، بالتوقيت المحلي. وهذا كافٍ لكي تستيقظ في سنترال بارك الساعة الثامنة صباحاً. وهو شيء غير مستحيل نظرياً. أما في الواقع فتلك قصة أخرى. وحتى بفرض أنهما سُفِّرا على متن طائرة خصوصية صغيرة، فإن الشكليات الإدارية اللازمة للدخول إلى نيويورك طويلة ومعقدة. إذن فكل هذه الاحتمالات ينقصها التناسق.

- «أوبس، عفواً».

ارتطم بهما شاب فوق مزلجة ذات عجلات، فأخذ يعتذر ويسترق نظرة متسائلة ومتشككة إلى الأصفاد في معصميهما.

فكرت أليس بسرعة.

- «لا يمكننا البقاء هنا جامدين عرضة لعيون المتسكعين»، قالت محذرة. «ستصل إلينا الشرطة في أقل من دقيقة».

- «ماذا تقترحين؟».

- «امسك يدي، بسرعة!».

- «هه؟».

- «امسك يدي كما لو أننا عشيقان ولنعبر الجسر!»، قالت وهي تستعجله.

نفّذ أمرها وسارا على جسر بوو. الجو بارد جاف والسماء صافية، وتظهر عن بعد ظلال بنايات سنترال بارك الباذخة معزولة: برجا سان ريمو التوأمان، واجهة داكوتا الأسطورية، مقر آرتس ديكو.

- «يجب أن نسلِّم أنفسنا للسلطات المسؤولة»، قال غابرييل وهو يواصل المشي.

- «هو ذاك، ارمِ بنفسك في فم الذئب!»، واجهته بهجوم مضاد.

- «استمعي لصوت العقل يا صغيرتي...».

- «إذا ناديتني بهذه الطريقة مرة أخرى، فسأخنقك بهذه الأصفاد! سأعصر عنقك حتى آخر نفس. حين يموت الإنسان ينطق بترهات أقل، وستتأكد من ذلك بنفسك».

تجاهل تهديدها.

- «بما أنك فرنسية، فلماذا لا تذهبين إلى السفارة الفرنسية من أجل النصيحة على الأقل!».

- «ليس قبل أن أعرف ماذا وقع بالفعل خلال الليلة الماضية».

- «على أية حال، لا تعولي عليَّ كي ألعب دور الهارب. عندما سنغادر الحديقة، سألجأ إلى أول قسم للشرطة لأحكي لهم ما وقع».

- «هل أنت غبي أم تتغابى؟ ألم تلاحظ أننا مقيدان يا رجل! لا يمكننا الافتراق ولا الابتعاد عن بعضنا، إننا مرتبطان إلى بعضنا بقوة الأمر الواقع! إذن، وما دمنا لم نعثر بعد على وسيلة للتخلص من قيدنا، فستقوم بما أقوم به».

كان جسر بوو يؤمِّن لهما انتقالاً هادئاً بين بنايات رامبل والحدائق المصطفة بعناية جنوب البحيرة. حين بلغا نهاية الجسر صعدا الطريق المحاذي لمجرى الماء حتى قبة ينبوع شيري هيل الجرانيتي.

- «لماذا ترفضين الذهاب معي إلى قسم الشرطة؟».

- «لأني شرطية، وأعرف الشرطة جيداً».

ثار عازف الجاز.

- «بأي حق تجريني إلى مصيبتك؟».

- «مصيبتي؟ قد أكون غارقة في الوحل لكنك أنت أيضاً غارق فيه معي حتى العنق».

- «لا، فأنا لم أرتكب ما أخاف بسببه!».

- «صحيح! وما الذي يسمح لك بأن تؤكد ذلك؟ ألم تقل إنك نسيت كل ما وقع لك ليلة البارحة؟!».

بدا أن ردَّها قد وضعه في مأزق.

- «إذن، فأنت لم تصدقيني؟».

- «إطلاقاً. قصتك عن بار دبلن ليست مقنعة، يا كوين».

- «كما قصة ذهابك مع صديقاتك إلى شانزلزيه! ولاحظي أنك أنت من يلطخ الدم قميصها وتحمل في جيبها مسدساً و...».

قاطعته:

- «أنت على حقٌّ فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة. المسدس معي، وعليه فإن عليك أن تغلق فمك وتفعل ما أطلبه منك بالضبط، أوكيه؟».

هز كتفيه وزفر زفرة تضايق.

ابتلعت أليس ريقها فأحست بنوع من الحرقة في صدرها، كما لو أن دفعة من الحموضة تصعد إلى بلعومها فتلطخه. هل هو الضغط؟ التعب؟ الخوف؟

كيف الخروج من هذه الورطة؟

حاولت أن تستجمع أفكارها. الساعة في فرنسا الآن تشير إلى بداية ما بعد الزوال. لا شك أن زملاءها في العمل، حين لم يروها في مقر العمل، قد بدؤوا يقلقون. لا شك أن سيمور حاول أن يتصل بها على هاتفها المحمول. سيمور من ينبغي أن تتصل به أولاً، ومن ينبغي أن تدعوه إلى التحقيق في الواقعة. بدأت تتشكل في عقلها لائحة:

1- الحصول على تسجيلات كاميرا المراقبة في مرآب فرنكلان-روزفلت.

2- إحصاء كل الطائرات الخاصة التي انطلقت من باريس بعد منتصف الليل في اتجاه الولايات المتحدة.

3- العثور على المكان الذي تمّ فيه التخلي عن سيارتها «الأودي».

4- التأكد من وجود شخص يحمل اسم غابرييل كوين ومن صحة تصريحاته...

طمأنتها آفاق هذا البحث قليلاً. منذ مدة طويلة والأدرنالين

الذي تمنحها إياه مهنتها يلعب دور البطارية في حياتها. كان ذلك الأدرنالين قد شكَّل خطراً حقيقياً كاد يعصف بحياتها، لكنه يُعدُّ اليوم السبب الذي من أجله تستيقظ كل صباح.

استنشقت هواء سنترال بارك المنعش مِلء رئتيها.

لقد اطمأنت لأن الشرطية التي في أعماقها استعادت حيويتها، وشرعت تنشط في وضع خطة تحرٍّ: سيتولى سيمور، تحت رآستها، قيادة التحريات في فرنسا، بينما تتكلف هي بإجراء الأبحاث هنا.

مضيا يداً في يد إلى أن وصلا إلى حديقة ستراوبيري فيلد التي تخول لهما بمغادرة الحديقة من جهة الغرب. كانت الشرطية تسترق النظر إلى الفنان. ينبغي أن تعرف من هو هذا الرجل فعلاً. هل هي من وضع الأصفاد في يده؟ إذا كان الأمر كذلك فما هو السبب؟

نظر إليها بدوره بنوع من الشجاعة.

– «طيب، ماذا تقترحين الآن؟».

– «هل لديك معارف في هذه المدينة؟».

– «نعم، لدي صديق مخلص، الساكسفونست كيني فورست، لكنه لسوء الحظ ذهب في جولة إلى طوكيو».

أعادت طرح سؤالها بطريقة أخرى.

– «إذن فأنت لا تعرف مكاناً نستطيع أن نجد فيه أدوات تخلصنا من هذه الأصفاد. ونغير فيه ملابسنا ونستحم؟».

– «لا»، قال مؤكداً، «وأنت؟».

– «ألم أقل لك إني أسكن في باريس!».

– «ألم أقل لك إني أسكن في باريس!»، قلَّدها بنوع من الوقاحة. «اسمعي، إني لا أرى كيف يمكننا الاستغناء عن اللجوء

إلى الشرطة: لا مال لدينا، ولا ملابس للتغيير، ولا أية وسيلة تدل على هويتنا...».

- «توقف عن نواحك. ولنبدأ بالبحث عن هاتف محمول، هل أنت متفق معي أم لا؟».

- «قلت لك إنه ليس معنا ولا كوبيك واحد! فكيف سنتصرف؟».

- «ليس أمراً معقداً، يكفي أن نسرقه».

4

المُقيَّدان

في قَلب كل صعوبةٍ تكمن إمكانية.
ألبرت أينشتاين

عندما غادرا الحديقة العمومية، سارا في شارع سنترال بارك ويست المحاذي للحديقة. مضيا فوق الرصيف قليلاً فأحسَّا بنفسيهما على الفور منجذبَين إلى مظاهر المدينة: أبواق سيارات التاكسي الصفراء وهي تجري بأقصى سرعة نحو ميد تاون، باعة الهوت دوغ، أصوات حفارات عمال قنوات الصرف.

ليس لدينا وقت نضيعه.

ضيَّقت أليس عينيها لتتفحص ما حولها جيداً. على الجهة الأخرى من الشارع تنتصب واجهة عمارة داكوتا ذات اللون الرملي فارضة وجودها. إنها العمارة التي اغتيل أمامها جون لينون قبل ثلاث وثلاثين سنة. عمارة نشاز تختلف عن كل ما حولها: بأبراجها، وبأشجار الصنوبر أمامها، وبواجهاتها وشرفاتها، وظلها المنتشر وسط سماء مانهاتن.

العصر الوسيط في قلب القرن الواحد والعشرين.

كان أحد الباعة قد نشر بضاعته على الرصيف على عجل وأخذ يبيع للسياح قمصاناً وملصقات عليها صور فرقة البيتلز.

شاهدت أليس جماعة من المراهقين على بعد عشرة أمتار أمامها: إسبانيون ثرثارون منشغلون بالتقاط صور أمام العمارة. مضى على أسطورة البيتلز ثلاثون سنة، إلا أنها لا تزال جذابة...

بعد ثوانٍ قليلة كانت أليس قد انتهت من تحديد «هدفها»، وجهَّزت خطة هجوم على عَجَل.

نظرت إلى غابرييل وأشارت إلى الجماعة بذقنها.

- «أرأيت الشاب الذي يجري مكالمة؟».

حكَّ غابرييل عنقه.

- «من؟ نصفهم يجرون مكالمات».

- «القصير السمين صاحب النظارات، الأصلع الذي يرتدي قميص فريق بارشلونة».

- «ليس من الشجاعة مهاجمة طفل...».

صرخت أليس:

- «يبدو أنك لم تستوعب بعد الورطة التي نحن فيها يا كوين! هذا الشخص عمره ست عشرة سنة على الأقل، ونحن لن نهاجمه ولكن سنستعير منه هاتفه فقط».

- «أنا جائع»، قال الغريب مشتكياً، «ألا يحسن بنا أن نسرق هوت دوغ بدل هاتف هذا المراهق؟».

رمته بنظرة قاتلة.

- «توقف عن لعب دور المهرج، واستمع إليَّ جيداً. ستمشي ملتصقاً بي وعندما نصل إلى جانبه ادفعني، وحين أستولي على الهاتف يجب أن نفر بسرعة».

أشار غابرييل برأسه موافقاً.

- «يبدو الأمر سهلاً».

- «سهلاً؟ سترى إذا من السهل أن تجري والأصفاد في يدك...».

ما حدث بعد ذلك جرى وفق ما خططت أليس: استغلت تفاجُأ المراهق وانتزعت منه هاتفه.

- «اجرِ الآن!»، صرخت أليس نحو غابرييل.

في تلك اللحظة بالذات انتقلت إشارة المرور إلى اللون الأحمر، فاستغلا الفرصة على الفور كي يعبرا الشارع ويندفعا نحو أول شارع موازٍ. تبيَّن أن الجري بأيدٍ مقيدة أكثر صعوبة مما خشيته أليس. فإلى جانب صعوبة الجري بتناسق جنباً إلى جنب هناك فارق القامتين، والألم الذي تسببه الأصفاد كلما ازدادت سرعتهما.

- «إنهم يلاحقوننا!»، صرخ غابرييل وهو ينظر إلى الخلف.

التفتت أليس إلى الخلف بدورها لترى المراهقين الأسبان وهم يلاحقونهما.

يا لقلة الحظ!

بإشارة من رأسيهما رفعا من سرعتهما. كان الشارع 71 معبراً هادئاً، إذ إن غياب السُّياح جعل الرصيف يبدو واسعاً، ما سمح لهما بأن يتجاوزا بسرعة واجهتي البنايات التي تفصل الشارعين. كان المراهقون لا يزالون يلاحقونهما بإلحاح متصاعد، صارخين كي يثيروا انتباه المارة فيتعاطفون معهم.

شارع كولمبوس.

عادت الحركة الدائبة: المتاجر تفتح أبوابها، والمقاهي تستقبل الرواد، والطلبة يغادرون محطة المترو المجاورة.

- «يساراً!»، صرخ غابرييل وهو ينعطف فجأة.

فاجأها تغييره للمسار بسرعة، فوجدت صعوبة في الحِفاظ على توازنها، صرخت حين أحسَّت بالأصفاد تجرح جلدها.

نزلا الشارع نحو الجنوب، وهما يدفعان المارة، ويسقِطان مجموعة من اللوحات الإشهارية، بل كادا أن يدوسا على كلب يوركشاير صغير.

الشارع مكتظٌّ بالمارة.

إحساس بالدوخة. فقدان التوازن. الاحتكاك متعب. ولكي يتجنبا حركة الناس الدائبة، حاولا أن ينتقلا إلى الرصيف الآخر على بُعد أمتار قليلة.

فكرة سيئة...

كاد أن يدوسهما أحد التاكسيات. ضغط الفرامل وبوق السيارة، وأخذ يشتمهما. في اللحظة التي حاولت أليس أن تقفز إلى الرصيف علقت رجلها بالطِوَار فأدمت الأصفاد معصمها مرة أخرى، وسقطت ساحبة غابرييل خلفها. وتركت الهاتف الذي تحمّلا من أجله كل هذا العذاب، ينفلت من يدها.

اللعنة!

التقط غابرييل الهاتف بحركة سريعة.

انهضي. حثَّت أليس نفسها.

نهضا وألقيا نظرة خلفهما نحو المراهقين. كانت الجماعة قد تفرقت، إلا أن اثنين من المراهقين كانا لا يزالان يلاحقانهما عن كثب، مانحَين نفسيهما قصة ملاحقة في مانهاتن، يتمنيان أن يخرجا منها منتصرين كي يفتخرا بها في حضرة صديقتيهما عند عودتهما.

- «هؤلاء الأوغاد يركضون بسرعة!»، صرخ غابرييل غاضباً، «كبرت على مثل هذه الصبيانيات!».

- «ابذل مجهوداً أكبر!»، طالبته أليس وهي ترغمه على أن يعود إلى الركض.

كانت كل اندفاعة جديدة عذاباً حقيقياً، ورغم ذلك استطاعا الصمود، يداً في يد. عشرة أمتار، خمسون متراً، مئة متر. عدة مناظر متفرقة كانت تظهر لهما وهما يعدوان بكل سرعة: قنوات الصرف وهي تطرد بخارها نحو السماء، أدراج العمارات وهي تختفي عن ناظريهما ما أن ينتقلا من واجهة عمارة إلى واجهة عمارة أخرى، وجوه الأطفال الساخرة من المشهد من خلف سيارات المدارس. سلسلة من العمارات من زجاج وحديد، ولوائح إشهارية.

الشارع 67. الشارع 66.

أدمت الأصفاد معصميهما وتعِبت رئتاهما، ولكنهما استمرا في الركض مدفوعين بشحنة الأدرنالين، كان لا يزال في داخلهما، بخلاف الأطفال خلفهما، شحنة من نفَس جديد. صار توازنهما جيداً، وركضهما منساباً. بلغا تقاطع شارعي برودواي وكولمبوس. تحول الشارع حينها إلى منعطف ضخم تتلاقى عنده ثلاثة طرق ذات أربعة مسالك.

- «الآن!».

تحملا كل الأخطار حين اندفعا فجأة ليعبُرا المنعطف المائل تحت وابل من أصوات الفرامل وأبواق السيارات.

يُشغِل مركب لينكولن الثقافي كل واجهة الجهة الغربية من برودواي، بين الشارع 65 و63. رفعت أليس عينيها لتتبيَّن وجهتها.

شاهدت باخرة عملاقة ذات طوابق عديدة من زجاج وحديد وهي تمتد مقدمتها حتى وسط الشارع.

تعرَّفت إلى أوبرا جليار سكول التي سبق لها أن مرت من أمامها رفقة سيمور. من خلف الواجهة الزجاجية الشفافة يمكن أن يشاهد المارة خطوات الباليرينات الراقصة وعمق الاستوديو الذي يتدرب فيه الموسيقيون.

- «مرآب الأوبرا في القبو!»، صرخت أليس وهي تشير إلى منحدر من إسمنت يؤدي إلى قبو.

وافق غابرييل على فكرتها، فاندفعا إلى أعماق البناية متجنبين السيارات الصاعدة نحو باب الخروج. حين وصلا إلى الطابق الأول من القبو، استجمعا ما تبقى لديهما من قوة ليعبُرا الساحة التي اصطفت فيها السيارات، ثم صعدا أحد سلالم الخروج التي تؤدي إلى ساحة داموش بارك.

عندما وجدا نفسيهما في الهواء الطلق أخيراً، لاحظا بارتياح أن المراهقين اختفوا.

*

اتكأت أليس وغابرييل على الحائط الصغير الذي يحيط بالساحة يسترجعان أنفاسهما. كانا عَرقَانين وعاجزين من شدة الألم.

- «ناولني الهاتف»، طلبت منه بنفسٍ متقطع.

- «اللعنة، لقد... لقد أضعته!»، صرخ وهو يضع يده في جيبه.

- «مستحيل! فأنت...».

- «إني أمزح فقط»، طمأنها وهو يعطيها الهاتف.

رمته أليس بنظرة مدمرة واستعدت من أجل أن تشتمه، لكن

طعماً حديدياً غمر فمها فجأة. أحسَّت بالدوار والغثيان، فانحنت صوب حوض زهور وتقيأت.

- «إنك في حاجة إلى ماء».

- «الأكل هو ما أحتاج».

- «ألم أقل لك إنه يحسن بنا أن نسرق هوت دوغ!».

تقدما بحذر صوب سقاية عمومية كي يشربا. كانت حديقة دامروش محاطة بقاعة نيويورك سيتي باليه، وبأقواس أوبرا ميتروبوليتان الزجاجية، وتشهد حركة دائبة تكفي أن لا ينتبه إليهما أحد. وكان في الحديقة نفسها عمال منهمكون في نصب خيام ومنصات استعداداً لاستعراض سيقام فيها.

بعد أن شربا تأكدت أليس أن الهاتف غير محمي بأي رمز سري، فاتصلت بهاتف سيمور المحمول.

في انتظار أن يتم الاتصال وضعت أليس الهاتف بين عنقها وكتفها وأخذت تمسد عنقها. كان قلبها لا يزال يخفق بشدة.

أجب، يا سيمور...

كان سيمور لومبار نائباً لأليس في فرقة التحقيقات التي تترأسها. وتتكون «فرقة شافر» من خمسة أفراد يتقاسمون أربعة مكاتب في الطابق الثالث، 36 طريق أورففر.

تطلعت أليس إلى ساعتها لتتأكد من الفارق الزمني. الساعة في باريس الآن تشير إلى الثانية وعشرين دقيقة بعد الزوال.

ردَّ الشرطي بعد ثلاث رنات، لكن أصوات الحوارات من حوله جعلت الحوار صعباً. إذا لم يكن سيمور في المكتب فهو من دون شك ما زال يتناول وجبة الغداء.

- «سيمور؟».

- «أليس؟ اللعنة، أين أنت؟ أرسلت إليك عدة رسائل إلكترونية».

- «أنا في مانهاتن».

- «هل تسخرين مني».

- «يجب أن تساعدني يا سيمور».

- «أسمعك بصعوبة كبيرة».

الشيء نفسه بالنسبة إليها. الاتصال سيئ وصوت نائبها يصلها متقطعاً.

- «أين أنت يا سيمور؟».

- «في مقهى القصر، ساحة دوفين. اسمعي، سأعود إلى المكتب وأعيد الاتصال بك بعد خمس دقائق، أوكيه؟».

- «طيب. هل ظهر الرقم على هاتفك؟».

- «نعم».

- «ممتاز. أسرع، إن لدي عملاً أكلفك به».

أنهت أليس المكالمة محبطة ومدت بالهاتف إلى عازف الجاز.

- «إذا كنت ترغب في إجراء مكالمة فهذا هو الوقت المناسب. أمنحك خمس دقائق. أسرع».

نظر إليها غابرييل بنوع من الاستغراب، رغم حالة الاستعجال والخطر المحدق، فإنه لم يستطِع أن يمنع نفسه من أن يبتسم ابتسامة صغيرة.

- «هل تتحدثين مع الناس بهذه النبرة الآمرة دائماً؟».

- «لا تعد إلى مضايقتي»، صدته قائلة. «هل تريد هذا الهاتف أم لا؟».

أمسك غابرييل بالهاتف وفكر للحظة.

- «سأتصل بصديقي كيني فورست».

- «عازف الساكسوفون؟ ألم تقل إنه في طوكيو».

- «بقليل من الحظّ قد يكون ترك مفاتيح شقته عند أحد الجيران أو الحارسة. أتعرفين ما الساعة الآن في طوكيو؟»، سألها وهو ينقر الرقم على الهاتف.

- «أظن أنها العاشرة مساء».

- «اللعنة، إنه ما زال يعزف في الحفلة».

فعلاً، ردَّ على غابرييل صوت مجيب آلي، فترك رسالة يشرح فيها أنه في نيويورك ويعِد بالعودة إلى الاتصال فيما بعد.

أعاد الهاتف إلى أليس. تطلعت إلى ساعتها زافرة.

أسرع يا سيمور! قالت مترجية وهي تضم الهاتف الذكي بين أصابعها. كانت مصرة على أن تعود إلى الاتصال بنائبها، فإذا بها ترى الرقم المكتوب في باطن يدها بالحبر الجاف. كان الرقم قد بدأ ينمحي بسبب العرق.

- «هل يذكرك هذا الرقم بشيء ما؟»، سألته أليس وهي تفتح يدها أمام عيني غابرييل.

2125558900

- «اكتشفت هذا الرقم عندما استيقظت صباحاً. ومع ذلك لا أتذكر أني كتبته».

- «أليس من المحتمل أن يكون رقم هاتف؟ أرني إياه ثانية... هوراه!»، صرخ غابرييل، «212 هو الرقم الاستدلالي لمدينة مانهاتن. هل أنت متأكدة من أنك شرطية؟».

كيف فاتني ذلك؟

تجاهلت سخريته واتصلت بالرقم. أتاها الرد من أول رنة:

- «فندق غرينويتش، صباح الخير. كانديس في خدمتكم. هل يمكنني مساعدتكم».

فندق؟

فكرت أليس بسرعة فائقة. ماعلاقتها بهذا العنوان؟ هل سبق لها أن نزلت بهذا الفندق ولو لمدة قصيرة؟ لا معنى لكل ذلك ولكنها جربت حظها:

- «رجاء، هل في إمكاني الاتصال بغرفة أليس شافر؟».

- «أظن أن لا أحد من بين نزلائنا يحمل هذا الاسم، سيدتي».

ألحّت أليس:

- «تظنين أم أنك متأكدة؟».

- «متأكدة تماماً، سيدتي. أنا آسفة».

لم تكن أليس قد أنهت مكالمتها حين ظهر رقم سيمور على شاشة هاتفها. ردت على نائبها دون أن تكلف نفسها عناء شكر محدّثتها.

- «هل أنت في المكتب يا سيمور؟».

- «على وشك الوصول إليه، أجابها بصوت منقطع النفس. طمئنيني بأن قصة تواجدك في نيويورك ليست إلا مزحة».

- «لا، للأسف، ليس لدي إلا وقت قليل، ويجب أن تساعدني».

حكت له كل ما حدث لها عشية أمس في ثلاث دقائق: خروجها مع صديقاتها إلى حانات شانزلزيه، فقدانها للذاكرة منذ لحظة نزولها إلى المرآب، استيقاظها في سنترال بارك مقيَّدة إلى رجل غريب، وأخيراً سرقة الهاتف من أجل أن تتصل به.

- «لا، إنك تتلاعبين بي، ما هذه اللعبة التي تلعبين يا أليس؟ لدي عمل كثير هنا. القاضي يريد ملاقاتك: لقد رفض طلب الاستماع إلينا بخصوص قضية «سيغار»، وفيما يخص تايلاندييه، فهي...».

- «اللعنة، استمع إلي!»، صرخت أليس مقاطعة زميلها.

اغرورَقت عيناها بالدموع وشُدَّت أعصابها عن آخرها. أحسَّ نائبها بهشاشة صوتها رغم أنها في الضفة الأخرى من الأطلسي.

- «اللعنة، لست أمزح! أنا في خطر ولا يمكن أن أعتمد إلا عليك».

- «حسناً، اهدئي الآن. لماذا لم تتصلي بالشرطة؟».

- «لماذا؟ لأن في جيب سترتي مسدساً ليس لي يا سيمور، ولأن قميصي ملطخ بالدم، ولأني لا أحمل أية بطاقة هوية! هذا هو السبب. سيعتقلونني دون أن يكلِّفوا أنفسهم عناء البحث عن أسباب أخرى».

- «لن يعتقلوك إذا لم تكن هناك جثة»، اعترض الشرطي.

- «لست متأكدة بخصوص الجثة. يجب أن أعرف أولاً ماذا حدث لي. اعثر لي على وسيلة للتخلص من هذه الأصفاد!».

- «ماذا في إمكاني أن أفعل؟».

- «أمك أمريكية، ولديك عائلة هنا، وتعرف كثيراً من الناس».

- «أمي تسكن في سياتل، وأنت تعرفين ذلك جيداً. وفي نيويورك ليس لدي إلا خالة محدودة الذكاء تسكن في إبر إيست سايد. لقد سبق أن زرناها معاً عندما ذهبنا إلى مانهاتن أول مرة، هل تذكرين؟ عمرها خمس وتسعون سنة، ولا أعتقد أنها تملك منشاراً لقطع الحديد. لن تستطيع مساعدتك».

- «من يستطيع، إذن؟».
- «اتركيني أفكر، ربما لدي فكرة، لكن ينبغي أن أجري اتصالاً هاتفياً حتى لا أبعث بك إلى عنوان خاطئ».
- «أوكيه، عاوِد الاتصال بي، ولكن أسرع، أرجوك».
أنهت المكالمة وضمت قبضتها. نظر غابرييل إلى عينيها. كان في إمكانه من خلال خلجات جسد «شريكته» أن يحس بما يفتعل في داخلها من غضب وخيبة.
- «من هو هذا السيمور؟».
- «نائبي في فرقة محاربة الجرائم، وهو أعز أصدقائي أيضاً».
- «هل أنت متأكدة أن في إمكاننا أن نثق به؟».
- «كل التأكد».
- «رغم أني لا أفهم الفرنسية جيداً، فقد أحسست أنه لم يكن متلهفاً لمساعدتك...».
لم تقل شيئاً، فواصل:
- «والفندق، لا شيء؟».
- «لا شيء كما سمعت، أيها المتنصِّت على المكالمات».
- «من هذه المسافة يصعب على كل شخص أن لا يتنصَّت! فلتغفر لي سيدتي عدم احترام سرية المكالمات ألتي اضطرتني إليها الظروف القائمة»، دافع غابرييل عن نفسه بنبرة ساخرة. «ثم إنك لست وحدك الواقعة في ورطة كما سبق أن ذكّرتِني».
أدارت وجهها إلى الجهة الأخرى كي تتجنب نظرة كوين. كانت حانقة:
- «اللعنة، لا تنظر إلي بهذه الطريقة. ألا تريد أن تجري اتصالاً آخر. ألا تريد أن تُطلِع شخصاً آخر: زوجة مثلاً، أو صديقة...».

- «لا، أفضّل أن يكون لي في كل ميناء فتاة، إنه شعاري، فأنا حر كالريح، حر كنوطات الموسيقى التي تصدر عن البيانو الذي أعزف عليه».

- «نعم، حر ووحيد. أعرف جيداً الرجال الذين هم من صنفك».

- «وأنت، متزوجة أم لديك عشيق؟».

تحاشت الجواب بحركة من رأسها، لكنه أحس بأنه وضع يده على شيء حساس.

- «لا، إنني جاد يا أليس، هل أنت متزوجة؟».

- «اغرب عن وجهي يا كوين؟».

- «نعم، لقد فهمت، فأنت متزوجة»، استخلص الغريب.

وبما أنها لم تنكر، فقد وجد الفرصة ليتمادى في السؤال.

- «لماذا لم تتصلي بزوجك؟».

عادت إلى ضمِّ قبضتها.

- «زواجكما يحتضر أليس كذلك؟ لا أستغرب ذلك بالنظر إلى طبعك السيئ...».

نظرت إليه كما لو أنه غرس سكيناً في بطنها. ثم حلَّت الدهشة لديها محل الغضب.

- «لأنه مات أيها الوغد السوداوي».

*

أغاظه سوء تخمينه فظهرت عليه علامة الدهشة. قبل أن يتمكن من الاعتذار رنَّ الهاتف رنة بشعة - هي عبارة عن مزيج لا يُحتمل بين السالسا والإلكترو.

- «نعم يا سيمور؟».

- «وجدتُ حلاً لمشكلتك، هل تتذكرين نيكي نكوفسكي يا أليس؟».

- «ذكّرني بها».

- «عندما ذهبنا إلى نيويورك خلال رأس السنة الأخيرة، قمنا بزيارة جماعة من الفنانين المعاصرين. . .».

- «في عمارة كبيرة قرب الأرصفة، هو ذاك؟».

- «نعم، في حي ريد هوك. وتناقشنا طويلاً مع فنانة تنحت على صفائح الحديد والألمنيوم».

- «واشتريت منها في النهاية لوحتين من أجل مجموعتك، هل تذكر؟».

- «نعم، إنها هي، نيكي نكوفسكي. وقد بقينا على اتصال. اتصلت بها قبل قليل عبر الهاتف. مرسمها موجود في معمل مهجور، ولديها الأدوات اللازمة لقطع حديد الأصفاد، وهي موافقة على مساعدتك».

تنهدت أليس معبِّرة عن ارتياحها.

تمسكت بهذا الخبر المطمئن وعرضت على نائبها خطتها:

- «عليك أن تجري التحقيق من جهتك يا سيمور. ابدأ بالحصول على تسجيلات كاميرا المراقبة في مرآب شارع فرنكلن-روزفلت. وتأكد إن كانت سيارتي لا تزال هناك أم لا؟».

واصل الشرطي:

- «أخبرتني أن كل حاجياتك سرقت منك، إذن في إمكاني محاولة ترصد هاتفك المحمول وعمليات حسابك البنكي».

- حسناً، وتحرَّ عن كل الرحلات الخاصة التي انطلقت من باريس نحو نيويورك خلال الليل. ابدأ بمطار بورجيه ثم وسِّع دائرة

البحث لتشمل المطارات الصغيرة في ضواحي باريس. وحاول أن تعثر على معلومات عن شخص يُدعى غابرييل كوين: عازف جاز أمريكي. تأكد إن كان قد أحيا بالفعل سهرة مساء أمس في أحد نوادي دبلن، نادي يدعى «براون شوغر».

- «معلومات عني أنا؟»، حاول غابرييل أن يقاطعها. «ما هذه الجرأة!».

أشارت إليه أليس بإشارة من رأسها تدعوه إلى الصمت، واستمرت في استعراض خريطة طريق موجهة إلى نائبها.

- «اسأل صديقاتي أيضاً، كارين بابيت، مليكة حدّاد، وسامية الشواكي، من يدري فقد تجد لديهن أخباراً. درسنا في كلية الطب معاً وستجد أرقام هواتفهن في ملف مكتبي».

- «أوكيه».

خطرت لها فكرة أخرى بشكل مفاجئ.

- «وحاول أن تبحث عن مصدر مسدس من نوع «غلوك 22». إليك رقمه الترتيبي».

وأملت عليه الرقم.

- «حسناً، لقد سجلت كل شيء، وسأبذل كل ما أستطيع لمساعدتك، لكن يجب أن أخبر تايلاندييه أولاً».

أسدلت أليس أجفانها. عبرت مخيلتها صورة ماتيلد تايلاندييه، عميدة قسم محاربة الجريمة. تايلاندييه لا تحبها كثيراً، وأليس تبادلها الشعور نفسه. منذ «قضية إريك فوغن» وهي تحاول أن تبعدها عن الوحدة 36، إلا أن رؤساءها عارضوا ذلك وما زالوا لأسباب سياسية بشكل خاص. لكن أليس تدرك أن وضعها هشٌ.

- «لا تفعل ذلك»، دعته حاسمة الأمر، «اترك الآخرين جانباً واعتمد على نفسك فقط. لقد أنقذتك في مناسبات كثيرة، فحاول أن تتحمل قليلاً من المخاطرة من أجلي يا سيمور».

- «أوكيه، سأتصل بك إذا كان هناك جديد».

- «بل أنا من سأتصل. لن أستطيع الحفاظ على هذا الهاتف طويلاً. حاول أن ترسل لي عنوان نيكي نكوفسكي بواسطة رسالة SMS».

أنهت أليس المكالمة، وبعد ثوانٍ قليلة ظهر عنوان مرسم النحاتة على شاشة الهاتف الذكي. بحثت في الهاتف الذكي عن موقع المكان.

- «ريد هوك، ليس المكان قريباً من هنا»، لاحظ غابرييل وهو ينحني ملقياً نظرة على شاشة الهاتف.

وسَّعت أليس البحث في الهاتف الذكي. «المرسم موجود جنوب غرب بروكلين. لا أمل في الذهاب إليه مشياً أو بواسطة وسيلة نقل عمومية».

- «وليست معنا نقود لشراء تذكرة باص أو ميترو»، لاحظ غابرييل كما لو أنه قرأ أفكارها.

- «ماذا تقترح إذن؟»، سألته كما لو أنها أرادت أن تستفزه.

- «الأمر سهل: سنسرق سيارة»، أكد غابرييل، «لكن اتركيني أتصرف هذه المرة، متفقة أم لا؟».

*

عند نقطة تقاطع شارع أمستردام وشارع 61، يوجد بين عمارتين ممر ضيق مسدود.

حطَّم غابرييل زجاج سيارة ميني قديمة بضربة من مرفقه كانا قد

قضيا أكثر من ربع ساعة في البحث قبل أن يعثرا على سيارة مركونة في ذلك المكان البعيد عن العيون، سيارة قديمة يمكن تشغيلها على الطريقة القديمة.

إنها سيارة «أوستن كوبرس» ثنائية اللون، بنية والسقف أبيض. وهي من أحد موديلات الستينيات الشهيرة، وقد بذل صاحبها الهاوي جهداً كبيراً في أن يعيد إليها كل رونقها.

- «هل أنت متأكد مما تفعل؟».

- «وهل هناك شيء في هذه الحياة نستطيع أن نكون متأكدين منه؟».

أدخل يده عبر الزجاجة المكسورة وفتح الباب. سرقة سيارة ما بواسطة حكِّ سلكين كهربائيين لتشغيلها ليس أمراً سهلاً كما توهِمنا الأفلام، بل هو معقد، ويزداد تعقيداً إذا كان الشخص مقيداً إلى شخص آخر.

كانا قد اتفقا تلقائياً على تقاسم الأدوار: تقوم هي بالحراسة بينما يحاول هو تشغيل المحرك.

بحركة قوية نفذ غابرييل إلى ثلاثة أسلاك مختلفة الألوان تحت المقوَد.

- «أين تعلمت هذا؟».

- «في مدرسة الشارع، حي أنغلوود، جنوب شيكاغو».

أخذ يتفحص الأسلاك الثلاثة بعناية ليتعرف إلى السلكين اللذين سيشغلان المحرك.

- «هذا هو السلك الذي يزوِّد كل المدار الكهربائي للسيارة»، شرح لها وهو يشير إلى السلكين البنيين.

- «ما هذا! هل ستلقي علي محاضرة في الميكانيك الآن».

عرَّى رأس السلكين وهو مغتاظ، ثم حكهما على بعضهما ليشغّل المحرك. ظهر الضوء على لوحة القيادة.

- «اللعنة، أسرع! لقد رأتني امرأة أطلت من نافذتها».

- «وهل تعتقدين أن الأمر سهل! كم كنت أتمنى أن أرى ماذا تستطيعين أن تفعلي لو كنت مكاني».

- «كان عليك أن لا تتبجح بـ«مدرسة الشارع»».

دفعته العَجَلة أن يتخلى عن حذره، فيشرع في تعرية السلك بأسنانه.

- «ساعديني بدل التشكي! امسكِ هذا السلك وحكيه بلطف مع هذا الذي أُمسك، هكذا، نعم...».

سمعا صوت المحرك. تبادلا نظرة تواطؤ سريعة احتفالاً بهذا الانتصار الصغير.

- «أسرع»، دعته وهي تدفع به إلى داخل السيارة، «سأتولى القيادة».

- «لن يحدث ذ...».

- «إنه أمر»، قاطعته. «ليس لدينا اختيار آخر على كل حال! سأقود بينما تتولى أنت أمر علبة تغيير السرعة».

5

ريد هوك

هناك أشياء نتعلمُها بشكل أحسن وسط
الهدوء بينما هناك أشياء أخرى لا نتعلمها
إلا في خضم العاصفة.

ويلّا كيثر

كانت سيارة شرطة مقاطعة نيويورك، من نوع فورد توريس، متوقفة عند ملتقى برودواي والشارع 66.

أسرع، يا مايك!

جلست جودي كوستيلو، البالغة من العمر أربعاً وعشرين سنة، تنتظر بصبر نافِد وهي تنقر بأصابعها على المقوَد.

التحقت الشابة بشرطة نيويورك عند بداية الشهر، وقد كان عملها أبعد ما يكون عن الإثارة التي تمنتها. لم يكن قد مضى على الفترة الصباحية أكثر من خمس وأربعين دقيقة، وها هي ذي تحسُّ بساقيها متعبتين. يشمل مجال مراقبتها، غرب سنترال بارك، حياً راقياً كثير الهدوء، وهو أمر لا يروقها. طوال خمسة عشر يوماً اقتصر عملها على توجيه السُّياح، وملاحقة اللصوص، وتغريم أصحاب السيارات الذين لا يحترمون السرعة المسموح بها، وإبعاد السكارى.

وازدادت معاناتها بأن عيَّن لها رؤساؤها زميلاً عِبارة عن كاريكاتير حقيقي: إنه مايك هرنانديز الذي لم يعد يفصله عن سنِّ التقاعد إلا ستة أشهر. شخص ثقيل الحركة، من أنصار الخمول واقتصاد الجهد، لا يفكر إلا في الأكل ويسعى إلى أن يعمل أقل ما يمكن، فيُكثر من أجل ذلك من «استراحات الهمبرغر» و« توقفات الكوكا كولا»، ويقتنص كل فرصة لكي ينخرط في أحاديث مطولة مع التجار والسُّياح. شخص له نظرة خاصة إلى ما تعنيه شرطة القرب...

حسناً، يكفي هذا الآن! قالت جودي غاضبة، إننا مع ذلك لا نحتاج إلى ساعتين كي نشتري فطائر مقلية!

شغَّلت الضوء المُنبه وغادرت السيارة. كانت على وشك الدخول إلى المتجر حين شاهدت المراهقين الستة يركضون.

- «لادرون، لادرون!»[1].

أمرتهم أن يهدؤوا بصرامة قبل أن تَقبَل الاستماع إليهم وهم يتكلمون إنكليزية رديئة. اعتقدت أول الأمر أنها سرقة هاتف محمول عادية، وكانت على وشك أن توجههم إلى الشرطة المختصة كي يَدلُوا بشكواهم، إلا أن ملاحظة صغيرة أثارت انتباهها.

- «هل أنت متأكد أن اللصين كانا مقيَّدين؟»، سألت ذاك الذي بدا لها أقل غباء وأكثر دمامة: وهو مراهق يرتدي قميص لاعبي كرة القدم، ذو وجه دائري وحلاقة شعر غريبة، ويلبس نظارات لتصحيح النظر.

- «كل التأكد»، أجاب الإسباني، مدعَّماً من كل رفاقه.

---

(1) وردت الكلمة بالإسبانية في النص، ومعناها: لص، لص!

عضت جودي على شفتها السفلى.

هاربان؟

من الصعب تصديق ذلك. كانت قد تلقت، ككل صباح، كل الإعلانات المتعلقة بالمطلوبين لدى العدالة مصحوبة بالمعلومات الكافية، مبعوثة من طرف مكتب الزملاء في دورية الاستعلامات. لم يكن من بينها أي إعلان ينطبق على الجانيَين.

انقادت إلى حدسِها فأخرجت من صندوق السيارة لوحتها الإلكترونية.

- «ما نوع هاتفك يا ولد؟».

استمعت إلى جوابه وربطت الاتصال بموقع الصانع عبر الإنترنت. ثم طلبت من المراهق بعد ذلك أن يمدها بعنوان رسائله الإلكترونية والرقم السري.

حين يتم الاتصال يتمكن المتصل من النفاذ إلى رسائل، مستعملاً الهاتف ولائحة أرقام الهواتف المخزَّنة فيه، ومكان الهاتف. كانت جودي على علم بهذه العملية لأنها سبق أن لجأت إليها قبل ستة أشهر بخصوص حياتها العاطفية. وسمحت لها العملية آنذاك بمراقبة تحركات حبيبها السابق وذهابه إلى ملاقاة عشيقته، ما مكنها من الحصول على الدليل القاطع على خيانته.

ضغطت الزر المناسب لإجراء البحث. ظهرت على اللوحة نقطة زرقاء. أسفر البحث عن أن هاتف الولد موجود الآن وسط جسر بروكلين.

واضح أن اللصين لم يكتفيا بسرقة الهاتف ولجآ إلى سرقة سيارة أيضاً، وهما الآن يحاولان مغادرة مانهاتن!

طرد تفاؤلها سأمها: لقد صار لديها الآن أمل في أن تشتغل

على عملية بحث حقيقية ستمنحها إمكانية للترقي، وبالتالي الانتقال إلى العمل في قسم آخر أكثر أهمية.

نظرياً، كان عليها أن تذيع المعلومة على موجة راديو شرطة نيويورك كي تتمكن إحدى دوريات بروكلين من التصدّي للمشبوهين.

إلا أنها لم تكن راغبة في أن تترك هذه القضية تنفلت من بين يديها.

ألقت نظرة صوب «دانكن دونتس». لا أثر لمايك هرناندز. للأسف...

جلست خلف المقوَد، شغلت الفَنار والمُنبه ومضت نحو بروكلين.

*

يتوغل حي السفن المحاط بالمياه نحو مقدِّمة شبه جزيرة بروكلين غرباً.

وصلت سيارة الميني إلى نهاية شارع «فان برونت»، الشارع الرئيس الذي يعبُر ريد هوك من الشمال إلى الجنوب لينتهي إلى مَعبرٍ ضيق. تنتهي الطريق لتترك المجال لمعمل صناعي مسيَّج يُفضي إلى الأرصفة مباشرة.

ركنا السيارة جنب طِوَار محطم. نزلا من الباب نفسه معاقين بالأصفاد. رغم الشمس الحارة، فإن برداً قارساً كان يخيِّم على المكان.

- «برد قارس!»، اشتكى عازف الجاز وهو يرفع ياقة سترته.

شيئاً فشيئاً، بدأت أليس تتعرف إلى المكان. جمال المنظر الصناعي الفظ، المخازن التي لم تعد مخازن، حركة المرافع الراقصة، تساكن سفن الشحن والزوارق الشراعية.

أحست كأنها أمام مشهد من مشاهد نهاية العالم، لا يكاد يفسده إلا منظر تلك المراكب الصغيرة التي تطلُّ قرونها من خلال الضباب.

كان الحي الصناعي، في آخر مرة أتت فيها أليس إلى هنا رفقة سيمور، قد خرج لتوه من عبور عاصفة «ساندي»، وكان المدُّ حينذاك قد أغرق الأنفاق التي قرب البحر تماماً. أما اليوم فيبدو أن كل الخسائر أصلِحت.

- «مرسم نيكي نكوفسكي موجود في هذه البناية»، قالت أليس مشيرة إلى مصنع للآجر يبدو من خلال عظمة مواقده أنه كان واحداً من أكبر مصانع بروكلين أيام مجدها وتألقها.

تقدَّما إلى الأمام. الأرصفة شبه فارغة. لا أثر لأي سائح أو متجول. بعض المقاهي والدكاكين وبعض دكاكين المواد المستعملة مصطفة في شارع فان برونت، إلا أنها لم تفتح أبوابها بعد.

- «من هي هذه المرأة التي نحن ذاهبان إليها؟»، سألها غابرييل وهو يقفز من فوق أنبوب صرف صحي.

- «عارضة أزياء اشتهرت في السبعينيات».

برقت عينا عازف الجاز.

- «عارضة أزياء حقيقية؟».

- «لا تحتاج إلا إلى القليل كي تتحمس، أليس كذلك؟» قالت له مؤاخذة.

- «لا، فأنا مندهش فقط من هذا التحول»، أجابها غير راضٍ.

- «على كل حال، يبدو أن رسوماتها ومنحوتاتها لم يعد لها أية أهمية لدى العارضين».

- «صديقك سيمور، هل هو من عشاق الفنّ المعاصر؟».

- «نعم، أكثر من ذلك فهو من هواة جمع اللوحات الفنية. أورثه والده هوايته، وما يكفي من المال كي يشبع رغبته».

- «وأنتِ؟».

- «أنا... لا أفهم شيئاً في الفنّ. غير أن لكل شخص فنه: وفني أنا مصيدتي الخاصة».

- «وماذا تصطادين بها؟».

- «المجرمين والقَتَلة».

حين وصلا إلى المعمل القديم المهجور، وقفا لحظة مندهشين لأن الباب لم يكن مغلقاً. صعدا في مصعد هو في الحقيقة مصعد لحمل السلع. وصلا الطابق الأخير، فضغطا الزر مرات عدة قبل أن تفتح لهما نيكي.

*

وَزرة جلدية، قفازات سميكة، واقٍ من الأصوات، حامٍ للوجه ونظارات سوداء. كان قوام عارضة الأزياء المثير يختفي وراء لباس حدّاد حقيقي.

- «صباح الخير، أنا أليس شافر، لا شك أن صديقي سيمور...».

- «ادخلا، بسرعة!»، قاطعتها نيكي وهي تزيل القناع والنظارات السوداء. «أحذركما، مشاكلكما لا تعنيني، ولا أريد أن أُقحم فيها. سأزيل الأصفاد وعليكما أن تنصرفا في الحال، هل فهمتما؟».

وافقا بحركة من رأسيهما وأغلقا الباب خلفهما.

يشبه المكان ورشة حدّاد أكثر من مرسم فنان. لا يضيئه إلا ضوء النهار، وهو عبارة عن غرفة واحدة كبيرة جداً، على حيطانها

أجهزة مختلفة: مطارق بكل الأحجام، حديد، آلات لِحَام، وجمرات مستعرة في مصهر ترسم حوافاً برتقالية اللون حوالي سندان ومِحراك للنيران.

سارا على الأرض العارية وسط المعروضات الحديدية التي ألقيت على الأرض كيفما اتفق: نماذج مطبوعة على الحديد ذات انعكاس بنفسجي ورصاصي، منحوتات من حديد صدئ تهدد حدّتها بتمزيق السقف...

- «اجلسا هنا»، أمرتهما النحاتة وهي تشير إلى مقعدين ممزقين كانت قد وضعتهما في ذلك المكان قبل وصولهما.

دفعهما استعجالهما إلى أن يجلسا مستعدين إلى ما ستأمر به النحّاتة. في الوقت الذي كانت تجهّز آلتها القاطعة، طلبت منهما أن يضعا سلسلة الأصفاد بين مخالب مِلزَمة. ثم شغلت قاطعة الحديد التي أحدثت على الفور صوتاً فظيعاً واقتربت من الهاربين.

قطعت الآلةُ السلسلة في أقل من ثلاث ثوانٍ، فانفصلا عن بعضهما فجأة. ضربات أخرى قليلة بواسطة آلة حادة خلصتهما من الأصفاد نهائياً.

أخيراً! قالت أليس متنهدة وهي تدلّك معصمها المُدمى قليلاً.

تلفظت ببعض كلمات شكر، إلا أن نكوفسكي قاطعتها بحدّة:

- «اذهبا، الآن!»، طلبت منهما وهي تشير إلى الباب.

نفّذا طلبها شاعرين بنشوة عودتهما إلى الحرية.

*

عادا إلى الأرصفة. لم يجب هذا الخلاص على أي سؤال من أسئلتهما الكثيرة، إلا أنه كان شاهداً على مرحلة: مرحلة استرجاع استقلالهما، وهي الخطوة الأولى نحو الاقتراب من الحقيقة.

سارا في الميناء قليلاً يملؤهما نوع من الشعور بالتخلص من عبء ثقيل. كانت الريح قد صارت دافئة، وبقيت السماء زرقاء كما كانت، فبدا منظرها متناقضاً مع عنف الديكور المابعد-صناعي من حولهما: أراضي مهجورة، صف من المحلات والمخازن الفارغة. إنه منظر مسكر فعلاً، إذ تكفي نظرة واحدة لتملأ عينيك بمنظر خليج نيويورك، انطلاقاً من تمثال الحرية حتى نيوجرسي.

- «هيا، إني أدعوكِ إلى شرب قهوة سوداء!»، اقترح عليها بصوت لعوب وهو يشير إلى مقهى صغير أقيم داخل قاطرة قطار مهجورة مزيَّنة برسومات مختلفة.

أطفأت أليس حماسه.

- «وكيف ستؤدّي ثمن القهوة؟ أستسرقه هو الآخر؟».

قطَّب جبينه، مغتاظاً من صدمة الواقع. لمس ساعده. كان الألم الذي أحسه في الصباح عند استيقاظه قد صار أكثر حدّة.

أزال غابرييل سترته. كان كُمّ قميصه ملطخاً بالدم. رفع الثوب فرأى الضمادة التي تحيط بساعده. ضمادة كبيرة من ثوب علاه دم كثير متجمد. عندما نزع الضمادة اكتشف جرحاً خبيثاً أخذ ينز على الفور. كان ساعده كله قد جُرح بضربات موسى حادة. لحسن حظه أن الجروح لم تكن عميقة. إنها جروح تبدو وكأنها...

- «رقم!»، صرخت أليس وهي تساعده على أن يجفف الدم. كان قد نُحت على جلده الرقم 141197.

تغيَّر تعبير وجه غابرييل. خلال ثوانٍ قليلة تحوَّل الشعور بالحرية إلى قناع من القلق.

- «ماذا يعني هذا الرقم السري مرة أخرى؟ قصة المجانين هذه بدأت تثير غضبي».

- «على كل حال، إنه ليس رقم هاتف هذه المرة». قدّرت أليس.

- «قد يكون تاريخاً، ما رأيك؟»، تساءل بنوع من المزاج المتعكر وهو يرتدي سترته.

- «14 نوفمبر 1997... شيء محتمل».

بحث عن نظرة الشابة الفرنسية مغتاظاً.

- «اسمعي، لا يمكن أن نبقى هكذا تائهين من دون أوراق هوية، ومن دون نقود».

- «ماذا تقترح إذن؟ أن نلجأ إلى الشرطة وقد سرقت سيارة قبل قليل؟».

- «أنت السبب».

- «آه يا للشهامة! إنك جنتلمان حقاً، فالآخر بالنسبة إليك هو المخطئ دائماً. بدأت أفهمك».

حاولَ أن لا يغضب أكثر فتخلى عن المواجهة.

- «أعرف شخصاً في تشاينا تاون يقرض مقابل رهن. عنوانه معروف لدى كل عازفي الجاز الذين يلجأون إلى الاقتراض منه ويتركون آلات عزفهم كضمانة».

شعرت بالمصيدة.

- «وماذا سنترك له كضمانة؟ البيانو الذي في حوزتك؟».

ابتسم ابتسامة قلقة ونظر إلى معصم الباريسية.

- «لا نملك إلا ساعتكِ اليدوية...».

تراجعت بضع خطوات إلى الخلف.

- «حلم لن يتحقق أبداً، يا رجل».

- «هيا، إنها من نوع باتيك فيليب، أليس كذلك؟ نستطيع أن نحصل مقابلها على. . .».

- «قلت لك: لا!»، صرخت أليس. «إنها ساعة زوجي!».

- «ما العمل إذن؟ ليس معنا إلا هذا الهاتف المحمول».

عندما رأته يلوّح بالهاتف الذي سحبه من جيبه، كادت تختنق.

- «احتفظت بالهاتف؟ ألم أطلب منك أن تتخلص منه!».

- «مستحيل! لقد تعبنا من أجل سرقته! وإلى حدِّ الآن ليس لدينا شيء غيره، قد نحتاج إليه».

- «ألا تعلم أنهم سيتمكنون من مطاردتنا بعد ثلاث دقائق بسبب هذا الهاتف؟ ألا تقرأ القصص البوليسية؟ ألا تذهب إلى السينما؟».

- «كفى، اهدئي، لسنا في فيلم».

توقفت في اللحظة التي كانت تستعد لشتمه. فقد حملت إليها الريح صوت صفارة بعيد، فاستدارت نحوه. انكمشت ثوانٍ قليلة وهي تنظر إلى الأضواء الحمراء تسدّ الطريق. إنها أضواء صفارة الإنذار وفنار سيارة الشرطة التي تسرع نحوهما.

*

- «هيا!»، صرخت أليس وهي تجذبه من ذراعه.

ركضا نحو الميني. جلست أليس خلف المقود وشغّلت المحرك. شارع فان برونت ضيق جداً ووصول سيارة الشرطة يقطع عليهما أية إمكانية للهرب من حيث جاءا.

نعم، كل إمكانية للهرب، بهذا المعنى الحرفي. . .

ليس هناك إلا منفذ وحيد: البوابة المسيَّجة التي تؤدي إلى الأرصفة. لسوء الحظ البوابة مسدودة بسلسلة حديدية.

ليس أمامنا أي خيار آخر.

- «اربط الحزام!»، أمرته وهي تنطلق سامعة صوت العجلات على الأسفَلت.

تمسكت بالمقوَد وانطلقت نحو البوابة بأقصى سرعة. انكسرت السلسلة وانطلقت السيارة فوق إسفَلت السكة الحديد التي تحيط بالمصنع.

أنزل غابرييل زجاج الميني مرتبكاً ورمى الهاتف.

- «تأخرت قليلاً!»، صرخت أليس وهي ترميه بنظرة نارية.

أحست أليس كأنها تقود لعبة، إذ أن قربها من الأرض وضيق السيارة وعجلاتها الصغيرة منحتها ذلك الإحساس.

نظرت في المرآة. لا مفاجأة، سيارة الشرطة تلاحقهما. مضت فوق الرصيف مئة متر أخرى إلى أن رأت زُقاقاً على اليمين. انعطفت لتجد نفسها على طريق مستقيمة فزادت من سرعة السيارة متوجهة شمالاً. في مثل هذه الساعة من النهار تكون حركة السير قد بدأت تصبح كثيفة في تلك الجهة من بروكلين. لم تحترم إشارتي مرور حمراوين، فكادت تتسبب في حادثة سير، ومع ذلك لم تنجح في الاختفاء عن أنظار سيارة الشرطة التي ما زالت تلاحقهما.

لم تكن الميني مريحة، إلا إنها كانت تؤدي الدور المطلوب منها. مضت تلتهم الطريق ثم خفضت السرعة قليلاً كي تنعطف بسرعة، سامعة صوت العجلات على الأسفَلت، ماضية في زُقاق الحي الرئيس.

رأت في المرآة سيارة الشرطة تقترب.

- «إنها خلفنا تماماً!»، نبهها غابرييل حين التفت إلى الخلف.

استعدت أليس للتوجه نحو النفق المؤدي إلى الطريق السريع.

كان الذوبان وسط حركة السير الكثيفة إغواء كبيراً، إلا أن «الميني موريس» لا تستطيع أن تنافس الـ V8 في هذا الميدان.

منحت أليس الثقة لغريزتها فضغطت الفرامل وحركت المقوَد بقوة حملت السيارة فوق الممر الخاص بالراجلين.

- «ستقتلينا!»، صرخ غابرييل وهو يتمسك بحزام السلامة بكل قوته. بقيت أليس ممسكة المقود بيد، واضعة الأخرى على علبة تغيير السرعة، مستمرة في قيادة السيارة فوق الرصيف، ثم وجَّهتها بعد ذلك نحو كوب هيل.

كنا على حافة الـ...

مضت السيارة يساراً، ثم يميناً، غيَّرت أليس من السرعة.

وجدا نفسيهما في زُقاق تجاري محاط بمتاجر مختلفة: محلات جزارة، متاجر إيطالية، مخابز، بل حلاق منشغل برأس زبون.

الحركة كثيرة هنا...

كانت سيارة الشرطة لا تزال تلاحقهما، إلا أن أليس استغلت حجم «الكوبر» فراوغت سيارة الشرطة وغادرت الزُقاق المَليء بالمارة، ملتحقة بالجهة الخاصة بالسكن.

*

تغيَّر المنظر الآن. تركت الديكورات الصناعية في ريد هوك مكانها لضاحية هادئة: كنيسة صغيرة، مدرسة وحدائق صغرى أمام منازل متشابهة من آجر أحمر...

رغم ضيق الأزقة لم تُنقص أليس من السرعة، استمرت تقود السيارة بسرعة كبيرة متمسكة بالمقوَد، مترقبة أي فرصة. كانت علبة السرعة في سيارة الميني قديمة شيئاً ما، تصدرُ عند كل تغيير للسرعة قرقعة توحي بأن العلبة ستتعطل.

ضغطت الفرامل فجأة حين تجاوزت زُقاقاً صغيراً. عادت بالسيارة إلى الوراء ومضت في ذلك الزقاق بأقصى سرعة.

- «ليس من هنا، المرور ممنوع هنا!».

ولسوء الحظ، فإن شاحنة سلع كبيرة كانت تحول دون أية إمكانية للمضي وسط الطريق.

- «خففي السرعة! سنصطدم بالشاحنة!».

لم تعر أليس نداءه أي اهتمام وزادت من سرعة السيارة إلى أقصاها حتى تتمكن من الصعود بالميني فوق الطِوَار. ضغطت البوق ومرت بصعوبة وهي تلقي نظرة إلى المرآة. عجزت سيارة الشرطة عن ملاحقتهما إذ وجدت نفسها وجهاً إلى وجه مع الشاحنة.

ثوانٍ معدودة من الراحة!

استمرت الميني في السير فوق الرصيف، ثم عرجت إلى اليمين.

توجها صوب حديقة مسيَّجة: حديقة كوبل هيل.

- «هل تعرف أين نحن؟»، سألته أليس وقد خففت من السرعة ماضية بمحاذاة السياج.

أخذ غابرييل يقرأ لوحات الطريق.

- «إلى اليمين، سنلتحق بشارع أتلانتيك».

نفّذت ما طُلِب منها فوجدا نفسيهما في طريق ذي أربعة ممرات: الطريق الذي يعبُر نيويورك من الشرق إلى الغرب، انطلاقاً من ضواحي شارع كينيدي حتى ضفة «إيست ريفر». تعرَّفت أليس إلى الطريق في الحال. من هنا كانت تمر سيارة التاكسي متوجهة إلى المطار.

- «نحن قريبون من جسر مانهاتن، أليس كذلك؟».

- «إنه خلفنا».

عادت من حيث أتت. وسرعان ما شاهدت الطريق السريع المؤدي إلى مانهاتن. كانت ركائز القنطرة الحديدية الرمادية تلوح من بعيد.

- «إنهم خلفنا!».

عادت سيارة الشرطة إلى مطاردتهما.

لا وقت الآن لتغيير الاتجاه.

لم يعد أمامهما إلا حلان: الذهاب نحو لونغ آيلند أو العودة إلى مانهاتن. توجها صوب المخرج أ 29 ليلتحقا بالجسر. سبعة ممرات، أربع سكك حديد للمترو، ممر خاص للدراجات: جسر مانهاتن غُول حقيقي يبتلع المسافرين والسيارات في بروكلين ليتقيأها على ضفة «إيست ريفر».

ضاقت الطريق فجأة. قبل الولوج إلى مدخل الجسر كان من الضروري المضي في معبر إسمنتي طويل التعرجات.

المكان مليء بالسيارات التي فرضت عليها أن تمضي بمحاذاتها، جنباً إلى جنب. عندما علقت أليس وسط الزحام ضغطت البوق المُنبه كما يفعل كل أصحاب السيارات الأخرى. كانت سيارة الشرطة على بعد مئة متر خلفهما. رغم منبه الشرطة فإن ضيق الطريق لم يسمح للسيارات الأخرى بالانحراف قليلاً كي تفسح لها الطريق. ولم يكن حظ الهاربين أحسن من حظ الشرطة.

- «انتهى الأمر»، قال غابرييل.

- «لا، في إمكاننا أن نعبُر الجسر».

- «فكري قليلاً، لديهم الآن معلومات حولنا وحول السيارة،

وحتى إن نجحنا في العبُور فإن سيارة شرطة أخرى ستعترض طريقنا عند مغادرة الجسر!».

- «اخفض صوتك قليلاً، أوكيه؟ أأذكرك أنك أنت السبب في وصولهم إلينا؟ ألم أطلب منك التخلص من ذلك الهاتف الملعون!».

- «أوكيه، لقد أخطأت»، قال مستسلماً.

أغلقت عينيها ثوانٍ قليلة. لم تكن تعتقد أن الشرطة قد توصلت إلى التعرف إلى هويتها، وحتى إن كان الأمر كذلك فهو قليل الأهمية. في المقابل، غابرييل على صواب: السيارة هي المشكلة.

- «إنك على صواب».

حين لاحظت أن حركة السير قد تيسرت قليلاً أمامهما، تخلصت من حزام السلامة وفتحت باب السيارة.

- «قُد السيارة»، أمرت غابرييل.

- «ماذا، ولكن. . . ماذا تقصدين بكوني على صواب؟».

- «سيارتنا ليست سرية بما فيه الكفاية. سأحاول القيام بأمر معيّن».

بذل مجهوداً كي ينتقل خلف المقوَد. كانت السيارة التي أمامه مباشرة لا تزال تسير ببطء. أخذ ينظر إلى أليس حتى لا يفقد أثرها. لم تتوقف طاقات هذه الفتاة عن مفاجأته. خاف فجأة لما شاهدها تخرج مسدسها من جيب سترتها. كانت تقف بجانب سيارة هوندا أكورد عتيقة.

سيارة لن تثير الانتباه، قال وقد أدرك فجأة ما أقدمت عليه.

وجهّت فوهة مسدسها نحو الزجاج. غادرت السائقة سيارتها دون تردد. وهربت بعد أن قفزت من على الحاجز ونزلت المنحدر المعشوشب على امتداد عشرين متراً.

لم يتمالك غابرييل من الصّفير إعجاباً. نظر إلى الخلف. سيارة الشرطة بعيدة ويستحيل أن يكونوا قد رأوا شيئاً.

غادر الميني بدوره والتحق بأليس داخل الهوندا في الوقت الذي استأنفت السيارات سيرها.

*

أبدى لها عن إعجابه، ثم تظاهر بالتشكي ليخفف من حدّة الموقف:

- «كنت قد بدأت أحب السيارة الميني الإنكليزية! إنها أجمل من هذه الخرابة».

كانت قسمات أليس قد صارت أكثر قسوة بفعل الضغط.

- «عِوض أن تلعب دور المهرج، القِ نظرة على ما في صندوق السيارة أمامك».

نفّذ الأمر فعثر على الشيء الذي كان في حاجة إليه منذ استيقاظه: علبة سجائر وولاعة.

- «شكراً للإله!»، قال وهو يشعل سيجارة.

سحب منها نفسين وأعطاها لأليس. سحبت من السيجارة هي الأخرى دون أن تترك المقوَد. صعد مذاق السيجارة الفظّ إلى دماغها. يجب أن تأكل شيئاً أو سيغمى عليها.

فتحت النافذة لتتنفس شيئاً من الهواء النقي. على يمينها كانت تلمع أضواء ناطحات سحاب ميدتاون. بينما ذكّرتها أعمدة عمارات لُوور إيست سايد بتلك الديكورات على أغلفة القصص البوليسية القديمة التي كان زوجها بول يقرؤها بشراهة.

بول...

أبعدت ذكرياتها ونظرت إلى ساعتها. لقد مضى الآن أكثر من

نصف ساعة على استيقاظهما اللاواعي في ذلك البارك. منذ تلك اللحظة لم يعرف البحث أي تقدم يُذكر، بل أن الأمور تعقدت ليبقى اللغز قائماً ولتضاف إلى الأسئلة القديمة أسئلة أخرى جديدة، وليصبح الوضع أكثر تعقيداً وغموضاً، وأكثر خطورة.

كان من الضروري أن ينتقل بحثهما إلى السرعة القصوى. وقد كان غابرييل على صواب فيما يخص هذه النقطة: ليس في إمكانهما القيام بأي شيء من دون مال.

- «ناولني عنوان ذلك المُقرِض مقابل رهن»، طلبت منه أليس حين وصلت السيارة إلى مانهاتن.

6

تشاينا تاون

الشيخوخة لا تَعني أي شيء آخر سوى
أنك لم تعد تخاف من ماضيك.

ستيفان زويغ

تجاوزت السيارة شارع بووري وانعطفت صوب مُت ستريت. عثرت أليس على مكان قرب معشبة صينية. لم يكن مكاناً واسعاً، لكنها، رغم ذلك، نجحت في أن تركن السيارة بين شاحنة وسيارة لبيع الأكلات السريعة.

- «إذا لم تخني ذاكرتي فالمُقرِض قريب من هذا المكان قليلاً، أسفل الزُقاق». وضَّح غابرييل وهو يغلق باب السيارة.

تبعته أليس بعد أن أغلقت السيارة.

مضيا في زُقاق الحي الرئيس دون أن يضيعا وقتاً. مُت ستريت زُقاق ضيق مليء بالحركة؛ إنه عبارة عن بنايات داكنة، ذات سلالم حديدية، تمتد على طول الزُقاق من الشمال إلى الجنوب.

على الرصيف صف من المتاجر المختلفة ذات واجهات مزيَّنة برسومات عديدة: محلات للوشم، محلات للعلاج بواسطة الوخز بالإبر، محلات مجوهرات، محلات لماركات مزورة، دكاكين

تعْرض سلاحف مفرَّغة من الأحشاء يتدلى فوقها جيش من المعلَّق.

سرعان ما وصلا أمام واجهة رمادية فوقها لوحة إشهارية مشعة على هيئة تنين، مكتوب عليها: متجر باون بيع - شراء - رهن.

دفع غابرييل باب محل المُقرِض مقابل رهن. تبعته أليس في ممر مظلم كئيب يفضي إلى قاعة كبيرة من دون نوافذ، سيئة الإضاءة، تفوح منها رائحة عرق زنخة.

على الرفوف الحديدية تراكمت العشرات من السلع المختلفة: تلفزيونات مسطحة الشاشات، مانيكانات في أياديها حقائب، آلات موسيقية، حيوانات محنطة، لوحات تجريدية.

- «ساعتك»، طالبها غابرييل ماداً يده.

ترددت أليس. عندما مات زوجها كانت قد تخلصت، بتسرع من دون شك، من حاجياته - الملابس، الكتب، الأثاث - التي تذكّرها بالرجل الذي أحبته كثيراً. لم يتبقَ لها منه الآن إلا ساعته: وهي ساعة باتيك فيليب من ذهب كان بول قد ورثها عن جده.

بمرور الأيام تحولت الساعة إلى نوع من الطلسم، رابطاً معنوياً يصلها بذاكرة بول. كانت أليس تقوم بالاهتمام بها وصَونها كل يوم، مكررة نفس حركات زوجها التي كان يقوم بها كل صباح: ربط حزامها الجلدي حول معصمه، صَونها، تلميع الإطار. صارت هذه الآلة تريحها، وتمنحها شعوراً - زائفاً من دون شك، لكن مطمئِناً رغم ذلك - بأن بول ما زال معها، في مكان ما.

- «من فضلك»، ألحّ غابرييل.

تقدما صوب كونتوار محمي بحاجز من زجاج مصفّح، خلفه شاب آسيوي ذو مظهر مخنث وأنيق: حلاقة شعر منمقة، جينز

لصيق، نظارات، سترة لصيقة مفتوحة على قميص رسمت عليه شخصيات من كيث هارينغ.

- «هل في إمكاني أن أساعدكما؟»، سألهما الشاب الصيني وهو يمسد خصلة شعر خلف أذنه.

كان مظهره المستعد للخدمة متعارضاً مع الجو العام الوسخ الذي ينبعث من المكان. نزعت أليس ساعتها بأسف ووضعتها فوق الكونتوار.

- «كم؟».

أمسك المُقرِض الساعة وأخذ يتفحصها من كل الجوانب.

- «هل لديكما وثيقة تشهد على أصالة هذه السلعة؟ شهادة أصلية، مثلاً؟».

- «ليست معي الآن»، غمغمت أليس وهي تطلق عليه رصاص نظرتها.

جرَّب المُقرِض الساعة بأن أخذ يحرك عقاربها في كلا الاتجاهين.

- «إنها هشة جداً»، قالت محذرة.

- «إنني أصحح التاريخ والساعة»، برر الشاب ما كان يقوم به دون أن يرفع رأسه.

- «إنها لا تحتاج إلى تصحيح! طيب، يكفي هذا الآن! هل ستأخذها أم لا؟».

- «أمنحكما 500 دولار مقابلها»، اقترح الآسيوي.

- «هل أنت مريض!»، انفجرت أليس في وجهه وهي تستعيد الساعة من بين يديه. «إنها ساعة نادرة! ثمنها أغلى مئة مرة مما اقترحت».

كانت تستعد لمغادرة المتجر لكن غابرييل أمسك بذراعها.

- «اهدئي!»، أمرها بعد أن أبعدها عن الآسيوي قليلاً. «إنك لست في صدد بيع ساعة زوجك، فهمت أم لا؟ ستقومين برهنها فقط. وسنعود لاسترجاعها عندما ننتهي من حلّ مشكلتنا».

حركت رأسها رافضة.

- «مستحيل، سنجد وسيلة أخرى».

- «ليس هناك أية وسيلة أخرى وأنت تعرفين ذلك!»، قال بحدّة رافعاً صوته. «اسمعي، الوقت يمضي، ويجب أن نأكل شيئاً لنستعيد بعضاً من قوّتنا، ولا يمكننا أن نفعل شيئاً من ذلك من دون نقود. انتظري في الخارج واتركيني أتفاوض مع هذا الشخص».

أعطته ساعتها بمرارة وغادرت المتجر.

ما أن خرجت حتى خنقتها رائحة التوابل، والسمك المشوي والفطر المبخرة التي لم تنتبه إليها قبل قليل. تسببت لها تلك الروائح في رغبة مفاجئة في القيء. ألمَّ بها مغص فانطوت على نفسها، ثم انحنت إلى الأمام وأخذت تتقيأ خيوطاً صفراء من معدتها الفارغة. أحسَّت بدوار خفيف فانتصبت متكئة على الحائط.

غابرييل على صواب. لا بدّ من تناول وجبة.

فركت عينيها فاكتشفت أن دموعاً تجري على خديها. أحست أنها تتهاوى. هذا الحي يخنقها، وجسمها يهدد بأن يخونها. إنها تؤدّي الآن ثمن المجهود الذي بذلته قبل قليل. عضلاتها ومعصمها المجروح تؤلمها. شعرت بأنها وحيدة يهاجمها الأسى والضياع.

استيقظت ذكرياتها. أعاد مشهد بيع الساعة إلى ذاكرتها فصلاً مؤلماً من فصول حياتها. عادت إلى التفكير في بول. في لقائهما

الأول. في الانبهار الذي أحست به حينها. في تلك القوة الذي يختزنها الحب: قوة تستطيع أن تقهر كل المخاوف.

طفت الذكريات إلى السطح، وجرت في عقلها جريان نبع متدفق.

إنها ذكريات الأيام الجميلة التي لن تعود أبداً.

أتذكّر...
قبل ثلاث سنوات

باريس
نوفمبر 2010

مطر غزير، مدرار.

- «انعطف إلى اليمين يا سيمور، ها هو ذا المكان: شارع القديس توما الإكويني».

تجد حركة مسّاحة الزجاج الدائبة صعوبة في التغلب على غزارة المطر الذي يهطل على باريس، إذ على الرغم من حركتها التي لا تتوقف، فإن ستاراً سميكاً سرعان ما كان يعود إلى الانتشار فوق زجاج السيارة الأمامي.

غادرت سيارتنا العتيقة شارع سان جرمان لتسير في الطريق الضيق المؤدّي إلى الكنيسة.

السماء سوداء. منذ مساء الأمس والعاصفة تغرقُ كل شيء. بدا المشهد أمامنا وكأنه ينهار. اختفت واجهة الكنيسة خلف السُحب، وضاعت معالمها وسط الضباب الكثيف. وحدها تماثيل الملائكة المحجوبة بأركان الكنيسة ما زالت تظهر تحت الطوفان.

طاف سيمور بالمكان قبل أن يركن السيارة في مكان مخصص لسيارات الشحن أمام عيادة طبيب النساء.

- «هل ستتأخرين كثيراً؟».

- «ليس أكثر من عشرين دقيقة»، وعدته. «لقد أكدت لي الطبيبة الموعد بواسطة إيميل. أخبرتها إني مستعجلة».

انشغل بالرسائل التي وصلته على هاتفه.

- «اسمعي، هناك محل لبيع المأكولات غير بعيد، سأشتري سندويشاً وأنتظرك، وسأتصل بالقسم لأتعرف إلى النتائج التي حصل عليها سافنيون وكروشيه من التحقيق الذي أجرياه».

- «أوكيه، أرسل رسالة SMS إذا كان هناك جديد، وشكراً على مرافقتك لي»، قلت وأنا أغلق الباب.

استقبلني المطر الغزير بعنف. رفعت سترتي فوق رأسي كي أحتمي من المطر وجريت صوب العيادة التي لم تكن تفصلها عن السيارة إلا عشرة أمتار. لم تفتح لي السكرتيرة إلا بعد دقيقة تقريباً. عندما دخلت إلى البهو، لاحظت أنها كانت تجري مكالمة. أشارت إلي برأسها معتذرة ووجهتني نحو قاعة الإنتظار. دفعت باب الغرفة وتهالكتُ على إحدى الكنبات الجلدية.

منذ الصباح وأنا أتألم بسبب تعفن خبيث في جهازي البولي. إنه عذاب حقيقي: ألمٌ في أسفل البطن، ورغبة في التبول كل خمس دقائق، ألمٌ لا يطاق عند كل تبول، بل شيء من الدم في البول أيضاً.

ولسوء الحظ، إن ما وقع حدث في اليوم الذي لم يكن ينبغي أن يحدث فيه. خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة اشتغل فريق عملنا في كل الواجهات. كنا نبذل كل جهدنا كي نحصل على

اعترافات قاتل ليس لدينا أية دلائل ضده، وكلفنا بالموازاة مع ذلك بقضية جديدة: جريمة قتل امرأة في شقتها البورجوازية بشارع لافزندريه، في المقاطعة 16. إنها مُدرِّسة تم خنقها بجوارب نسائية نايلونية بشكل وحشي. عندما أشارت الساعة إلى الثالثة بعد الزوال، كنا، سيمور وأنا، ما زلنا نحقق مع جيران القتيلة، ذلك التحقيق الذي بدأناه منذ السابعة صباحاً. لم آكل شيئاً، وكانت لدي رغبة في القيء، وأحس أني أبول شفرات حادة.

أخرجت علبة البودرة من حقيبتي اليدوية، وأمام المرآة حاولت أن أصفف شعري قليلاً. وجهي مرعب، وملابسي مبللة، وأحس أن رائحة جسدي تشبه رائحة كلب مبلل.

تنفست عميقاً كي أطمئن. إنها ليست المرة الأولى التي أعاني فيها من هذا المرض. وأعرف أنه يعالج على الرغم من الآلام الحادة: جرعة مضاد حيوي واحدة تكفي لأن تزول كل أعراض المرض خلال يوم واحد. كنت قد توجهت إلى الصيدلية التي أمام مقر سكني، إلا أن المُحضر رفض أن يعطيني دواء دون وصفة طبية.

- «الآنسة شافر؟».

دفعني صوت رجل إلى أن أرفع رأسي نحو وزرة بيضاء. بدل طبيبة النساء كان يقف أمامي رجل وسيم مربع الوجه، ذو شعر أشقر وعينين ضاحكتين.

- «الدكتور بول مالوري»، قدَّم نفسه وهو يعدِّل من وضع نظارته.

- «لدي موعد مع الدكتورة بونسولي...».

- «زميلتي في عطلة، لا شكّ أنها أخبرتك إني سأعوض عنها».

ثارت أعصابي.

- «إطلاقاً، بالعكس: لقد أكدت لي الموعد معها بواسطة إيميل».

أخذت أبحث عن الإيميل في هاتفي كدليل. حين أعدت قراءته تبيَّن لي أن الرجل محق في ما قاله: كنت قد اكتفيت بقراءة الإيميل بسرعة، متوقفة عند تأكيد الموعد، ولم أنتبه إلى إشارتها إلى عطلتها.

اللعنة.

- «ادخلي، من فضلك»، اقترح الدكتور بصوت وديع.

ترددت مضطربة. إنني أعرف الرجال جيداً لذلك رفضتُ دائماً أن أُعالج على يد الأطباء الذكور. لقد كانت لدي قناعة بأن المرأة تفهم المرأة مثلها بشكل أفضل. إنها مسألة نفسية، متعلقة بحساسيتي، وبحياتي الخاصة. تبعته يقظة متحسبة، مقررة أن لا يطول الحديث بيننا.

- «حسناً»، قلت، «سأتحدث بشكل مباشر دون تهرب يا دكتور: لست في حاجة إلا إلى مضاد حيوي لمعالجة إلتهاب في مثانتي، وقد تعودت الدكتورة بونسولي أن تصف لي مضاداً للجراثيم، و...»

نظر إلي مقطِّباً جبينه وأوقف اندفاعي.

- «عفواً، لا أعتقد أنك ترغبين في وصف الدواء المناسب بالنيابة عني، أليس كذلك؟ إنك تعرفين أني لا يمكن أن أصف لك مضاداً حيوياً دون أن أفحصك».

حاولت التحكم في أعصابي، لكني أدركت أن الأمور ستكون أكثر تعقيداً مما توقعت.

- «أخبرتك إني أعاني من التهاب مزمن في المثانة، وليس هناك أي تشخيص آخر ممكن».

- «من دون شك يا آنسة، لكني أنا الطبيب هنا».

- «فعلاً، لست طبيبة، إلا أني شرطية وينتظرني عمل كثير! لا تضيع وقتي إذن بإجراء فحص مقرف سيكلفني انتظاراً طويلاً جداً».

- «هذا ما سيحدث، رغم ذلك»، قال وهو يمد لي بمبولة، «وسأطلب منك إجراء تحاليل إضافية في مركز للتحليلات الطبية».

- «هل تصر على معاندتي؟ صف لي المضادات الحيوية، ولننته من كل هذا الأمر».

- «اسمعي، تعقلي وتوقفي عن التصرف كمدمنة! ليست المضادات الحيوية الشيء الوحيد الموجود في هذه الحياة».

شعرت فجأة بأني متعبة وغبية. أحسست بالألم أسفل بطني مرة أخرى، وبالتعب الذي راكمته منذ التحقت بقسم محاربة الجريمة يتصاعد في داخلي كحُمم بركان. لقد قضيت ليالٍ طويلة مُسهدة، مشحونة بالعنف والرعب، والأشباح التي يستحيل محاربتها.

أحسست أني غير قادرة على الاستمرار على هذه الحال من الفزع. إني في حاجة إلى الشمس، إلى حمام ساخن، إلى تسريحة شعر جديدة، إلى ملابس أكثر أنوثة، وإلى عطلة أسبوعين بعيداً عن باريس. بعيداً عن نفسي.

أنظر إلى هذا الشخص الأنيق، المتصنع، الهادئ. إلى وجهه المطمئنّ، وابتسامته العذبة، إلى شعره الأشقر الذي قد لا يكون أشقر فعلاً، فأحس بالحنق. حتى تلك التجاعيد حول عينيه كانت جذابة. أما أنا فأحسني ذميمة وغبية تحدّثه عن مشاكلها مع مثانتها.

- «هل تشربين ما يكفي من الماء؟»، واصل يحدّثني، «هل

تعلمين أن نصف أمراض التهاب المثانة يمكن معالجته بشرب لترين من الماء كل يوم؟».

لم أعد أستمع إليه. فقداني للشجاعة لا يستمر طويلاً، تلك نقطة قوتي. عادت إلى ذاكرتي صور هذا الصباح: جثة تلك المرأة في مكان الجريمة: كلارا ماتوران التي خُنِقت بجوارب نايلونية بكل وحشية. تذكرت عينيها الجاحظتين ووجهها المُرتعِب. لا يحق لي أن أضيع مزيداً من الوقت، لا يحق لي أن أبتعد عن التركيز. يجب أن أتوصل إلى القاتل قبل أن يرتكب جريمة أخرى.

- «ما رأيك في العلاج بالأعشاب؟»، سألني الأشقر الوسيم، «هل تعلمين أن الأعشاب يمكن أن تنفعك كثيراً، بخاصة عصير نبات التوت البري».

ذهبت خلف مكتبه بسرعة مفاجئة، وانتزعت من دفتر الوصفات ورقة.

- «إنك على صواب، سأسجل الوصفة بنفسي».

اندهش إلى درجة أنه لم يقم بأية حركة تمنعني من ذلك.

أدرت له ظهري وانصرفت مغلقة الباب خلفي.

*

باريس، المقاطعة 10
بعد شهر
ديسمبر 2010

السابعة صباحاً.

تسير السيارة الأودي وسط ظلام الليل نحو شارع الكولونيل فابيان. أضواء المدينة تنعكس على واجهة مقر الحزب الشيوعي

الزجاجية. البرد قارس. شغّلت مدفأة السيارة ومضيت صوب المدار لأصل إلى شارع لويس-بلون. شغّلت الراديو وأنا أعبر قناة القديس مارتان.

- فرانس إنفو، السابعة صباحاً، إليكم الأخبار يقدِّمها لكم برنار تومسون.
- صباح الخير فلورنس، صباح الخير جميعاً، من المُحتمل أن تستأثر التقلبات الجوية في ليلة عيد الميلاد بأخبار اليوم، فقد حذَّر مكتب الأرصاد الجوية الفرنسي من تساقطات ثلجية مهمة ستشهدها باريس عند نهاية صباح اليوم. وستؤدّي هذه التساقطات إلى عرقلة حركة السير بشكل كبير في ضواحي فرنسا...

يا له من رأس سنة مقرف، ويا لتلك الالتزامات العائلية المقرفة!

لحسن الحظ أن أعياد رأس السنة لا تحصل إلا مرة واحدة كل سنة.

في هذا الوقت المبكر من الصباح، ما زالت باريس في مَنأى عن العاصفة المرتقبة. لكن الهدوء لن يطول. استغلّيت سهولة حركة السير لأمرّ من أمام محطة القطار وأمضي في شارع ماجنتا، عابرة بسرعة المقاطعة 10 من الشمال إلى الجنوب.

أكره أمي. أكره أختي. أكره أخي. وأمقت تلك اللقاءات السنوية التي تتحول في كل مرة إلى أحلام مزعجة. أختي الصغرى برنيس تسكن في لندن وتملك رواقاً بشارع نيوبوند. أخي الأكبر

فابريس يعمل في مجال الاقتصاد والمالية في سنغافورة. ويقيم يومين كل سنة بفيلا أمي، ببوردو، مع زوجته وأطفاله، ليحيوا أعياد رأس السنة قبل أن يسافروا إلى أماكن طبيعية مشمسة: جزر المالديف، جزيرة موريس، جزر الكاريبي.

(...) توقعات السير «بيزون فوتيه» تنصحكم إذن بعدم استعمال السيارة في ضواحي باريس كما في المقاطعات الغربية المجاورة لها. احتياط من الصعب الالتزام به في مثل هذه الليلة، ليلة أعياد رأس السنة. الولاية تدق هي الأخرى ناقوس الخطر، لأنها تخشى أن يحل الجليد محل الثلج عند بداية المساء، حين ستنزل درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر.

شارع ريومور، ثم شارع بوبور: أعبر الماريه من جهة الغرب لأصل إلى ساحة أوتيل دوفيل المشعّة بالأضواء البراقة. يظهر عن بعد شبح البرجين الثقيلين وقوس كنيسة نوتردام متقاطعين وسط الظلام.

خلال هذين اليومين من كل سنة تقام المسرحية نفسها، مع اختلافات طفيفة: ستثني أمي على برنيس وفابريس، على اختيارهما ونجاحهما المهني. ستقف أمام أطفالهما لتمدح طريقة تربيتهما وتهنئهما على نجاحهما الدراسي. وسيدور الحديث حول المواضيع نفسها كما جرت العادة: حول الهجرة، حول الضرائب التي لم تعد تطاق، حول الأسس الفرنسية.

أما أنا فلا مكان لي بينهم. لست منهم. ما أنا إلا فتاة كالذكور، من دون أناقة، من دون تميُّز. مجرد موظفة فاشلة. ابنة أبيها.

صعوبة حركة السير قد تمتد إلى بعض خطوط المترو والقطار الفائق السرعة. الشيء نفسه فيما يتعلق بالرحلات الجوية. مطارات باريس مقبلة على يوم صعب سيجد فيه الملايين من المسافرين أنفسهم محاصرين في قاعات الانتظار.

هذه التساقطات الثلجية القوية لن تشمل، مع ذلك، منطقة الرون والجهات القريبة من المحيط. درجات الحرارة في بوردو، تولوز، ومارساي ستتراوح بين 15 و18 درجة. بينما في إمكانكم في نيس والأنتيب أن تتناولوا وجبات الغداء على أرصفة المقاهي، فالحرارة هناك ستصل إلى 20 درجة.

مللت من أن يحاسبني هؤلاء الأوغاد. مللت ملاحظاتهم المتوقعة المتكررة: «لم تنجحي إلى الآن في أن تعيشي مع أي شاب». «متى ستحبلين؟». «لماذا لا تحسنين اختيار ملابسك؟». «لماذا أنت مصرّة على التشبث بحياتك هذه التي تشبه حياة المراهقين؟». مللت أكلاتهم النباتية التي تحافظ على رشاقة الجسم، من الحبوب التي يقدّمونها للعصافير، من طعامهم العفن، من شربتهم المنفرة.

مضيت في شارع الكوتلري كي أعبر أرصفة قنطرة نوتردام. المكان ساحر: على اليسار البنايات التاريخية لأوتيل-ديُه، وعلى اليمين واجهة الكونسيرجريه وسقف برج لورلوج.

كل عودة إلى منزل العائلة تشعرني أني أعود ثلاثين سنة إلى الوراء.

تحيي جراح الطفولة وانكسارات المراهقة، وتعيد إلى السطح الصراعات الأخوية، وتجدد شعوري بالوحدة.

كل سنة، أقول لنفسي إنها المرة الأخيرة ولن أعود بعدها أبداً، وكل سنة أعود، دون أن أعرف، في الحقيقة، لماذا أعود. جزء مني يدعوني أن أقطع كل علاقة معهم بصفة نهائية، بينما الجزء الآخر مستعد أن يدفع ثمناً باهظاً مقابل أن يرى عبارات الدهشة على وجوههم يوم سأعود في لباس أميرة صحبة شاب جذاب.

الضفة اليسرى. مضيت بمحاذاة الأرصفة، ثم انعطفت يساراً إلى شارع الآباء المقدسين. خففت السير، وركنت السيارة في ركن من شارع لِيلْ. أغلقت بابها، لبست شارة التدخل البرتقالية، وضغطت زر جرس أنترفون إحدى العمارات الجميلة.

استمريت في الضغط ثلاثين ثانية. كانت الفكرة قد انبثقت في داخلي في بداية الأسبوع، وتطلبت مني إجراء بعض التحريات. كنت أعرف أني مقبلة على ارتكاب حماقة، لكن إدراكي ذلك لم يكفِ كي يثنيني عما اعتزمته.

- «نعم، من؟»، تساءل صوت ما زال مثقلاً بالنوم.
- «بول مالوري؟ الشرطة القضائية، افتح الباب، من فضلك».
- «هه، لكن...».
- «الشرطة يا سيدي، افتح الباب».

فُتِح الباب. تركت المصعد وصعدت الأدراج مسرعة نحو الطابق الثالث.

- «طيب، طيب!».

فتح طبيبي الوسيم الباب، لكنه هذا الصباح ليس ذلك الطبيب الوسيم: إنه يرتدي كالسون وقميصاً بالياً، شعره الأشقر غير ممشوط، وعلى وجهه علامة الدهشة والتعب والقلق.

- «هيه، أعتقد أني أعرفك، أنت...».

- «الكابتن شافر، قسم محاربة الجرائم. سيد مولوري أخبرك إنك تحت الحراسة النظرية انطلاقاً من اليوم الخميس 14 ديسمبر، الساعة السابعة وست عشرة دقيقة. ويحق لك أن...».

- «عفواً، إنك على خطأ من دون شك! ما هو الدافع من فضلك؟».

- «التزوير واستعمال التزوير، اتبعني من فضلك».

- «هل تمزحين؟».

- «لا تجبرني على الاستعانة بزملائي يا سيد مولوري».

- «هل في إمكاني أن أرتدي سروالاً وقميصاً على الأقل؟».

- «بسرعة. واحمل معك سترة مدفِئة، فالمدافئ في مقراتنا عاطلة».

ألقيت نظرة على المنزل في الوقت الذي كان يرتدي ملابسه.

وقع نظري على امرأة شابة شقراء، في العشرينيات، تنظر إليَّ بعينين مندهشتين وقد تلحّفت بغطاء سرير. طال الانتظار.

- «اسرع يا مالوري!»، صرخت وأنا أطرق الباب. «ارتداء الملابس لا يتطلب عشر دقائق!».

غادر الطبيب الحمام في كامل أناقته. كان لباسه الأنيق قد أعاد إليه كل وسامته. تحدّث مع المرأة قليلاً ثم تبعني.

- «أين زملاؤك؟ سألني حين خرجنا إلى الشارع».

- «جئت لوحدي. هل كنت تنتظر ان أحضر كل قوات التدخل السريع كي أسحبك من سريرك...».

- «وهذه السيارة، هل هي سيارة شرطة؟».

- «لا. اصعد بلا مشاكل».

تردد، لكنه انتهى بأن صعد إلى جانبي.

قدت السيارة ومضينا صامتين وقد طلع النهار. عبرنا الشارع 6، ثم مونبارناس، قبل أن يقرر بول طرح سؤاله:

- «حسناً، اخبريني الآن، ما هذا السيرك؟ تعرفين أنه كان في إمكاني أن أتقدم بشكاية ضدك الشهر الماضي بتهمة سرقة ورقة لوصف الأدوية! يجب أن تشكري زميلتي التي رفضت أن أفعل ذلك بعد أن بحثَت لك عن عدة ظروف مخففة. باختصار، لقد وصلت إلى حدّ وصفك بـ«الحمقاء»».

- «أنا أيضاً قمت بتحرياتي حولك يا مالوري». قلت وأنا أخرج من جيبي نُسخاً من وثائق مصورة.

أخذ يقرأ الأوراق مقطّب الجبين.

- «ما هذا؟».

- «دلائل على أنك أدليت بشهادتَي إقامة لفائدة فتاتين من دولة مالي لا تحوزان أوراق هوية، كي تتمكنا من التقدّم بطلب الحصول على الحقّ في الإقامة».

لم ينكر.

- «وماذا في ذلك؟ هل التضامن والإنسانية من الجرائم؟».

- «القانون يُسمي ذلك «التزوير، واستعمال التزوير»، وهي جريمة يعاقب عليها بثلاث سنوات سجناً وغرامة قدرها 45000 يورو».

- «كنت أعتقد أن الدولة تعاني من اكتظاظ السجون وعدم قدرتها على استيعاب كل السجناء. منذ متى أصبح قسم محاربة الجرائم مكلّفاً بمثل هذه القضايا؟».

لم نكن بعيدين عن مونروج. مررت بعدة طرق صغيرة. ثم التحقت بالطريق السريع الذي يربط باريس ببوردو.

بدأ بول يقلق فعلاً.

- «إلى أين أنت ذاهبة بي؟».

- «إلى بوردو. أنا متأكدة من أنك تحب النبيذ...».

- «لا، لا تقولي إنك جادة فيما تفعلين!».

- «سنقضي ليلة رأس السنة مع أمي، سترى كيف أنها ستستقبلك بحفاوة».

تطلع إلى الوزاء ليتأكد إن كان هناك من يتبعنا، ثم حاول أن يمزح ليطمئن نفسه:

- «فهمت كل شيء الآن: في السيارة كاميرا خفية، أليس كذلك؟».

شرحت له المقايضة التي فكرت فيها، وأنا مستمرة في قيادة السيارة: أتجاهل الشهادتين المزورتين مقابل أن يلعب دور الخطيب طوال ليلة رأس السنة.

التزم الصمت ثوانٍ كثيرة، دون أن يتوقف عن النظر إليَّ. بدا أول الأمر كأنه غير مصدّق ما سمعه، إلا أنه انتهى بأن انتبه إلى حقيقة الأمر:

- «آه يا إلهي، أسوأ ما في الأمر أنك لست تمزحين، أليس كذلك؟ نصبتِ لي هذا الفخ لأنه ليس لديك الشجاعة على أن تتحملي نتائج اختيارك لنوعية الحياة التي تعيشينها أمام العائلة. اللعنة، إنك لست في حاجة إلى طبيب للنساء وإنما إلى طبيب نفساني».

تحملت الهجوم، وبعد دقائق قليلة عدت إلى وعيي. إنه على صواب طبعاً. ما أنا إلا جبانة. وماذا كنت أتوقع؟ أن يفرح بما

اقترحت عليه؟ شعرت فجأة أني ملكة المغفّلات. الانقياد إلى غريزتي أكثر من انقيادي إلى عقلي هو نقطة قوتي وضعفي في الوقت نفسه. ويرجع الفضل إلى ذلك في توصلي إلى حلّ ألغاز بعض القضايا الصعبة التي مكنتني من الالتحاق بقسم محاربة الجرائم في سن الرابعة والثلاثين. إلا أن حدسي يخونني أحياناً فأرتكب بعض الحماقات. صارت فكرة زيارة العائلة صحبة هذا الشخص فكرة سخيفة بقدر ما هي غير مناسبة.

استسلمت وقد احمر وجهي من الخجل.

- «آسفة. إنك على صواب، سأعود من حيث أتيت وأعيدك إلى منزلك».

- «توقفي أولاً عند أول محطة للوقود، فالبنزين يوشك على أن ينفذ».

*

ملأت الحاوية بالبنزين عن آخرها. يداي تتعرقان ورائحة البنزين تشعرني بدوار. في الوقت الذي كنت أعود إلى السيارة لاحظت أن بول مالوري غادرها. رفعت رأسي فرأيته في مطعم المحطة يشير إليَّ بيده كي ألتحق به.

- «طلبت لك شاياً»، قال وهو يقترح عليَّ أن أجلس.

- «اختيار سيئ، فأنا لا أشرب إلا القهوة».

- «ذلك أسهل»، قال وهو يقوم ويتوجه نحو الموزع الآلي كي يجلب لي قهوة.

شيء ما في هذا الشخص يحيرني: نوع من برودة الدم كتلك التي نجدها لدى الجنتلمانات الإنكليز، وطريقة معيَّنة في الحفاظ على نوع من الرقي في كل الظروف.

عادَ بعد دقيقتين فوضع أمامي قهوة سوداء في كأس من البلاستِك وكرواسون ملفوفة في ورق.

- «إنها ليست بجودة كرواسون بيير هرمي، ولكنها ليست بذلك السوء الذي يوحي به منظرها»، قال مطمّئناً كي يلطف الأجواء.

ولكي يدعم قوله، عضَّ على الكرواسون متغلباً على رغبته في التثاؤب.

- «لا أصدق انك جعلتِني أغادر السرير في السابعة صباحاً! ضيعت علي فرصة أن أنام إلى وقت متأخر من النهار، هل تعلمين أنها فرصة لا تعوّض!».

- «سبق أن قلت لك إني سأعيدك إلى منزلك، سيكون أمامك حينها الوقت الكافي كي تعود إلى سرير دلسينيتك[1]».

ارتشفَ جرعة شاي وسألني:

- «أعترف أني لا أفهمك جيداً: لماذا تحرصين على أن تحتفلي بالسنة الجديدة بصحبة أشخاص يبدو أنهم يسيئون إليك أكثر مما يحسنون؟».

- «اترك هذا الأمر جانباً يا مالوري، لأنك لست طبيباً نفسانياً كما سبق أن قلت».

- «وما رأي أبيك في كل هذا؟».

تجاهلت السؤال.

- «مات أبي منذ مدة طويلة».

- «توقفي عن الكذب، صرخ وهو يمد لي بالهاتف».

---

(1) دلسينيا دو توبوز هو الاسم الذي اختاره دون كيشوت لحبيبته الوهمية - (المترجم).

نظرت إلى شاشة الهاتف وانا أعلم مسبقاً بما سأشاهده. في الوقت الذي كنت أملأ خزّان السيارة بالوقود كان مالوري يجري أبحاثه عبر الإنترنت. وقد قادته تلك الأبحاث إلى خبر عن خيبات أبي يعود إلى شهور عدة. لم يفاجئني ذلك.

الحكم على الشرطي الشهير سابقاً ألان شافر بالسجن سنتين

كان حدث اعتقاله، قبل ثلاث سنوات، بمثابة زلزال في أوساط شرطة لِيلْ. فقد ألقي القبض على عميد الشرطة الان شافر يوم 2 سبتمبر 2007 في بيته، في الصباح الباكر، من طرف أفراد الشرطة الذين أتوا للتحقيق معه حول بعض ممارساته وعلاقاته.

وبعد بحث دام شهور عدة، توصّلت شرطة مراقبة الشرطة إلى الكشف عن نظام ارتشاء واسع وتحويلات أجراها هذا المسؤول الكبير في صفوف الشرطة القضائية.

اعترف ألان شافر المحترم، بل المعشوق من طرف زملائه، أثناء الحراسة النظرية أنه انزلق إلى «الجانب الآخر من الحاجز، أي الجانب السيئ»، وذلك بربطه علاقات صداقة مع عدد من الأسماء المعروفة في أوساط اللصوصية. وقد قاده انحرافه، بالخصوص، إلى تحويل محجوزات الكوكايين والكانابيس قبل أن يوضعا قيد الحجز، وذلك من أجل منح مبالغ من المال للمخبرين.

أدانت محكمة لِيلْ، أمس، الشرطي ألان شافر بـ«الرشوة غير المباشرة» و«تكوين عصابة من المنحرفين» و«الإتجار بالمخدرات» و«خرق بند سر المهنة»...

غطت عيني غشاوة، فابتعدتُ عن شاشة الهاتف بسرعة. إني على علم تام بدناءة أبي.

- «لستَ إلا فضولياً، في نهاية المطاف!».
- «أنت من تقولين ذلك؟ من منا الفضولي حقاً؟!».
- «حسناً، أبي في السجن، وماذا في ذلك؟».
- «أليس هو من ينبغي أن تذهبي لزيارته في رأس السنة؟».
- «اهتم فيما يعنيك!».

ألحَّ قائلاً:

- «هل في إمكاني أن أسألك عن مكان سجنه؟».
- «ولماذا تريد أن تعرف؟».
- «في لِيلْ؟».
- «لا، في لونس، قرب إكس-أنبرفنس، حيث تعيش زوجته الثالثة».
- «لماذا لا تذهبين إلى زيارته؟».

زفرت ورفعت صوتي قائلة:

- «لأنني قطعت علاقتي معه. كان الشخص الذي حبّب إليَّ هذه المهنة، ومثلي الأعلى، الشخص الوحيد الذي أثق فيه، فخان ثقتي. لقد كذب على الجميع. لن أغفر له أبداً».
- «لم يقتل أبوك أحداً».
- «لن تستطيع أن تفهم».

نهضتُ غاضبة، عازمة على أن أخرج نفسي من هذا الشِراك الذي نصبته لنفسي. أمسك بذراعي.

- «هل تريدين أن أرافقك إلى هناك؟».
- «اسمع يا بول، إنك إنسان لطيف جداً، مؤدب جداً، ومن

أتباع الدلاي لاما من دون شك، إلا أننا لا نعرف بعضنا جيداً. لقد أسأت معاملتك وإني لأعتذر لك عن ذلك. يوم سأحتاج إلى الذهاب لزيارة أبي سأستغني عن مساعدتك، أوكيه؟».

- «كما تريدين، ورغم ذلك فأنا أعتقد أن احتفالات رأس السنة... قد تكون لحظة مناسبة، أليس كذلك؟».

- «إنك تضايقني، إننا لسنا في أحد أفلام والت ديزني الآن؟».

ابتسم قليلاً. قلت له رغماً عن إرادتي:

- «حتى إن أردت، فلن أستطيع، لا يمكن أن نذهب إلى زيارة كهذه بهذه الطريقة المفاجئة. نحتاج إلى إذن، ونحتاج إلى...».

استغل الموقف:

- «إنك شرطية، ألا تستطيعين أن تعالجي هذا الأمر باتصالٍ هاتفي؟».

دخلت في لعبته فقررت أن أختبره.

- «لنكن أكثر جدية، إكس-أنبرفنس على مسافة سبع ساعات إذا استعملنا السيارة، وحتى إذا ما استعملناها فإن الثلج الذي سيتساقط على باريس سيمنعنا من العودة إلى العاصمة».

- «لنجرب، هيا بنا! سأقود السيارة».

فوجئت فترددت لحظة قصيرة. كانت لدي الرغبة في أن أستسلم لهذه الفكرة الحمقاء، لكنني لم أكن متأكدة من حماسي. هل أنا مدفوعة برغبة زيارة أبي فعلاً أم بفرصة قضاء بعض الوقت مع هذا الغريب الذي يبدو أنه لن يحاسبني أبداً، مهما قلت ومهما فعلت؟

نظرت إلى عينيه فأحببت ما شاهدته فيهما.

ألقيت له بمفتاح السيارة، فأمسك به.

*

وصلنا إلى إفري، فأوكسير، فبون، فليون، ففلانس، فافنيون. . .

واصلنا رحلتنا السُريالية عبر الطريق السريع. إنها المرة الأولى التي أستسلم فيها لرجل. لم أتعامل معه بحذر. تركته يتصرف، وانقدت إليه. استمعنا إلى الأغاني التي يذيعها الراديو ونحن نأكل بعض الحلوى. كانت السيارة ملأى بمخلّفات ما كنا نأكله، وبالشمس. وكان المشهد شبيهاً بما يسبق عطلة في الضواحي أو في الأبيض المتوسط. شبيهة بالحرية.

كان ذاك كل ما أحتاج إليه.

*

على الساعة الواحدة والنصف بعد الزوال، أوقف بول السيارة أمام سجن لوينس. طوال الطريق وأنا أبعدُ عن تفكيري فكرة مواجهة أبي. وها أنا ذي واقفة أمام الواجهة العارية المحملة بكاميرات المراقبة، ولا أستطيع أن أتراجع.

خرجت بعد نصف ساعة باكية، لكن هادئة، لأنني رأيت أبي ثانية، وتكلمت معه. لأنني زرعت حبة المصالحة التي لم تعد تبدو لي مستحيلة. كانت تلك الخطوة الأولى من دون شك أهم شيء قمت به منذ أعوام. ويرجع الفضل في ذلك إلى رجل أكاد لا أعرف عنه شيئاً. رجل استطاع أن يرى في داخلي شيئاً آخر غير ذاك الذي أردت أن أظهره.

لا أعرف ما الذي تخفيه في داخلك يا سيد مالوري، لا أعرف إن كنت مجنوناً مثلي أم رجلاً لا يشبه الآخرين، ولكني أقول لك شكراً.

أحسست أني تخلصت من عبء ثقيل، فنمت في السيارة.

*

ابتسم لي بول.

- «هل تعرف أن لجدتي منزلاً على ساحل أمالفي؟ هل سبق لك أن زرت إيطاليا أثناء احتفالات رأس السنة؟».

عندما فتحت عيني كنا قد تجاوزنا الحدود الإيطالية. وصلنا إلى سان ريمو والشمس على وشك الغروب. كنا بعيدين عن باريس، وعن بوردو، وعن الأمطار.

أحسست بعينيه تنظران إلي. شعرت كأني أعرفه منذ الأزل. ولم أفهم كيف أن ارتباطاً وثيقاً حساساً كهذا جمعنا بمثل هذه السرعة.

في الحياة لحظات نادرة ينفتح خلالها باب لتحصلي على لقاء لم تعودي تنتظرينه. لقاء مع الشخص الذي يكمّلك، ويتقبلك كما أنت، في شموليتك، ويحس بتقلباتك ومخاوفك وغيظك وغضبك، وشلال الوحل الكالح الذي يسقط فوق رأسك، ويتقبل كل ذلك. ويهدّئك. ويمد إليكِ بمرآة لا تخشين أن تنظري إلى وجهك فيها.

تكفي لحظة واحدة. نظرة واحدة. لقاء واحد. كي تتغير حياتك. يكفي الشخص المناسب في اللحظة المناسبة. يكفي أن تتواطأ النزوة مع الصدفة.

قضينا ليلة رأس السنة في فندق بروما.

وفي الغد مررنا بمحاذاة شاطئ أمالفي، وعبرنا وادي دراغون، ووصلنا إلى حدائق رافيلو المعلقة.

خمسة أشهر بعد ذلك تزوجنا.

وفي شهر مايو علمت أني حامل.

*

في الحياة لحظات نادرة ينفتح خلالها بابٌ تنزلق فيه حياتك نحو الضياء. لحظات يتفتح خلالها شيء في داخلك، فتشرعين في

التحليق بعيداً عن الجاذبية، وتمضين في طريق سريع خالٍ من كل رادار. تصبح الاختيارات آنذاك واضحة، وتعوض الأجوبة الأسئلة، ويترك الخوف مكانه للحب.

ينبغي أن نكون قد عشنا مثل تلك اللحظات، لنقول إنها لا تدوم إلا قليلاً.

7

الهزيمة

إن لدينا دائماً قدرات أكثر من تلك
التي نعتقد أننا نملكها.

جوزيف كسل

تشاينا تاون
اليوم
العاشرة صباحاً وعشرون دقيقة

غمغمة الحشود. رائحة السمك العَطِنة تبعث على القيء. صوت باب حديدي يُفتح.

خرج غابرييل من عند المُقرِض مقابل رهن ومضى في مُت ستريت.

خرجت أليس لما شاهدته من دوامة ذكرياتها.

- «هل أنت بخير؟»، سألها حين أدرك اضطرابها.

- «نعم أنا بخير»، أكدت أليس. «حسناً، اطلعني على النتيجة».

- «حصلت منه على 1600 دولار»، قال وهو يلوّح بالنقود أمام عينيها. «وأعدك أن نسترجعها قريباً جداً. في انتظار ذلك، أعتقد أننا نستحق وجبة فطور».

وافقته، فأسرعا بمغادرة تشايناتاون صوب بووري. مشيا على الرصيف المشمس متوجهين شمالاً.

في ماضٍ غير بعيد، كان هذا الجزء من مانهاتن حياً للجرائم، يلتقي فيه المتعاطون للمخدرات، والعاهرات، والمتشردون، ولكنه تحوّل اليوم إلى مكان دافئ، راقٍ، وجذاب.

دخلا أول مطعم صادفهما، مطعم «ببرمل». جلسا على مقعدين جلديين متقابلين. كان المكان حميمياً متناقضاً مع الجلبة التي تعم تشاينا تاون. وكانت أشعة الشمس تخترق الواجهة الزجاجية الكبيرة وتغمر المكان بأكمله، منعكسة على آلات تحضير القهوة خلف الكونتوار.

أُدمجت في كل طاولة من طاولات المطعم لوحة رقمية تسمح للزبائن بالاطّلاع على قائمة المأكولات، والولوج إلى الإنترنت، وتصفح مجموعة من الجرائد والمجلات.

أخذت أليس تطّلع على قائمة الطعام والجوع يمزق بطنها إلى درجة أنها كانت تسمع غرغرة بطنها. طلبت قهوة كابتشينو وطبق سمك السلمون، وطلب غابرييل قهوة وسندويتش مونتي-كريستو.

قدَّم لهما الطعام نادل أنيق.

انقضّا على طعامهما وشرابهما، فأتيا على كل شيء دفعة واحدة. عندما انتهت أليس من التهام سمك السلمون مرفقاً بقليل من الخبز والكريمة الطرية أحست أنها استعادت قوتها فأغلقت عينيها وتركت لموسيقى الجاز المنبعثة من مذياع خشبي أن تهدهدها. إنها محاولة لإعادة العقارب إلى الصفر، و«إعادة الخلايا العصبية إلى مدارها الصحيح» كما كانت تقول جدتها.

- «من المؤكد أننا لم نصل إلى أية نتيجة»، قال غابرييل وهو يلتهم آخر بقايا سندويتشه.

أشار إلى النادل أن يحضر له الوجبة نفسها. وقامت أليس بالشيء نفسه.

- «يجب أن نبدأ من الصفر، أن نسجّل الدلائل ونحاول استغلالها: رقم هاتف فندق غرينويتش، الرقم المنحوت على ذراعك...».

توقفت قبل أن تنهي كلامها. كان النادل قد رمق الدم الذي على سترتها. زررتها.

- «أقترح أن نقتسم النقود»، قال غابرييل وهو يخرج من جيبه الـ 1600 دولار التي أقرضه الرجل الصيني. «لا يجب أن نضع كل بيضنا في سلة واحدة».

وضع أمامها ثماني ورقات من فئة 100 دولار. جمعتها ثم وضعتها في أصغر جيوب الجينز. في تلك اللحظة أحست بورقة في قعر جيب الجينز. طرفت جفونها وأخذت تفتح الورقة فوق الطاولة.

- «انظر إلى هذا».

إنها من تلك النوع من التذاكر التي تسلَّم للزبائن في مستودعات الملابس، في المطاعم، أو في الفنادق الكبرى. انحنى غابرييل إلى الأمام قليلاً. تحملُ الورقة المزخرفة بحرفي الفاء والغين المتلاحمين رقم 127.

- «فندق غرينويتش!» صرخا بصوت واحد.

تبخر وهن عزيمتهما فجأة.

- «لنذهب إلى هناك!»، دعته أليس.

- «لكنني لم أبدأ بعد تناول البطاطس المقلية!».

- «ستأكل فيما بعد يا كورين!».

كانت أليس قد عادت إلى اللوحة الرقمية وشرعت تبحث في الخريطة عن عنوان الفندق، بينما ذهب غابرييل ليؤدّي ثمن الفاتورة.

- «في ملتقى شارعي غرينويتش ونورث مور»، قالت له أليس في اللحظة التي كان عائداً من دفع الحساب.

التقطت السكين التي كانت فوق الطاولة وخبّأتها في جيب سترتها بسرية، وألقت السترة على كتفيها.

وغادرا المطعم.

*

توقفت الهوندا خلف سيارتَي تاكسي. وسط ترِبيكا بدا فندق غرينويتش بناية عالية من آجر وزجاج، قريبة من موقع هتسون.

- «يوجد مرآب للسيارات في شارع شامبرز غير بعيد من هنا»، أكد غابرييل وهو يشير إلى لوحة طريق، «سأركن السيارة هناك ثم...».

- «لن تفعل ذلك!»، قالت أليس حاسمة. «سأذهب إلى الفندق وحدي وعليك أن تنتظرني هنا، ولا توقف المحركَ كي تضمن لي مخرجاً إذا ساءت الأمور».

- «وإذا لم تعودي بعد ربع ساعة، فماذا أفعل؟ هل أتصل بالشرطة؟».

- «أنا الشرطة! أجابته وهي تغادر السيارة».

عندما رآها بوّاب الفندق تتجه صوب مدخل الفندق أخلى لها باب المدخل باسماً. شكرته بإشارة من رأسها وتقدمت نحو البهو.

عبرت البهو وهي تنظر إلى أثاثه الأنيق.

- «مرحباً سيدتي، هل من خدمة؟»، سألتها شابة متناسق لباسها مع ما حولها من أثاث الفندق.
- «أتيت لأستعيد متاعي»، أعلنت أليس وهي تسلمها التذكرة.
- «طبعاً، لحظة من فضلك».
سلّمت التذكرة إلى زميلها فذهب إلى غرفة مجاورة، وعاد بعد ثلاثين ثانية حاملاً حقيبة صغيرة من جلد أسود يحيط بمقبضها سوار لاصق يحمل رقم 127.
- «تفضلي، سيدتي».
شيء لا يصدق، فكرت أليس وهي تستلم الحقيبة.
ثم قررت أن تجرب حظها.
- «هل في إمكاني أن أعرف اسم الزبون الذي ترك الحقيبة في المستودع؟».
طرفت عينا الفتاة خلف الكونتوار.
- «ماذا قلت، سيدتي؟! اعتقدت أنك من ترك الحقيبة هنا وإلا ما كنت لأسلمك إياها. أرجوك سيدتي أن تعيدي الحقيبة إلى...».
- «أنا المفتشة شافر، من شرطة نيويورك!»، قالت أليس بثبات. «أنا الآن في صدد التحقيق في...».
- «لكنك فرنسية فكيف تكونين شرطية من نيويورك»، قاطعتها المستخدمة. «أريد الاطّلاع على بطاقتك المهنية، من فضلك».
- «اسم الزبون!»، طالبتها أليس رافعة صوتها.
- «يكفي، سأستدعي المدير!».
أدركت أليس أنها خسرت المواجهة فتراجعت إلى الخلف. أحكمت قبضتها حول الحقيبة، وقطعت بخطى سريعة المسافة التي تفصلها عن باب الخروج، ومرت أمام البوّاب دون عائق.

حين خرجت ارتفع صوت صفارة إنذار. توجهت نظرات كل العابرين نحو أليس.

أدركت أليس خائفةً أن صفارة الإنذار لم تنطلق من الفندق، كما اعتقدت، وإنما من. . . الحقيبة نفسها.

جرت خطوات فوق الرصيف، باحثة عن غابرييل والسيارة. في اللحظة التي كانت تتأهب لعبور الشارع صعقتها شحنة كهربائية.

أصيبت بدوار وانقطع نفسها فتركت قبضتها الحقيبة، وانهارت على الأرض فجأة.

القسم الثاني

ذاكرة الألم

8

ذاكرة الألم

ومع ذلك، فإن مُصيبتنا لا تكمن فيما سرقته
منا السنون، ولكن فيما تخلِّفه وهي تمضي.
وليام ووردزوورث

صدر عن صفارة الإنذار أصوات أخرى قليلة ثم توقفت فجأة.

بقيت أليس ملقاة على الأرض تعاني صعوبة في استعادة وعيها. كانت نظراتها غائمة، كما لو أن شخصاً أسدل حجاباً أمام عينيها. وكانت لا تزال مضطّربة مشوشة عندما رأت شبحاً يقف بقربها.

- «انهضي!».

ساعدها غابرييل على النهوض وصحبها إلى السيارة. أجلسها على المقعد المجاور لمقعد السائق وعاد كي يحضر الحقيبة التي كانت قد تدحرجت بعيداً فوق الرصيف.

- «بسرعة!».

انطلقا بسرعة يميناً، ثم شمالاً. وجدا نفسيهما في شارع ويست سايد هايواي، أقصى شارع في غرب المدينة، بمحاذاة النهر.

- «اللعنة، لقد توصلوا إلى تحديد موقعنا!»، صرخت أليس وهي تخرج من حالة التشوش التي أحدثتها الشحنة الكهربائية.

كانت ممتقعة اللون. تحس برغبة في القيء، وقلبها ينبض نبضات متسارعة. ارتعشت ساقاها وصعدت إلى بلعومها شحنة حموضة آلمت صدرها.

- «ماذا بك؟».

- «الحقيبة كانت مفخخة!»، أجابته، «شخص ما علم بقدومنا إلى الفندق فشغّل عن بعد صفارة الإنذار والشحنة الكهربائية».

- «إنك تهذين...».

- «تمنيت لو تلقيت الشحنة الكهربائية بدلاً مني يا كوين! لا يجدي الفرار إذا كان هناك من يتتبع حركاتنا بدقة!».

- «لمن هي هذه الحقيبة إذن؟».

- «لم أتمكن من معرفة ذلك».

تمضي السيارة مسرعة شمالاً. الشمس تملأ الأفق. الزوارق الشراعية راسية في الميناء وناطحات سحاب جيرسي سيتي تلوح من بعيد.

غيَّر غابرييل السرعة ليتجاوز شاحنة لنقل الجياد. عندما التفت نحو أليس وجدها قد أمسكت بالسكين الذي سرقته من المطعم وأخذت تمزق ثوب سترتها الجلدية الداخلي.

- «توقفي، يا لك من حمقاء!».

دفعتها ثقتها بنفسها أن لا ترد عليه. انحنت فنزعت حذاءها الطويل العنق وقطعت كعبه بالسكين.

- «ماذا تفعلين يا أليس؟».

- «هذا ما كنت أبحث عنه! أجابته وهي تلوح منتصرة بعلبة صغيرة جدا استخرجتها من كعب حذائها».

- «ميكروفون؟».

- «إنه جهاز GPS صغير، استطاعوا بواسطته تحديد مكاننا. وأراهن أنك تحمل جهازاً مشابهاً في ثوب سترتك الداخلي أو في مكان آخر. شخص ما يلاحقنا يا كوين. يجب أن نغيّر ملابسنا وحذاءينا، الآن!»

- «فعلاً»، قال مستسلماً ناظراً نحوها نظرة قلقة.

فتحت أليس النافذة وألقت بجهاز التجسس وأمسكت بالحقيبة الجلدية. إنها حقيبة صلبة من جلد ناعم ذات قفلين مشفّرين. كان نظام كهربة مقبض الحقيبة قد توقف عن العمل الآن بشكل مقصود أو غير مقصود.

حاولت فتحها، لكنها عجزت بسبب نظام حماية الحقيبة.

- «كنت سأندهش لو كان الأمر عكس ذلك»، صاح غابرييل غاضباً.

- «سنعثر فيما بعد على طريقة لكسر القفلين. في انتظار ذلك، ابحث لنا عن مكان سري نشتري منه ملابس جديدة».

أحست بأجفَانها ثقيلة فأخذت تمسد صدغيها. عادت إليها آلام الرأس؛ وأخذت عيناها تؤلمانها. فتحت صندوق السيارة أمامها وبحثت عن نظارات شمسية كانت قد رأتها هناك من قبل. لبستها وأخذت تتأمل المشهد أمامها.

*

طافا بالسيارة بين ميتباكين وشيلسي إلى أن عثرا على متجر لبيع الملابس المستعملة. كان المتجر خليطاً من ملابس مختلفة وغير متجانسة.

- «أسرع يا كوين»، أمرته أليس وهي تدخل المتجر، «لم نأتِ إلى هنا كي ننتقي ما نريد من ملابس دون أي مراعاة للوقت».

وأخذا يبحثان وسط ركام الملابس عما يناسبهما. سرعان ما عثرت أليس على قميص وبلوفر وجينز متناسق وحذاء طويل العنق وسترة ذات لون عسكري.

بدا غابرييل أكثر تردداً.

- «ألم تقرر بعد!»، قالت تستعجله. «امسك إذن»، وألقت إليه بسروال كاكي وقميص قطني.

- «ليسا على مقاسي ولا على ذوقي».

- «إنها ليست ليلة السبت، ولست ذاهباً للتحرش بالفتيات يا كوين»، ردّت عليه وهي تفتح أزرار سترتها كي تزيلها.

أضاف عازف الجاز إلى لباسه الجديد حذاء طويل العنق ومعطفاً طويلاً. عثرت أليس على حقيبة يد عسكرية من قنب غليظ، وحزام كتف للمسدس سيمكّنها من أن تتأبط مسدسها الـ«غلوك» بسرية تامة. وبما أنه ليس هناك في المتجر مكان خاص لقياس الملابس، فقد أخذا يزيلان ملابسهما غير بعيدين عن بعضهما إلا بأمتار قليلة. لم يستطِع غابرييل منع نفسه من التلصص على أليس.

- «لا تنتهز الفرصة كي تمتّع نظرك، أيها المنحرف الوسخ!»، عاتبته وهي تخفي بطنها ببلوفرها الصوفي.

أشاح عنها غابرييل كمن ضبط لحظة ارتكابه للخطأ، غير أن ما شاهده حين استرق النظر إلى جسد أليس كان قد أدهشه: لقد شاهد جرحاً هائلاً مندملاً ينطلق من العانة إلى السُّرة.

*

- «المجموع 170 دولار»، أعلن صاحب المتجر، وهو رجل ضخم الجثة، أصلع، متوسط الطول، ذو لحية مبعثرة.

في الوقت الذي كان غابرييل ينتعل حذاءه، خرجت أليس إلى

الزُقاق وألقت بكل ملابسها في صندوق قمامة. لم تحتفظ إلا بقطعة من قميصها ملطخة بالدم.

قد يكون دليلاً ثميناً، فكرت أليس وهي تدسّه في حقيبتها.

رأت متجراً صغيراً في الجهة المقابلة، فعبرت الطريق متوجهة إليه. اشترت أقراصاً لتخفيف آلام الرأس وزجاجة ماء معدني. في اللحظة التي كانت متوجهة صوب صندوق الدفع خطرت لها فكرة، فعادت أدراجها. تفحصت المعروضات حتى انتهت إلى العثور على حيّز مخصص للهواتف ومستلزماتها. تفحّصت مختلف المعروضات. اختارت أبسط هاتف من تلك التي كانت معروضة من دون اشتراك مقابل 14,99 دولاراً، واشترت أيضاً بطاقة مسبقة الدفع تحتوي على مئة وعشرين دقيقة من المكالمات صالحة لمدة تسعين يوماً.

حين غادرت المتجر كانت الرياح العنيفة قد شرعت تهب، رغم الشمس الساطعة، وتتلاعب بأوراق الأشجار الميتة، وتثير سحابات من الغبار. غطّت أليس وجهها بيدها لتحميه. كان غابرييل متكئاً على السيارة ينظر إليها.

- «هل تنتظرين أحداً؟»، قال معاكساً.

لوّح بفردة من حذائه القديم أمام وجهها.

- «كنت على صواب فعلاً، وجدتُ فيه آلة للتعقّب». ورمى بحذائه في صندوق قمامة من بعيد كما يفعل لاعبو كرة السلة. سقط الحذاء في الصندوق بعد تأرجح.

- «ثلاث نُقط»، قال مفتخراً.

- «هل انتهيت الآن من صبيانياتك؟ هل في إمكاننا أن نذهب؟».

رفع ياقة سترته وحرّك كتفيه معبِّراً عن تكدره، كطفل جرى تعنيفه.

جلست أليس خلف المقوَد ووضعت حقيبة مشترياتها وحقيبتها اليدوية فوق المقاعد الخلفية، قرب الحقيبة الصغيرة الصلبة.

- «يجب أن نعثر على طريقة لفتح هذه الحقيبة».

- «اتركي هذا الأمر لي»، طمأنها غابرييل وهو يشد حزام السلامة.

*

لكي يبتعدا عن آلات التجسس التي في ملابسهما التي تخلصا منها، قطعا كيلومترات عدة نحو الشمال، عابرين هيل كتشن، حتى شارع 48. توقفا عند طريق مسدود أمامه حديقة عمومية في داخلها أطفال يقطفون القرع واليقطين تحت مراقبة معلماتهم.

الحي هادئ، لا سياح فيه ولا حركة. إلى درجة يصعب معها التصديق أنهما في نيويورك. توقفا تحت أوراق شجرة قيقب مُصفرَّة. كانت أشعة الشمس الصفراء تخترق الأغصان وتدعم شعورهما بالدعة.

- «ما هي فكرتك فيما يخص الحقيبة؟»، سألته أليس وهي تجذب الحصّار اليدوي.

- «سنحطم القفلين بالسكين الذي سرقتِ، يبدو أنهما ليسا صلبين كثيراً».

- «يبدو أنك من كبار الحالمين!»، قالت وهي تتنهد.

- «وهل لديك فكرة أحسن؟».

- «لا، لكن فكرتك لن تنجح أبداً».

- «سنرى!»، قال بنوع من التحدي وهو يستدير كي يجلب الحقيبة من على المقاعد الخلفية.

أعطته السكين وأخذت تنظر إليه كمتفرجة متشككة، وهو يحاول إدخال رأس السكين بين فكّي الحقيبة. فشلت كل محاولاته. فقد الصبر بعد محاولات عدة. غضب وأراد أن يفتحها بقوة، إلا أن السكين زاغت عن الفكِّ فجرحت باطن يده.

- «آي!».

- «اللعنة، ركز قليلاً!»، قالت أليس متبرمة.

استسلم غابرييل وعاد إلى تجهمه. يبدو أن شيئاً ما كان يقلقه.

- «ماهي مشكلتك؟»، سألته مهاجمة.

- «أنتِ».

- «أنا؟».

- «قبل قليل، في متجر الملابس المستعملة، رأيت الجرح الذي في أسفل بطنك... ماذا حدث لك؟».

تجهَّم وجه أليس فجأة. فتحت فمها لتجيب، لكنها أشاحت عنه وقد غمرها تعب عميق وأخذت تحك أجفانها متنهدة. لن يجلب لها هذا الشخص إلا المشاكل، ذلك ما استشعرته منذ أول لحظة...

عندما فتحت عينيها، كانت شفتها ترتعش. عاد إليها الألم وعادت الذكريات جارحة.

- «من فعل بك هذا يا أليس؟»، ألحَّ غابرييل.

أحسَّ أنه دخل إلى منطقة ملغّمة.

برر فضوله قائلاً:

- «كيف تريدين أن نخرج من هذه الورطة إذا لم نثق ببعضنا قليلاً؟».

شربت أليس قليلاً من الماء. زال رفضها لمواجهة الماضي.

- «بدأ كل شيء في نوفمبر 2010»، شرعت تحكي، «مع مقتل معلمة شابة اسمها كلارا ماتوران...».

أتذكّر...
قبل سنة ونصف
سنة من دم وغضب

مقتل امرأة أخرى غرب باريس

(صحيفة لوباريزيان، 11 مايو 2011)

عُثر هذا الصباح على مضيفة طيران اسمها ناتالي روسل مقتولة خنقاً في شقتها بشارع مسونييه الهادئ في المقاطعة 17. كانت الضحية تعيش وحيدة، ويصفها أقرباؤها بأنها «فتاة هادئة، لا مشاكل لديها، وبأنها غالباً ما تغيب عن شقتها نظراً إلى طبيعة عملها». كان زميلها في العمل قد التقى بها ساعات قليلة قبل مقتلها، وأكد أنها: «بدت مسرورة وسعيدة بحصولها على تذاكر خاصة بالسهرة التي سيقيمها ستينغ بعد غد في الأولامبيا»، وأضاف إنه «لم يحس بما يدل على أنها كانت مهددة على الإطلاق». وبحسب مصادر مقرّبة من دائرة التحري، فإن شهود عدة أكدوا أنهم شاهدوا رجلاً يغادر منزلها مسرعاً ويفر على متن دراجة نارية من نوع بياجيو ذات عجلات ثلاث. إنه رجل متوسط القامة، نحيف، ويرتدي خوذة واقية داكنة. ولقد تكلفت المديرية العامة للشرطة

القضائية بالبحث في ملابسات الجريمة. ويبدو بحسب أولى الملاحظات أن السرقة لم تكن الدافع الأول وراء الجريمة، وإن اتضح أن هاتف الضحية النقال قد سُرق.

وتبيَّن للمحققين أن هذه الجريمة تشبه إلى حدٍّ بعيد جريمة قتل كلارا ماتوران، المعلمة في إحدى مدارس المقاطعة 16، والتي كانت قد قتلت خنقاً هي الأخرى، وبطريقة وحشية استعمل خلالها القاتل جوارب نسائية نايلونية، وكان ذلك في شهر نوفمبر من العام 2010. وأجاب نائب الجمهورية حين طُرح عليه سؤال في موضوع التشابه بين الجريمتين إن المحققين لا يستبعدون أي احتمال.

*

جرائم قتل غرب باريس
الشرطة تخشى أن يكون القاتل مجرماً سفاحاً

(لوباريزيان، 13 مايو 2011)

كشفت التحليلات المخبرية، بحسب تصريح سري أدلى به أحد المحققين في القضية، أن الجوارب النايلونية التي استعملت في خنق مضيفة الطيران ناتالي روسل كانت في مُلكية كلارا ماتوران، المعلمة الشابة التي قتلت شهر نوفمبر 2010.

هذه الحقيقة التي لم يكشف عنها إلا الآن، تؤكد أن هناك ترابطاً بين الجريمتين، ما يدفع بالمحققين إلى اقتفاء أثر مجرم فِتشست[1]، يستعمل في تنفيذ جرائمه الملابس الداخلية لضحيته السابقة.

---

(1) الفتشست هو الشخص المهووس بجزء معيَّن من جسد المرأة أو بأحد الأشياء التي تخصّها - (المترجم).

وقد رفضت الشرطة إلى الآن تأكيد هذه الحقيقة.

*

مقتل امرأة أخرى
في المقاطعة 16

(لوباريزيان، 19 أغسطس 2011)

قتلت أمس الأول مساء مود موريل، الممرضة بالمستشفى الأمريكي في مدينة نويي، في شقتها بشارع مالاكوف. وقد عثرت حارسة العمارة هذا الصباح على جثة الشابة مخنوقة بجوارب نسائية نايلونية بطريقة وحشية. ورفضت الاستنتاج رسمياً أن طريقة القتل الشبيهة بطريقة تنفيذ الجريمتين السابقتين تدعو إلى الاعتقاد أن هناك علاقة أكيدة بين هذه الجريمة والجريمتين السابقتين اللتين ارتكبتا شهر نوفمبر 2010 وشهر مايو من السنة نفسها في المقاطعتين 16 و17. وإذا كانت دوافع تلك الجرائم لا تزال غامضة، فإن المحققين متأكدون من أن النساء الثلاث كنّ يعرفن بما فيه الكفاية قاتلهن، وإلا لما كنّ اطمأننّ إليه. وبالفعل، فلقد تمَّ العثور على الضحايا داخل شققهن دون أن يكون هناك أي دليل على الدخول إلى الشقق بطريقة غير عادية. وهناك شيء آخر يحير المحققين حتى الآن: اختفاء الهواتف النقالة للضحايا الثلاثة وعدم العثور عليها إلى حدّ الآن.

*

جرائم الغرب الباريسي:
التحريات تضع المحققين في سكة البحث عن سفاح

(لوباريزيان، 20 أغسطس 2011)

بعد الطريقة الوحشية التي قتِلت بها مود موريل، الممرضة بالمستشفى الأمريكي في نويي، قبل ثلاثة أيام، لم يعد المحققون يشكون أدنى شك في العلاقة الموجودة بين هذه الجريمة والجريمتين السابقتين المرتكبتين في أماكن متقاربة منذ شهر نوفمبر 2010.

وقد سئل نائب الجمهورية عن إمكانية صدور الجرائم الثلاث عن قاتل سفاح، فأجاب إن «الجرائم الثلاث تتشابه فعلاً في طريقة التنفيذ». فالجوارب التي استُعملت في خنق الآنسة موريل كانت في مُلكية ناتالي روسل، والجوارب التي استعملت في خنق المضيفة في الربيع الماضي كانت في مُلكية المعلمة كلارا ماتوران. ولقد دفع هذا العامل المحققين إلى إعادة النظر في الجرائم الثلاث. وقد كلَّف القاضي نفسه بملفات القضايا الثلاث. وعن سؤال حول تلك الجرائم وجِّه لوزير الداخلية مساء أمس في النشرة الإخبارية بالقناة الفرنسية الثانية، أجاب هذا الأخير إن «كل الوسائل المادية والبشرية ستسخَّر للعثور على مرتكب أو مرتكبي تلك الجرائم».

*

جرائم الغرب الباريسي:
اعتقال مشتبه فيه

(لوباريزيان، 21 أغسطس 2011)

اعتقل مساء الجمعة سائق تاكسي يشتبه في أن يكون الشخص المبحوث عنه في قضايا الجرائم التي ارتكبت منذ شهر نوفمبر في الأحياء الراقية في العاصمة، ووضع رهن الحراسة النظرية. وقد أسفرت عملية التفتيش التي خضع لها منزله عن العثور على هاتف مود موريل آخر الضحايا.

*

إطلاق سراح سائق التاكسي!

(لوباريزيان، 21 أغسطس 2011)

(...) تمكّن سائق التاكسي من الإدلاء بدلائل قاطعة على براءته من الجرائم الثلاث.
وقد أكد السائق للمحققين أنه تكلف بنقل مود موريل قبل ثلاثة أيام، وأن الشابة، بكل بساطة، ضاع منها الهاتف داخل التاكسي.

*

مقتل امرأة أخرى
يصدم الغرب الباريسي

(لوباريزيان، 9 أكتوبر 2011)

عثر على فرجينيا أندريه، وهي موظفة في مؤسسة بنكية، مطلّقة، وأم لطفل صغير، مقتولة خنقاً في شقتها بشارع

فاغرام. وكان زوجها سابقاً الذي أتى ليعيد إليها طفلهما الذي يتناوبان على حضانته، هو من عثر على الجثة.

*

الخوف يسيطر على المدينة
المئات من رجال الشرطة يتعقبون مجرم الغرب الباريسي

(لوباريزيان، 10 أكتوبر 2011)

إنها عملية بحث غير مسبوقة تلك التي تجنَّد لها المئات من رجال الشرطة متعقبين آثار مجرم لا يحمل، إلى حدّ الآن، لا اسماً ولا وجهاً، ولكنه ينشر الرعب منذ أحد عشر شهراً وسط النساء الوحيدات اللواتي يسكنّ في المقاطعتين 16 و17.
ما هي العلاقة بين كلارا ماتوران، المعلمة، المقتولة خنقاً يوم 12 نوفمبر 2010، وناتالي روسل، المضيفة، المقتولة يوم 10 مايو 2011، ومود موريل، الممرضة، التي عثِر عليها ميتة يوم 18 أغسطس، وفرجينيا أندريه، الموظفة في مؤسسة بنكية، المقتولة الأحد الماضي؟ الأبحاث الدقيقة التي أجراها المحققون إلى حدّ الآن في ماضي ومحيط وعلاقات أولائك النساء العازبات أو المطلقات لم تقد المحققين نحو أي طريق قد يؤدّي إلى القاتل.
أربع جرائم متشابهة في طريقة تنفيذها. أربع نساء لا علاقة بينهن، إلا أن لهن علاقة بالقاتل بلغت من الحميمية أنهن فتحن له أبواب شققهن. ولقد نشرت هذه السلسلة من الجرائم في أوساط سكان المقاطعتين الرعب وعدم الفهم. ولطمأنة السكان قامت الشرطة بتكثيف دورياتها وتدخلاتها، داعية إياهم إلى التبليغ عن أي سلوك مشتبه فيه.

أتذكّر...
قبل سنتين

باريس
21 نوفمبر 2011

مترو سولفورينو، المقاطعة 7.

صعدت أدراج النفق بصعوبة مُجهِدة. وحين خرجت منه واجهتني ريح قوية، ففتحت المظلة بمواجهة الريح كي أتجنب أن تنكسر. إني حامل منذ سبعة أشهر ونصف، ولدي موعد مع روز-ماري القابلة التي سترافقني خلال الوضع.

لم يكن شهر نوفمبر إلا نفقاً مظلماً ماطراً. وهذا الصباح ليس استثناء. أحث الخُطى. تبدو واجهات شارع بيلشاس البيضاء لامعة تحت وقع المطر الغزير.

رجلاي منتفختان. ظهري مرضوض ومفاصلي تؤلمني. أجد صعوبة في تحمل زيادة الوزن بسبب الحمل. صرت غير قادرة على أن أنتعل حذائي دون مساعدة بول! السراويل هي الأخرى صار ضيقها يؤلمني. ولم أعد أستطيع أن أرتدي شيئاً آخر غير الفساتين. أنام قليلاً، وحين يأتي موعد مغادرتي للسرير أجدني مرغمة على أن اضطجع على جنبي قبل أن أضع رجلي على الأرض. وتعقدت

الأمور أكثر قبل أيام قليلة إذ صرت أشعر بالغثيان من جديد وبنوبات تعب تنتابني بشكل مفاجئ.

لحسن حظي لم تكن المسافة التي تفصل مخرج المترو تبعد عن شارع لاس كازاس إلا بمئتي متر. وصلت إلى العيادة في أقل من خمس دقائق. دفعت الباب وتوجهت نحو المكلفة بالاستقبال، ثم إلى آلة تحضير القهوة في قاعة الاستقبال. كانت النظرات تلاحقني غير راضية.

إنني منهكة. الأصوات في بطني كأنها فقاقيع مائية مصوِّتة، كأن مويجات تنكسر في داخلها. إنه شيء يسعد بول كثيراً حين يحدث في المنزل.

أما بالنسبة إلي فالأمر أكثر تعقيداً. صحيح أن الحمل شيء يكاد لا يصدق، شيء ساحر، لكنني لم أتمكن من الاستسلام لسحره. يعيق حماسي خوف صامت وهواجس سيئة، بالإضافة إلى تساؤلات مؤلمة: لا أدري إن كنت سأستطيع أن أكون أماً صالحة، وأخاف أن لا يكون لطفلي صحة جيدة، وأن لا أحسن الاعتناء به.

إنني في عطلة منذ أسبوع. قام بول بدوره في تجهيز غرفة المولود، وثبّت كرسيه الخاص في سيارتي. عزمت على القيام بأشياء كثيرة - شراء ملابسه الأولى، عربته، طست تحميمه، مواد العناية - ولكنني في كل مرة أؤجل كل هذه الأمور إلى ما بعد.

أما الحقيقة الكامنة وراء ذلك التأجيل فهي أنني لم أتوقف لحظة واحدة عن مواصلة البحث. بحثي الخاص: البحث في قضية مقتل النساء الأربع في غرب باريس. كلِّفت فرقتي بحل لغز الجريمة الأولى، لكننا فشلنا. ثم صارت للقضية أهمية كبرى فسحِب منا التحقيق. أُبعدتُ، لكني لم أنسَ أبداً وجوه أولئك النساء المعبِّرة عن

الرعب. أفكر في ذلك طوال الوقت. إنه وسواس يلوّث حملي، ويمنعني من المضي إلى الأمام، من النظر إلى المستقبل. لا أتوقف عن استرجاع الصور نفسها، عن مراجعة الافتراضات نفسها، فأتوه وسط السياقات والاحتمالات لأعود بلا كلل إلى البحث عن الخيط الرابط بين كل تلك الجرائم.

*

الخيط...

العثور على ذلك الخيط الخفي الذي يربط كلارا ماتوران بناتالي روسل، بمود موريل، بفرجينيا أندريه. حتى إن لم يتوصل أحد حتى الآن إلى ذلك الخيط الرابط فإنه موجود بالضرورة. إن بين هؤلاء النساء الأربعة رابط مشترك لم يتوصل إليه أي أحد من المحققين حتى الآن.

أنا أيضاً لم أتوصل.

أنا على الخصوص.

أدرك أن حقيقة مسلماً بها تختفي أمام ناظري. وهذه الحقيقة، هذا الجزم، يسمم حياتي. إذا لم نعتقل ذلك الشخص فسيتمادى في القتل، مرة أخرى، ومرتين، وعشر مرات... إنه حذر، خفي، زئبقي. لا يترك خلفه دلائل، ولا بصمات. ولا أحد استطاع أن يفسر لماذا فتحت له الضحايا الأربع الباب دون حذر، في ساعة متأخرة من الليل. لا دلائل لدينا على الإطلاق باستثناء شهادة فضفاضة عن أنه شخص يضع على رأسه خوذة سوداء، ويفرُّ على متن دراجة نارية ذات عجلات ثلاث، دراجة يوجد مثلها الآلاف في باريس.

شربت قهوة أخرى. كنت أشعر بالبرد. أحطت الكأس

البلاستيك بيديّ، بحثاً عن قليل من الدفء. ثم سهوت للمرة الألف مستعرضة شريط الأحداث.

أربع ضحايا. أربع نساء وحيدات. ثلاث عازبات وأم مطلقة. المحيط الجغرافي نفسه. وطريقة القتل نفسها.

أطلقت الجرائد لمدة طويلة على القاتل اسم «القاتل سارق الهواتف». واعتقدت الشرطة في البداية أن القاتل كان يسرق هواتف ضحاياه ليمحو بعض الآثار التي قد توصلُ إليه: المكالمات، الفيديوهات، الصور... لكن هذا الافتراض لم يصمد. صحيح أنه لم يتم العثور على هاتفي الضحيتين الثانية والثالثة إلا بعد مدة طويلة، إلا أن الأمر، وعلى عكس ما كتبت الجرائد، لم يكن كذلك فيما يتعلق بالضحيتين الأولى والأخيرة. فإذا لم يتم العثور على هاتف المضيفة إلى هذه اللحظة، فإن هاتف الممرضة كانت قد نسيته في التاكسي، هكذا ببساطة.

*

نظرت إلى هاتفي، إلى مئات من صور الضحايا التي وضعتها فيه. لم أحمل تلك الصور المؤثرة المتعلقة بمشاهد الموت، وإنما تلك المرتبطة بحياتهن اليومية، والتي كانت في كمبيوتراتهن الشخصية.

استعرضت الصور لأعود دائماً إلى تلك الخاصة بالضحية الأولى، المعلمة كلارا ماتوران: تلك التي ربما أحسني الأقرب إليها. واحدة من تلك الصور كانت تؤثر فيّ بشكل خاص: إنها من تلك الصور التي تلتقط للتلاميذ في المدرسة، ويعود تاريخها إلى أكتوبر 2010، وقد التقطت في ساحة الاستراحة. كل تلاميذ روضة جوليو كيري متحلقون حول معلمتهم. الصورة مفعمة بالحياة. وجوه

الأطفال تدهشني. بعضهم جادّون، بينما البعض الآخر يلعبون دور المهرج: ضحكات، أصابع في الأنوف، آذان الحمير خلف رؤوس الزملاء... كانت كلارا ماتوران جالسة وسطهم وتبتسم ابتسامة صادقة. إنها فتاة شابة، واضح أنها محافظة، شعرها أشقر مقصوص بشكل مربع. ترتدي معطفاً غير مزرر وسروالاً أنيقاً، وشالاً حريرياً من محلات بوربوري الشهيرة. ويبدو أنها تحب هذه الطريقة في اللباس على وجه الخصوص، إذ نجدها مرتدية الثياب نفسها في صور عدة: أثناء حفلة زواج إحدى صديقاتها شهر مايو 2010، وخلال إحدى عطلها في لندن شهر أغسطس من السنة نفسها، وحتى في آخر صورة التقطتها لها إحدى كاميرات المراقبة بشارع الفوزاندري قبل موتها بساعات قليلة. استعرضت الصور واحدة واحدة لأجدها في كل مرة بلبستها المفضلة نفسها. وحين توقفت طويلاً عند آخر تلك الصور أثارت انتباهي جزئية ثانوية: لم يكن الشال على تلك الصورة نفس الشال الذي ترتديه في الصور الأخرى. قربت الصورة كي أتأكد. رغم سوء كاميرا المراقبة، فأنا متأكدة تماماً أن الشال مختلف.

يوم مقتلها لم تكن كلارا ترتدي الشال نفسه.

أحسست برعشة خفيفة في كامل جسدي.

هل هي جزئية عديمة الأهمية؟

حاولت أن أبحث عن تفسير منطقي. لماذا غيرت كلارا شالها يومها؟ هل أعارته لإحدى صديقاتها؟ هل أخذته إلى المصبغة؟ هل أضاعته؟

ربما أضاعته...

مود موريل هي الأخرى أضاعت شيئاً: أضاعت هاتفها. وعثِر

عليه في التاكسي آخر الأمر. وهاتف ناتالي روسل - الذي اعتقد أنه سرق - ألا يكون ضاع هو الآخر؟

ضاع.

هاتفان، وشال...

وفرجينيا أندريه، ماذا ضاع منها؟

الحياة.

وماذا أيضاً؟ تركت الصور جانباً، واتصلت بسيمور.

- «أهلاً، هذه أنا. فيما يخص مقتل فرجينيا أندريه، هل تتذكر أن المحضر يذكر شيئاً ضاع منها في الآونة الأخيرة؟».

- «اللعنة يا أليس، إنك في عطلة! اهتمي بتحضير لوازم استقبال طفلك».

تجاهلت معاتبته.

- «هل تتذكر شيئاً أم لا؟».

- «لا، لا أعرف شيئاً يا أليس. لقد توقفنا عن البحث في هذه القضية».

- «هل تستطيع البحث عن رقم هاتف زوجها سابقاً؟ ابعث لي به على هاتفي، سأسأله بنفسي».

- «حسناً»، قال متنهدا.

- «شكراً يا صديقي».

ثلاث دقائق بعد ذلك وصلتني رسالة SMS من سيمور. اتصلت بجون مارك أندريه وتركت له رسالة على آلة تسجيل المكالمات، طالبة منه أن يتصل بي في أسرع وقت ممكن.

*

- «السيدة شافر! هل أتيت مشياً مرة أخرى؟»، سألتني روز-ماري وهي مندهشة.

إنها امرأة من ريّون ضخمة الجثة، ذات لكنة كريولية واضحة، وهي كلما جئت لزيارتها عاتبتني وكأنني طفلة.

- «لا، أبداً!»، قلت وأنا أتبعها إلى إحدى غرف الطابق الثالث حيث تلقي دروساً حول الاستعداد للوضع.

طلبت مني أن اضطجع، وأخذت تفحصني، أكدت لي أن فم الرحم ما زال مسدوداً، وأن لا خطر يخشى من وضع قبل الأوان. كانت مطمئنة لأن الجنين استدار في الرحم وترك وضعية الجلوس.

- «رأس الجنين متوجه إلى تحت، وظهره متوجه شمالاً. إنها الوضعية المثالية! بل إنه بدأ ينزل قليلاً».

ثم بدأت تفحصني وتفحص نبض الجنين.

سمعت نبض قلب ابني.

انفعلت، واغرورقت عيناي. إلا أن رعشة خوف جعلت قلبي ينقبض في الوقت نفسه. ثم شرحت لي روز-ماري الخطوات التي عليّ ان أتبعها حين سأشرع في الشعور بالمخاض، وذلك بعد أربعة أو خمسة أسابيع.

- «إذا أحسست بنوبات المخاض كل عشر دقائق فتناولي حبة سباسفون وانتظري نصف ساعة. إذا زال الألم فإنه مخاض كاذب. وإذا استمر فـ...».

أحسست بتراقص الهاتف في جيبي، غير بعيد عني، فقاطعت القابلة، وانحنيت نحو الهاتف:

- «أنا جون مارك أندريه»، أعلن الصوت على الهاتف. «وجدت مكالمة على آلة تسجيل المكالمات، و...».

- «شكراً لأنك ذكّرتني، أنا الكابتن شافر يا سيدي، من المكلَّفين بالتحقيق حول مقتل زوجتك السابقة. هل تتذكر أنها أضاعت شيئاً خلال الأيام التي سبقت موتها؟».

- «ماذا أضاعت؟».

- «لا أعرف بالتحديد... هل ضاع منها ثوب معيَّن مثلاً؟ حلية؟ محفظة نقود؟».

- «وما علاقة ذلك بقتلها؟».

- «قد لا تكون هناك أية علاقة، لكن ينبغي تتبع كل الخيوط. ألم تحدثك عن شيء ما أضاعته؟».

سكت يفكر للحظة، ثم:

- «نعم، نعم، طبعاً...».

لم يواصل، شعرت أن صوته محمل بالانفعال، لكنه تدارك الموقف وأخذ يشرح:

- «كان واحداً من الأسباب التي تشاجرنا بسببها في المرة الأخيرة التي تركت فيها ابننا تحت رعايتي. كنت قد آخذتها على إضاعتها لدبدوب غاسبار، لعبته التي لا يستطيع النوم من دونها. ادَّعت فرجينيا أنها أضاعته في حديقة مونسو. حدثتني عن ذلك المقر المكلَّف بالاحتفاظ بالأشياء الضائعة التي يُعثر عليها لكن...».

الأشياء الضائعة التي يُعثر عليها...

أحسست بنبضات قلبي تتسارع. إنه الأدرنالين الخالص.

- «انتظر لحظة يا سيد أندريه، أريد أن أتأكد من أني فهمت: هل ذهبت فرجينيا بنفسها إلى المقر المكلَّف بالاحتفاظ بالأشياء الضائعة أم أنها كانت تعتزم الذهاب إليه؟».

- «قالت لي إنها ذهبت إليه فعلاً، وتركت لهم المعلومات

المطلوبة على بطاقة خاصة، ليتم الاتصال بها في حال العثور على الدبدوب».

لم أصدق ما سمعته.

- «طيب، شكراً. . . سأعيد الاتصال بك إذا كان لدي جديد».

نهضت فارتديت ملابسي، وهرعت خارجة:

- «آسفة يا روز-ماري، إنني مضطرة إلى أن أذهب الآن».

- «لا، ما تفعلينه الآن يا سيدة شافر يفتقد إلى الجدية، فحالتك. . .». كنت قد تجاوزت الباب ودخلت إلى المصعد. اتصلت بتاكسي، وأخذت أنتظر في البهو نافدة الصبر.

إنها قضيتي الخاصة.

استرجعت كبريائي. وأخذت أفكر في أولئك العشرات من شرطة محاربة الجرائم الذين فحصوا بكل دقة استعمالات زمن كل الضحايا ولم ينتبه منهم أحد إلى شيء قد يكون أولوياً.

ذلك الشيء الذي انتبهت إليه أخيراً. . .

*

36، شارع الموريون، المقاطعة 15
خلف حديقة جورج براسنس

غادرت التاكسي أمام مقر الأشياء الضائعة: إنه بناية جميلة تعود إلى سنوات العشرينيات، من آجر وردي وأحجار بيضاء. وإن كانت إدارة المقر خاضعة لمفوضية شرطة باريس، فإن المقر نفسه مؤسسة إدارية لا يعمل فيها أي شرطي، ولم يسبق لي أن زرتها.

أدليت ببطاقتي المهنية وطلبت من المكلف بالاستقبال مقابلة المسؤول. في الانتظار انشغلت بالنظر إلى كل ما هو حوالي. خلف

الشبابيك عشرات من الموظفين يستقبلون ببرود تام كل من يأتون لإيداع الأشياء التي وجدوها في أماكن عمومية، أو من يأتون لاسترجاع ما ضاع منهم، أو من يصرحون بما ضاع منهم.

- «ستفان دلماسو، تشرفت بمعرفتك».

رفعت رأسي. شارب كثّ، خدان متهدلان، نظارات دائرية من بلاستيك ملون: إنه المسؤول، وقد بدا لي شخصاً طيباً، ذا لكنة مارسيلية.

- «أليس شافر، شرطة محاربة الجرائم».

- «تشرفت بمعرفتك، هل ستضعين قريباً؟»، سألني وهو ينظر إلى بطني.

- «بعد شهر ونصف، وقد يكون قبل ذلك».

- «الأطفال إضافة رائعة لحياة الإنسان»، قال وهو يدعوني إلى أن أتبعه إلى مكتبه.

دخلت غرفة واسعة تشبه متحفاً صغيراً وضِعت فيه أغرب الأشياء التي توصلت إليها الإدارة: وسام شرف، ساق اصطناعية، جمجمة إنسان، علبة تحتوي على رماد قطة بعد حرقها، سيف ياكوزا، بل حتى... فستان عروس.

- «حمله إلينا سائق تاكسي قبل أعوام قليلة. تشاجر الزوجان في التاكسي فتطلقا وهما في الطريق نحو مقصدهما». شرح ستفان دلماسو.

- «إنك ترأس كهفاً ككهفِ علي بابا».

- «المحفظات، والنظارات، والمفاتيح، والهواتف، والمظلات، هي ما يحمل إلينا أغلب الأوقات».

- «مدهش»، قلت وأنا أسترق النظر إلى ساعتي.

- «لدي كثير من القصص الطريفة، لكن يبدو أنك على عجلة من أمرك»، قال مخمناً وهو يدعوني إلى الجلوس. «لماذا شرَّفنا قسم محاربة الجرائم بالزيارة؟».

- «إني أتحرى حول جريمة قتل، وأريد أن أعرف إن كانت امرأة اسمها فرجينيا أندريه قد أتت هنا خلال الأيام الأخيرة».

- «وعن أي شيء كانت تبحث؟».

- «عن دبدوب ابنها الذي أضاعته في حديقة مونسو».

تحرك دلماسو بكرسي مكتبه ذي العجلات نحو الكمبيوتر وشغّله.

- «فرجينيا أندريه، أليس كذلك؟»، قال وهو يفتل شاربه.

أكدتُ ذلك بإشارة من رأسي. بحث في الجهاز.

- «لا، آسف، لم نتلقَ أي تصريح بهذا الاسم خلال الشهور الأخيرة».

- «ربما قامت بذلك عبر الإنترنت أو الهاتف».

- «في جميع الحالات كنت سأجد التصريح بالضياع. كل التصريحات تخزن لدينا. فموظفونا ينجزون ذلك بشكل مباشر».

- «غريب، أكد لي زوجها أنها بعثت بالتصريح. هل في إمكانك أن تقوم بالبحث نفسه بخصوص ثلاثة أشخاص آخرين من فضلك؟».

كتبت الأسماء على دفتر صغير موضوع على المكتب، ثم أدرته نحوه.

أجرى بحثه حول «كلارا ماتوران» و«ناتالي روسل» و«مود موريل».

- «لا، لا شيء».

شعرت بخيبة كبرى. تطلب مني تقبل خطئي ثوانٍ عدة.

- «حسناً، شكراً على المساعدة».

عندما نهضت كي أغادر، أحسست بوخزات صغيرة فلمستُ بطني. كان طفلي يتحرك كثيراً، ويدفع بطني بقوة كما لو أنه يريد أن يوسّعها.

أو قد تكون تلك إشارة إلى بدء المخاض...

- «هل أنت بخير؟»، سألني دلماسو قلقاً. «هل ترغبين أن أستدعي طبيباً؟».

- «نعم»، قلت وعدت إلى الجلوس.

- «كلوديت!»، طلب من السكرتيرة، «اطلبي تاكسي للآنسة شافر».

دقيقتين بعد ذلك أقبلت امرأة قصيرة، صارمة، غير راضية، وتحمل في يدها كأساً يتصاعد منه البخار.

- «سيصل التاكسي بعد قليل، هل تريدين شاياً بسكر؟».

شربت الشاي فاسترجعت وعيي شيئاً فشيئاً. استمرت المرأة تنظر إلي بطريقة سيئة دون سبب. خطر في ذهني سؤال مفاجئ:

- «سيد دلماسو، نسيت أن أسألك إن كان لأحد من العاملين هنا دراجة نارية بثلاث عجلات؟».

- «لا أعتقد، الرجال هم من يستعملون مثل هذه الدراجات، أليس كذلك؟ والعاملون هنا، كما شاهدت، أغلبهم نساء».

- «إريك يأتي إلى العمل بدراجة من هذا النوع»، قاطعتنا السكرتيرة.

نظرت إلى دلماسو.

- «من هو إريك؟».

- «إنه إريك فوغن، عامل عرضي، يشتغل هنا خلال العطل، أو في أوقات الذّروة حين يكثر العمل، أو في حالة تقديم أحد العمال لشهادة طبية ممدّدة».

- «هل هو حاضر اليوم؟».

- «لا، ولكننا سنشغله عند حلول رأس السنة».

شاهدت التاكسي ينتظرني تحت المطر، عبر زجاج المكتب.

- «هل لديك عنوانه؟».

- «سأبحث لك عنه. قال وهو يكلف السكرتيرة بتلك المهمة».

أعادت إليّ هذه المعلومة شيئاً من حماسي. لا أريد ان أضيع مزيداً من الوقت. سجلت على أجندة دلماسو رقم هاتفي وإيميلي على عجل.

- «ابحث عن الفترات التي اشتغل خلالها فوغن هنا في السنوات الأخيرة، وابعث لي بذلك على هاتفي أو إيميلي، من فضلك».

أخذت من كلوديت الورقة التي سجلت عليها العنوان، وغادرت المكتب نحو التاكسي.

*

رائحة التاكسي عَطِنة وصوت الراديو مرتفع، والعداد يشير إلى 10 يورو. أطلعت السائق على العنوان - عمارة في شارع بارون-دو-روزان، المقاطعة 16 - وطلبت منه بحدّة أن يخفض من صوت الراديو، إلا أنه تجاهلني إلى أن شهرت بطاقتي المهنية.

أحسُّ بالوهن، وبالرعشة، وبدفقات الحرارة المنبعثة من جسدي.

يجب أن أهدأ. فكرت في سيناريو أحداث مبني على افتراضات

غير محتملة، ولكني أودُّ أن أؤمن بها. يستعمل إريك فوغن، بحكم اشتغاله في مصلحة الأشياء الضائعة، الكمبيوتر لكي يحدد ضحاياه المقبلين. أتت كلارا ماتوران، وناتالي روسل، وِمود موريل، وفرجينيا أندريه، إلى المصلحة من دون شك، وقدَّمن تصريحاً عن ضياع، لكنه لم يسجل تصريحهن في الكمبيوتر، لذلك لا تظهر أسماؤهن على الجهاز. استطاع فوغن أن يجرهن إلى الحديث كي يجمع أكبر قدر من المعلومات حولهن: يتعرف إلى عناوينهن، ويعرف أنهن يسكنّ وحيدات. بعد ذلك اللقاء الأول، ينتظر أياماً ثم يذهب إلى منازل ضحاياه، مدعياً أنه يحمل لهن ما ضاع منهن. ولسوء الحظ، بدا للنسوة الأربع طبيعياً أن يفتحن له الباب كي يدخل. فمن منا سيشك في من يحمل إليه أخباراً سارة؟ لقد ارتحنا لأننا عثرنا أخيراً على شالنا المفضل، على هاتفنا، أو على دبدوب ابننا. إذن لنفتح الباب، حتى إن كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة ليلاً.

لا، إنني أهذي من دون شك. ما نسبة الحظ في أن يكون هذا السيناريو هو الحقيقة بعينها؟ واحد على ألف؟ وإن كان...

قطع التاكسي المسافة بسرعة. بعد أن عبر شارع فكتور هوغو، مرَّ من أمام مستشفى جورج بومبيدو عابراً نهر السين، غير بعيد عن سان-كلود.

لا تحاولي أن تنجزي المهمة بمفردك...

إنني أعرف أكثر من أي شخص آخر أن إجراء بحث حول جريمة قتل ليس عملاً فردانياً. وأنه عمل مؤطّر ومشفّر، وثمرة لمجهود طويل تنجزه جماعة بأكملها. لذلك شعرت برغبة في الاتصال بسيمور لأطلعه على اكتشافي. ترددت، ثم قررت بعد ذلك

أن أنتظر ريثما أحصل على الفترات التي اشتغلَ خلالها فوغن بالمصلحة.

توصلت برسالة عبر الهاتف. بعث إليّ دلماسو الأوقات التي اشتغل خلالها فوغن عبر الإكسل. حاولت فتح الملف، لكنه امتنع عن أن يفتح.

اللعنة...

- «لقد وصلتِ».

أوصلني السائق، الذي بدا لطيفاً كباب سجن، إلى طريق صغير ذي اتجاه واحد، منحصر بين شارعي بوالو وموزار. اشتد المطر. الماء يسيل على عنقي. أحس بعبء بطني، إلى درجة أنني وجدت صعوبة في المشي.

عودي من حيث أتيت...

رأيت عمارة داكنة وسط مجموعة من المنازل والعمارات، تحمل الرقم الذي سلمتني السكرتيرة. إنها بناية تعود إلى سنوات السبعينيات: امتداد إسمنتي طويل مخيف يشوّه معالم الشارع.

رأيت اسم «فوغن» على الجرس، فضغطت بأنملة إصبعي على زر الجرس.

لا جواب.

في الشارع، في المكان المخصص للدراجات، تقف دراجة نارية عتيقة من نوع تشابّي ياماها، ودراجة نارية أخرى بثلاث عجلات.

ألححت في الضغط على زر الجرس. ضغطت كل الأجراس إلى أن فتح لي الباب أحد سكان العمارة.

اطّلعت على الطابق الذي يسكنه فوغن، ثم صعدت الأدراج دون عجلة. شعرت مرة أخرى بركلات في بطني، ركلات منبهة.

أعرف أني في طريقي إلى ارتكاب حماقة، لكن شيئاً ما استمر يدفعني إلى الاستمرار، إنها قضيتي الخاصة. لم أضغط زر الكهرباء، صعدت الأدراج، الواحدة تلو الأخرى، وسط الظلام المطبق.

الطابق السادس

باب منزل فوغن مفتوح قليلاً.

أخرجت المسدس من حقيبتي وأنا أهنّئ نفسي على أن حدسي قد هداني إلى أن أصحب مسدسي. أحكمت القبض عليه بكلتا يدي.

أحس بالعرق الممزوج بماء المطر وهو يسيل من على ظهري حتى صلبي.

صرخت:

- «إريك فوغن؟ الشرطة، سأدخل».

دفعت الباب مستمرة في إحكام القبض على المسدس بكلتا يدي. سرت في المعبر. ضغطت زر الكهرباء، إلا أن الكهرباء كانت مقطوعة. المطر خارج المنزل ينقر السقف.

الشقة فارغة تماماً. لا ضوء، والأثاث نادر، ليس هناك إلا قليل من الأوراق المقواة موضوعة على الأرض مباشرة. طار العصفور.

خفّ قلقي قليلاً. تركت يدي اليمنى مقبض المسدس كي أمسك بالهاتف. في اللحظة التي كنت بصدد الاتصال بسيمور أحسست

بوجود شخص ما خلفي. أسقطت هاتفي والتفت فرأيت رجلاً يخفي وجهه في خوذة دراجة نارية مفزعة.

فتحت فمي كي أصرخ، وقبل أن يخرج أي صوت من فمي، أحسست بنصل سكين ينغرس في بطني.

السكين الذي كان في طريقه إلى قتل ابني.

طعن فوغن بطني مرة أخرى، واستمر في الطعن...

خارت قواي فسقطت على الأرض. أحسست بشكل مشوش أنه أخذ ينزع جواربي النايلونية. ثم أحسست أني غبت عن الوجود، أني أغرق في نهر من الحقد والدم. كان أبي آخر من خطر في ذهني، وبالضبط تلك الجملة التي وشمها على ذراعه.

أجمل خدع الشيطان أن يقنعك أنه غير موجود.

9

ضفة النهر

الدائم متكوِّن من الزائل.

إيملي ديكنسون

هيلز كتشن، نيويورك

اليوم

الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة

كانت أليس قد انتهت من سرد حكايتها منذ دقيقة. وبقي غابرييل بفعل تأثير الصدمة صامتاً. بحث عن عبارة يواسي بها أليس إلا أنه خاف أن لا تكون مناسبة، ففضل أن يلتزم الصمت.

أخذت أليس تنظر بعينين شبه مغمضتين إلى أوراق الخريف حولها تتلاعب بها الرياح. بدت أصوات المدينة بعيدة. وكان في إمكانهما أن يسمعا أصوات العصافير أو خرير مياه الينبوع المتربع على عرش الحديقة. آلمتها العودة إلى ماضيها بحضرة هذا الغريب، لكنها خففت عنها الألم في الوقت نفسه، كحصة استشفاء بحضرة طبيب نفساني. وبشكل مفاجئ خطرت لها فكرة بديهية دفعتها إلى أن تقفز من مكانها.

- «أعرف كيف أفتح الحقيبة!»، صرخت مفاجئة جارها.

أمسكت بالحقيبة ووضعتها فوق ركبتيها.

- «قفلان محصّنان بشفرة من ثلاثة أرقام»، لاحظت أليس.

- «فعلاً»، سلّم مندهشاً، «وماذا بعد؟».

مالت نحوه وهي ترفع كم قميصه، كاشفة عن الرقم المحفور على ذراعه:

141197

- «نشرع في المراهنات؟».

جرّبت احتمالات عدة قبل أن تنجح في فتح الحقيبة.

فارغة.

أو هكذا تبدو، على الأقل. ثم رأت جيباً جانبياً مسدوداً بسلسلة. فتحته فاكتشفت في داخله محفظة صغيرة بنية مصنوعة من جلد التمساح.

أخيراً!

فتحت المحفظة بيدين مرتعشتين. وجدت وسط غشاء مِحقنة طبية كبيرة الحجم ذات إبرة محمية بغشاء من البلاستيك.

- «ما هذا؟»، تساءل غابرييل.

تفحّصت أليس المِحقنة عن قرب دون أن تخرجها من غشائها. في المِحقنة سائل أزرق يكاد لا يُرى، لكنه يلمع بفعل أشعة الشمس. هل هو دواء؟ مخدِّر؟

أعادت الحقنة إلى مكانها خائبة، لو كانت في باريس لتمكنت من أن تطلب إجراء تحاليل حول هذا السائل، أما هنا فمستحيل.

- «لتتعرف إلى مفعول هذا السائل، يجب أن تكون لديك الشجاعة على حقن نفسك...»، قال غابرييل.

- «بل يجب أن تكون منعدم الوعي لتحقن به نفسك...»، ضحكت أليس.

حمل سترته ووقى نفسه من الشمس المزعجة بيده.

- «هناك هاتف عمومي في نهاية الشارع»، قال وهو يشير إليه، «سأحاول أن أعاود الاتصال بصديقي عازف الساكسفون في طوكيو».

- «أوكيه، سأنتظرك في السيارة».

نظرت إليه وهو يبتعد صوب الهاتف. أحست من جديد إحساساً محبِطاً بأن دماغها يدور في الفراغ، خاضعاً لهجمة من أسئلة من دون أجوبة.

لماذا لا تتذكر، ولا يتذكر غابرييل، أي شيء مما حدث ليلة أمس؟ كيف وصلا إلى سنترال بارك؟ لمن هو الدم الذي على قميصها؟ من أين حصلت على المسدس؟ لماذا تنقص المسدس رصاصة واحدة؟ من كتب في راحة يدها رقم هاتف الفندق؟ من جرح ذراع غابرييل؟ لماذا زودت الحقيبة بشحنة كهربائية صاعقة؟ ما نوع السائل الذي في المِحقنة؟

دوّختها هذه الدفقة من الأسئلة.

أليس في بلاد المصائب...

أحست بالرغبة في إعادة الاتصال بسيمور لتعرف إن كان قد حصل على شيء بخصوص كاميرا المراقبة في المرآب والمطارات الباريسية، لكنها أدركت أن صديقها في حاجة إلى مزيد من الوقت لينجز تحرياته. في الانتظار، عليها أن تبادر بالقيام بما تحسن القيام به: التحري.

التحري بالاعتماد على ما هو مُتاح.

ظهرت سيارة شرطة متوجهة نحو سيارتهما، كانت تسير ببطء. أغلقت أليس عينيها متمنية أن لا يروها. مرت السيارة الفورد كراون من أمامها دون أن تتوقف. إنه إنذار مجاني لم تستخف به. كان قد

مضى على سرقة سيارة الهوندا أكثر من ساعة. وهو وقت كافٍ كي تبلّغ صاحبتها عن السرقة ومواصفات السيارة المسروقة ورقمها. مجازفة كبيرة إذن أن يحتفظا بها مدة أطول.

اتخذت أليس القرار على الفور، فجمعت حاجياتها ووضعتها في الحقيبة. حملت المسدس، ثم غادرت السيارة تاركة المفاتيح على المقعد.

التحري بالاعتماد على ما هو مُتاح.

كيف كانت ستتصرف لو كانت في باريس؟ كانت ستبدأ بالبصمات التي على المِحقنة، فتطلب تحليلها.

لكن ماذا في إمكانها أن تفعل هنا؟ في الوقت الذي كانت تعبُر الطريق متوجهة نحو غابرييل انبثقت في ذهنها فكرة غريبة.

- «نجحت في الاتصال بكيني»، أعلن غابرييل مبتسماً ابتسامة واسعة. «لا مانع لدى صديقي في أن نذهب إلى شقته بأستوريا، في الكوينز. ليست قريبة ولكنها أحسن من لا شيء».

- «هيا يا كوين، لنذهب إليها! لقد أضعنا الكثير من الوقت إلى حدّ الآن، وأتمنى أن تكون من هواة المشي لأننا سنتخلى عن السيارة».

- «كي نذهب أين؟».

ابتسمت له.

- «إلى مكان سيعجبك، يا من احتفظت بروح الأطفال».

- «هلّا وضّحتِ أكثر؟».

- «احتفالات رأس السنة تقترب يا غابرييل، سآخذك لتشتري لعباً!».

10

بصمات

عدوك أحسن معلّميك.

لاوو تزيو

تسللت أليس وغابرييل وسط السُّياح أمام ساحة مقر جنرال موترز، عند ملتقى الشارع 5 والزُّقاق 59.

استقبلهما بوابا مؤسسة FAO Schwartz العريقة بابتسامة عريضة. كان الحشد غفيراً متداخلاً في ذلك المتجر الذي يُعدّ أكبر متجر للعب في مانهاتن. وكان الدور الأرضي بأكمله مخصصاً للعب الأطفال الوبرية المجسدة لمختلف الحيوانات.

– «ألم تقرري بعد أن تخبريني بما سنفعل هنا؟»، سألها غابرييل مشتكياً.

تجاهلت أليس سؤاله وصعدت السلم الآلي. في الوقت الذي كانت أليس تعبُر الطابق مسرعة، كان عازف الجاز ينظر إلى المعروضات ويتأمل الأطفال بنوع من المرح، سعيداً بفرحهم وسعادتهم باللعب المختلفة.

في الجناح الخاص بملابس التنكر ارتدى غابرييل شارباً على طريقة غروشو ماركس وقبعة على طريقة إنديانا جونس، والتحق بأليس في الجناح الخاص بـ«التربية والعلوم». كانت تتأمل ما حولها بتركيز.

- «إذا صادفتِ سياطاً. . .».

رفعت رأسها متأملة تنكره مندهشة.

- «ألا تتعب أبداً من لعب دور المهرج يا كوين؟».

- «هل تحتاجين مساعدة؟».

- «لا تتعب نفسك»، ردعته أليس.

ابتعدَ عنها مغتاظاً، لكنه ما لبث أن عاد.

- «أراهن أنك تبحثين عن هذا»، قال وهو يريها علبة كرتونية مزيَّنة بصور من المسلسلات التلفزيونية الشهيرة.

نظرت إلى اللعبة بنوع من اللامبالاة أول الأمر- **أنت أيضاً تستطيع أن تلعب دور الخبير، لعبة تدخلك عالم الشرطة العلمية،** 29,99 دولاراً - أمسكت اللعبة وأخذت تطّلع على محتواها: لفيفة صفراء كتلك التي يحاط بها مكان الجريمة، عدسة مكبرة، شريط لاصق، جبس للحصول على آثار الأحذية، علب بلاستيكية للحفاظ على ما تم العثور عليه في مكان الجريمة، بودرة سوداء، ريشة جاذِبة. . .

- «هذا ما نحتاجه بالفعل»، أكدت مندهشة.

لكي تؤدّي ثمن ما اشترته، التحقت أليس بصف طويل في الطابق الأول. ولم تعثر على غابرييل بعد الدفع إلا حين نزلت إلى الطابق الأرضي. وجدته مرتدياً لباس الساحر ماندريك، متلحفاً عباءة سوداء، يؤدّي ألعابه السحرية وسط جمهور لا يتعدى متوسط عمره ست سنوات. وقفت تنظر إلى ذلك الشخص المضحك يتجاذبها شعور بالحيرة والانجذاب. كان يُخرج من قبعته، بنوع من الحذق والمرح الجلي، كل أنواع الحيوانات: أرانب، قطط، نمور، قنافذ. . .

غير أن نظرتها المحملة بالاعجاب ما لبثت أن تبددت. كانت

مشاهدة الأطفال لا تزال بالنسبة إليها شيئاً صعب التحمل، يذكرها بأنها أبداً لن تمنح لطفلها رضّاعة، ولن ترافقه إلى المدرسة، إلى ملعب كرة القدم أو قاعة الجودو، ولن تعلمه أبداً كيف يدافع عن نفسه، وكيف يواجه العالم.

أغلقت عينيها مرات عدة حتى تخفي الدموع، وتقدّمت نحو غابرييل.

- «توقف عن لعب دور المهرج يا كوين!»، أمرته وهي تجذبه من ساعده. «أذكرك بأن الشرطة تتعقبنا!».

أزال «الساحر» العباءة بحركة واثقة وأعادها إلى مكانها.

- «ماندريك يحييكم بإجلال!»، قال وهو ينحني أمام ضحكات الأطفال وتصفيقاتهم.

*

يقع مطعم «برغوليز» في شارع مادسون، خلف كاتدرائية القديس باتريك، وهو واحد من أقدم مطاعم مانهاتن. موائده البلاستيكية ومقاعده الخضراء توحي بأنه يعود إلى الستينيات. ولو كان مظهر المطعم الخارجي غير جذاب، فإن ما يقدّمه من مأكولات لذيذة يسر زبائنه.

أحضر صاحب المطعم العجوز بنفسه على طبقٍ ما طلبته الشابة ذات اللكنة الفرنسية ورفيقها: هوت دوغ وسلطة بسرطان البحر، وبطاطس مقلية، وقنينتان من جعة بودوزر.

ما أن وضع العجوز الطعام حتى انقضَّ عليه غابرييل، بادئاً بالبطاطس المقلية المملحة المقرمشة.

اكتفت أليس، التي كانت قد جلست أمامه، بقليل من السندويتش، ثم أبعدت الطعام قليلاً فاسحة المكان لحقيبتها.

أخرجتِ المحفظة الصغيرة وأخرجت المِحقنة من غشائها بحذر بمساعدة منشفة ورقية. بعد ذلك شرعت في عملها.

بعد تمزيقها الغشاء البلاستيكي للعبة التي اشترتها من متجر اللعب، أخرجت البودرة والفرشاة، وتلك العلبة الصغيرة التي تستعمل للحفاظ على ما تم العثور عليه مكان الجريمة.

- «هل أنت على وعي بأنها مجرد لعبة؟»، اعترض عازف الجاز.

- «إنها جد كافية».

نظفت يديها وشرعت تتفحص كل مكون على حِدة. البودرة السوداء المكوّنة من الكاربون وجزيئات دقيقة من الحديد ستقوم بالدور المنتظر منها على أحسن وجه. غمست رأس الفرشاة في الوعاء الزجاجي المحتوي على البودرة ومررتها على المِحقنة. بعد لحظة ظهرت عدة بصمات على المِحقنة. نفضت البودرة الزائدة بأصبعها، وأخذت تتأمل البصمات التي بدا أنها حديثة العهد. كانت إحدى تلك البصمات على الخصوص واضحة تماماً: إنها بصمة كاملة لسبابة وإصبع وسطى.

- «ناولني قطعة من الشريط اللاصق»، طلبت من غابرييل.

أمسك غابرييل بالشريط اللاصق.

- «بهذا الطول؟».

- «أطول قليلاً، واحذر كي لا تفسد جهة اللصيق!».

أمسكت بقطعة اللصيق ولفتها حول البصمة الواضحة بحذر تام وعناية، ثم سحبتها لتثبت البصمة عليها. أخذت من تحت كأس الجعة القطعة المصنوعة من ورق مقوّى وقلبتها، ثم ألصقت قطعة اللصيق عليها. ضغطت بإبهامها بقوة كي تنقل البصمة إلى القطعة.

عندما سحبت اللصيق، بدت بصمة سوداء واضحة على واجهة القطعة.

أطلعت غابرييل على نتيجة عملها، ثم وضعت القطعة في جيب صغير وهي راضية على ما أنجزت.

- «حسناً، إنه عمل جيد»، قال مسلّماً، «ولكن بماذا سيفيدنا؟ يجب أن نفحص البصمة بواسطة سكانر، وأن نبحث بعد ذلك عن صاحبها في نظام حفظ المعلومات المتعلقة بالبصمات، أليس كذلك؟».

أكلت أليس بعض القطع من البطاطس المقلية وهي تفكر بصوت مرتفع:

- «شقة صديقك في كوينز...».

- «نعم؟».

- «ربما نعثر فيها على كمبيوتر، وإمكانية استعمال الإنترنت».

- «استعمال الإنترنت؟ شيء محتمل. لكن قد لا يكون لديه إلا كمبيوتر محمول، في هذه الحالة سيكون أخذه معه إلى طوكيو، لا تعوّلي على ذلك كثيراً إذن».

ارتسمت الخيبة على وجه أليس.

- «كيف نذهب إلى هناك؟ بالتاكسي، المترو، القطار...».

رفع غابرييل بصره.

على الحائط الذي أمام مائدتهما، ووسط صور لمشاهير عدة التقطت لصاحب المطعم برفقتهن، كان هناك خريطة للمدينة معلقة على سبورة من فلّين.

- «نحن الآن في القرب من كروند سنترال»، قال غابرييل مشيراً بسبابته إلى الخريطة.

محطة كروند سنترال. . . ما زالت أليس تتذكر تلك المحطة الخارقة للعادة التي كان سيمور قد أخذها إليها كي تكتشفها، خلال واحدة من زياراتهما لنيويورك. ثم أخذها بعد ذلك إلى بار الألستر، وهو مختص في تحضير وجبات فواكه البحر، ليأكلا المحار واللانغوست. وهي تتذكر تلك الزيارة انبثقت في ذهنها فكرة غير متوقعة. نظرت إلى الخريطة؛ غابرييل على صواب: ليست محطة كروند سنترال بعيدة عن المطعم.

- «هيا بنا!»، دعته وهي تنهض من على مقعدها.
- «بهذه السرعة؟ ألا ينبغي أن نتناول بعض الفواكه؟».
- «إنك تزعجني يا كوين».

*

دخلا المحطة ومضيا في البهو الرئيس حيث اصطفت الشبابيك الأتوماتيكية.

شاهدت أليس وسط المحطة، فوق مكتب الإرشادات، الساعة النحاسية الشهيرة التي يلتقي عندها العشاق منذ أكثر من مئة سنة.

على الرغم أنها لم تأتِ إلى هنا من أجل أن تلعب دور السائحة، فإن أليس لم تستطِع إلا أن تتأمل المحطة بإعجاب.

أكيد، لا يمكن مقارنتها بمحطة الشمال أو محطة سان-لازار، فكّرت الشرطية الشابة وهي ترفع رأسها. كان ضوء خريفي، وديع وهادئ، ينسلُ عبر الواجهات الزجاجية فيملأ البهو بألوان صفراء زاهية. وكانت النجوم المرسومة على السقف العظيم المرتفع حوالي أربعين متراً، توحي للناظر أنه تحت رحمة ليل هادئ. من هذه المحطة فرّ كاري غرانت إلى شيكاغو، في فيلم «الموت

يلاحقك»[1]، وفيها التقى روبيرت دي نيرو بميريل ستريب في فيلم «قصة حب»[2].

- «اتبعني، أمرته بصوت مرتفع كي يسمعها وسط جلبة الأصوات في المحطة».

أخذته إلى الشرفة عبر الأدراج. كان المنظر من الطابق الأول المطلّ على البهو رائعاً.

في ذلك الطابق الذي يكاد يكون مفتوحاً بأكمله، استقرت إحدى الشركات المتخصصة في الإعلام. طافت أليس بين الطاولات الخشبية حيث عرضت أهم منتوجات الشركة: هواتف، كمبيوترات، لوحات إلكترونية... رغم أن المعروضات كانت محمية بأجهزة مضادة للسرقة، فإن عدداً مهماً منها وضع رهن إشارة الزوار، إذ في إمكانهم - وهم سياح في الغالب - أن يطّلعوا على إيميلاتهم، أن يستخدموا الإنترنت، أو أن يستمعوا إلى الموسيقى باستعمال خوذات هاي تيك.

كان لا بدّ من التصرف بسرعة، فالشرطة والحراس منتشرون في كل مكان. تجنبت أليس الاقتراب من ذلك العدد الهائل من العمال أصحاب القمصان الحمراء الذين لا يتوقفون عن التحرك وسط فضاء العرض، واقتربت من إحدى الطاولات الخاصة بالعرض.

مدّت حقيبتها لغابرييل.

- «ناولني القطعة الكرتونية التي في الحقيبة»، أمرته.

في اللحظة التي أخذ يبحث عن القطعة، شغّلت أليس جهازاً يشبه جهازها الشخصي MacBook Pro، ولجت إلى البرنامج الذي

---

(1) La mort aux trousses.

(2) Falling in love.

يسمح بتشغيل كاميرا التقاط الصور الموجودة أعلى شاشة الجهاز. التقطت صور عدة لقطعة اللاصق التي عليها البصمة وهي تقرّبها ما أمكن. واجتهدت في أن تحصل على أوضح صورة ممكنة.

- «هل في إمكانك أن تتكلف بشراء التذاكر؟»، اقترحت عليه.

انتظرت إلى أن ابتعد غابرييل نحو الشبابيك الأتوماتيكية لتشرع في كتابة إيميل إلى سيمور.

إلى: سيمور لومبارت

الموضوع: طلب مساعدة

من: أليس شافر

سيمور،

إني في حاجة الآن، وأكثر من أي وقت مضى، إلى مساعدتك. سأحاول الاتصال بك بعد أقل من ساعة. لكن، وفي انتظار ذلك، ينبغي أن تسرع في تحرياتك.

1 - هل اطّلعت على تسجيلات كاميرا المراقبة في المرآب والمطارات؟

2- هل عثرت على سيارتي؟ وهل توصلت إلى تحديد مكان هاتفي؟ وهل اطّلعت على آخر العمليات في حسابي البنكي؟

3- ما هي نتيجة تحرياتك حول غابرييل كوين؟

4- تجد رفقته صورة لبصمة، هل في إمكانك أن تجري الأبحاث حولها في جهاز تخزين البصمات بأسرع ما يمكن؟

صديقتك التي تعتمد على مساعدتك،

أليس.

11

مصر الصغرى

(. . .) لا أعرف كيف أحتفظ بالأشخاص
إلا بعد أن يهجروني.

ديديه فان كولارت

أستوريا
شمال-غرب الكوينز
منتصف النهار

ضوء الخريف يلطّخ أرضية المحطة.

غادرا المحطة المشمسة، ومضيا وسط حشد زبائن السوق تحت بناية المترو الحديدية. كان غابرييل قد اشترى تذاكر ستأخذهما من كروند سنترال إلى شارع لوكسنتن، ومن هناك إلى شارع أستوريا. لم تستغرق المسافة إلا عشرين دقيقة. غير أن المشهد تغيّر تماماً، إذ حلت محل ناطحات السحاب التي من زجاج وحديد، عمارات من آجر تقليدي، وترك نمط الحياة السريع المحموم في مانهاتن مكانه لحياة الضواحي الهادئة.

كان الهواء يعبق برائحة زيت الزيتون، ورائحة الثوم، والنعناع الطري. وكانت المعروضات الكثيرة من الكلامار، والأخطبوط المشوي، والموساكا، والسوفلاكس، والبقلاوة، وأوراق العنب،

والفتة، تملأ المكان. إنها اختصاصات لذيذة في الطبخ، لا تترك مجالاً للشك في أن أستوريا هو الحي اليوناني التاريخي لمدينة نيويورك.

- «هل تعرف العنوان، على الأقل؟»، سألت أليس غابرييل حين رأته يتردد في تحديد اتجاهه.

- «لم آتِ إلى المنزل إلا مرة واحدة أو مرتين»، دافع عازف الجاز عن نفسه، «أتذكر أن نوافذه تطلّ على شارع ستانواي».

- «اسم يليق بفنان»، قالت أليس مازحة.

سألا رجلاً عجوزاً يبيع سفافيد لحم البقر المشوية على الجمر مع ورق النرد عن العنوان.

مضيا، بحسب توجيهات العجوز، في زُقاق طويل محاط بالأشجار ومنازل تذكّر ببعض أحياء لندن. ثم دخلا إلى زقاق يعجّ بالحركة والحيوية، ويمتزج فيه باعة المأكولات اليونانية ببائعي المأكولات اليابانية وببائعي المأكولات الكورية، في تناغم يمتد على مساحة طويلة من الزُقاق.

حين وصلا إلى شارع ستانواي، وجدا نفسيهما وسط معالم أخرى مختلفة. كان المشهد هذه المرة يذكر بالضفة الأخرى من المحيط الأطلسي، بإفريقيا الشمالية، على وجه التحديد.

- «يطلق الناس على هذا الحي اسم مصر الصغرى، أو المغرب الأصغر»، وضّح غابرييل.

فعلاً، فبقليل من الخيال، سيمكننا الاعتقاد أننا انتقلنا إلى العالم العربي، إلى أحد أسواق مصر أو مراكش. كان الزُقاق يعبَق بروائح العسل والطاجين اللذيذة، والشيشة التي انتشرت حاناتها في هذا الحي بالذات أكثر من انتشارها في الحانات اليونانية. ومرّا

بمحاذاة مسجد ومجزرة للحوم الحلال، ومكتبة للكتب الدينية. أثناء الأحاديث المتبادلة كانت اللغتان العربية والإنكليزية تمتزجان بشكل طبيعي.

- «أعتقد أننا وصلنا»، قال غابرييل حين وصلا أمام عمارة من حجر أسمر ذات واجهة مشمسة.

لم يكن باب العمارة محمياً بأي رقم سري، ولم يكن فيها مصعد. صعدا الأدراج بخُطى سريعة، وتوقفا عند الطابق الثالث لأخذ المفاتيح من السيدة شاوش، صاحبة العمارة التي كان كيني قد أخبرها بقدومهما عبر الهاتف.

- «منزل أنيق، أليس كذلك؟»، قال غابرييل وهو يتجول في أرجائه.

كان منزل كيني الصغير مكوناً من طابقين. أخذت أليس تتأمل الحيطان الآجُرية، من ثم توقفت أمام شرفة زجاجية تطلّ على منظر ساحر على نهر الهودسن.

تأملته طويلاً قبل أن تلقي بحقيبتها على طاولة كبيرة، محاطة بكرسي حديدي وكنبتين غير متشابهتين.

- «متّ من التعب»، قالت وهي تتهاوى فوق أحد المقاعد.

- «ما رأيك في أن أجهّز لك الحمام!»، اقترح غابرييل.

- «ماذا؟ لا، لا داعي، لدينا أشياء أخرى يجب أن نقوم بها و...».

إلا أن عازف الجاز لم يستمع إليها وصعد إلى الطابق الأعلى.

تنهدت أليس ولزمت مكانها متكوّرة وسط الوسائد لا تتحرك للحظات طويلة. كان التعب قد عاودها فجأة، فهي في حاجة إلى قليل من الراحة ليستريح جسدها من التعب والضغط اللذين تحملتهما

منذ ذلك الاستيقاظ المثير للهذيان وسط الحديقة. حين شعرَت بأنها صارت على أحسن حال، نهضت وأخذت تبحث في المطبخ عن إبريق لتحضير الشاي. وضعت الماء على النار، وفي الانتظار أخذت تتنقل في أرجاء الصالة، ناظرة بشكل آلي إلى عناوين الكتب في الخزانة (هاري كراوس، هانتر تومسون، ترفانيان. . .)، وإلى المجلات التي فوق طاولة منخفضة، وإلى اللوحات التشكيلية المصغرة المعلقة على الحيطان.

بحثت عن كمبيوتر أو هاتف ثابت.

لا شيء.

ثم رأت في كوب صغير مفاتيح سيارة.

سيارة موستانج؟ تساءلت وهي تحمل المفاتيح.

لما عادت إلى المطبخ، عثرت في أحد الدواليب على شاي أخضر ياباني ممزوج بحبات أرز مشوية. جهّزت شاياً. كان مذاقه فريداً إلا أنها لم تستطعمه، فأراقته. ثم فتحت باب الدولاب الزجاجي الخاص بالخمور، المثبّت قرب الثلاجة. يبدو أن مضيفها مغرم بالخمور الممتازة، إذ بالإضافة إلى بعض الخمور الكالفورنية كانت هناك أنواع عدة من الخمور الفرنسية. كان لأليس معلومات جيدة فيما يخص علم الخمر. عثرت على شاتّو مارغو 2000، وزجاجة الحصان الأبيض 2006، وزجاجة مونتروز 2005. . . كانت على وشك أن تفتح زجاجة القديس أستيف حين وقع نظرها على زجاجة بورغون: لا تاش 1999، من مزارع روماني-كونتي. إنها زجاجة لا تقدّر بثمن من نوع لم يسبق لها أن ذاقته. أبعدت عنها كل الأسباب العقلية التي تمنعها من الشرب، وفتحت الزجاجة، وصبّت لنفسها كأساً أخذت تتأملها قبل أن تشربها.

إني في حاجة إلى هذا أكثر من حاجتي إلى شاي!

شربت جرعة من البورغون، وتذوقت محتوياته من الفواكه الحمراء والتوابل. أنعشتها الخمرة ودفّأتها. أفرغت الكأس وصبّت لنفسها أخرى على الفور.

- «لتتفضل سيدتي، فحمامها جاهز»، أعلن غابرييل من الطابق الأعلى مفخِّماً كلامه.

- «هل تريد كأساً؟».

- «ماذا فعلت؟ فتحت زجاجة؟»، قال وكأنه يدق ناقوس الخطر، وأخذ ينزل الأدراج بأقصى سرعة.

نظر إلى زجاجة كوت-دونوي وانفجر غاضباً.

- «إنك فعلاً إنسانة غير مسؤولة، أيتها السيدة «من دون حرج»! هل تدرين ما هو ثمن هذه الزجاجة؟».

- «يكفي يا كوين، واحتفظ بملاحظاتك المتمدنة لنفسك!».

- «يا لها من طريقة غريبة تشكرين بها صديقي على حسن استضافته!»، قال مصرّاً.

- «يكفي، قلت لك! سأعطي صديقك ثمنها».

- «ومن أين لك ذلك؟ من أجرتك كموظفة في الشرطة؟».

- «طبعاً! بالمناسبة، هل لدى صديقك سيارة؟».

- «نعم، لدى كيني سيارة عتيقة، أعتقد أنه ربحها في لعبة البوكر».

- «هل لديك فكرة عن مكانها؟».

- «إطلاقاً».

عبر غابرييل الصالة مدفوعاً بإلهام مفاجئ، ثم انحنى ينظر من

إحدى النوافذ التي تطلّ على ساحة مفروشة أرضها بالحَصى. في الساحة سيارات كثيرة. ضيَّق عينيه كي يتعرف إلى مختلف الأنواع.

- «قد تكون تلك»، قال مشيراً إلى سيارة شِلبي بيضاء بخطين أزرقين.

- «اذهب إذن وتأكد»، طلبت منه وهي ترمي إليه بالمفاتيح.

عاندها قائلاً:

- «هيه، توقفي عن توجيه الأوامر! لست واحداً من مرؤوسيك».

- «اسرع يا كوين، فنحن في حاجة ماسة إلى سيارة».

- «أما أنت فاذهبي إلى الحمام، إنك في حاجة إلى استرخاء يا صديقتي».

رفعت صوتها قائلة:

- «لا تحاول بعد الآن أن تناديني يا ص...».

لم تتمكن من إنهاء جملتها، إذ كان كوين قد خرج وأغلق الباب خلفه.

*

كان الحمام، في الطابق الأعلى، جزءاً من «غرفة النوم»، كما هو الحال في الفنادق الكبرى. جلست أليس على السرير، وفتحت حقيبتها. أخرجت الهاتف الذي اشترت من علبته البلاستيكية الواقية. كانت العلبة تحتوي على شاحن للبطارية وطقم، ودليل الاستعمال.

شحنت البطارية فظهر رصيد عشرة دقائق على الشاشة. ضغطت زر الاتصال فوجدت رقماً مسجلاً بالهاتف مسبقاً: إنه رقم صوت آلي يأمرها أن تُدخل رقم الهاتف.

نفّذت. طلب منها الصوت أن تُدخل رقم المنطقة التي تعتزم أن

تشغّل الهاتف فيها. تذكرت ما قاله غابرييل من قبل فأدخلت رقم 212 الخاص بنيويورك، أسند لها على الفور رقم هاتف تواصلت معه بواسطة رسائل SMS. عندما صار الهاتف جاهزاً أدخلت رقم البطاقة المسبقة الدفع، فمُنحت في الحال رصيداً من مئة وعشرين دقيقة من المكالمات.

بدأت بمكالمة إلى سيمور، لكنها اصطدمت بالمجيب الآلي.

- «كلّمني على هذا الرقم حين تستطيع ذلك يا سيمور، فأنا في حاجة ماسة إلى مساعدة، اسرع، من فضلك».

*

توجهت أليس بعد ذلك إلى الحمام المنفصل عن «غرفة النوم» بعازل من زجاج.

أوفى كوين بوعده: حمام متصاعد البخار، معطّر بالخزامى، كان في انتظارها وسط سحابة من الرغوة.

يا له من شخص غريب الأطوار...

نزعت أليس ملابسها أمام مرآة كبيرة من حديد ودخلت وسط الماء. رفعت حرارته من سرعة دورتها الدموية، وأيقظت مسام جلدها. استرخت عضلاتها، وخفّت آلام مفاصلها. تنفست أليس عميقاً. صار لديها إحساس بأنها محمولة على دبدبات ساخنة ورحيمة، فاستسلمت تماماً للذة الماء لحظات قليلة.

ثم حبست نَفَسها وغطّست رأسها تحت الماء.

كان مفعول الكحول في دمها ودرجة حرارة الحمام يؤرجحانها بين حالتي النعاس والاسترخاء. أفكار متعارضة عبرت ذهنها. فقدانها للذاكرة يجعلها مضطربة. حاولت، مرة أخرى، أن تعيد ترتيب شريط ليلة البارحة. لكنها اصطدمت كالعادة بحاجز يمنعها من

أن تنفذ إلى ذاكرتها. لم تكن تجد صعوبة في استرجاع الأحداث الأولى: الحانات، الصديقات، مرآب شارع فرنكلن-روزفلت، ثم طريقها نحو سيارتها، وضوء القبو الاصطناعي الأخضر الممزوج بزرقة. ثم ذلك الإحساس بالوهن، وتمايلها. ثم رأت نفسها بوضوح وهي تفتح باب سيارتها الأودي وتجلس خلف المقوَد... وبجانبها شخص! تذكرته الآن، وجهه ينبثق من العتمة. إنه رجل. حاولت أن تسترجع ملامحه، لكنها كانت تختفي خلف ضباب كثيف.

وفجأة، هاجمتها أمواج ذكرياتها الماضية، يحملها مدُّ نهر منبعه في قلب الألم.

أتذكّر...
قبل سنتين

أتذكّر

أو بالأحرى، أتصور

21 نوفمبر 2011

عند نهاية الظهيرة، في عيادة زوجي.

مكالمة هاتفية تقطع انشغاله بإجراء فحص:

«الدكتور بول مالوري؟ معك مصلحة جراحة الصدر بمستشفى أوتيل-ديُه. حُمِلت إلينا زوجتك قبل قليل. إنها في حالة خطرة و...».

*

حمل بول معطفه مرعوباً، وغمغم ببعض الكلمات الشارحة لسكرتيرته وغادر العيادة مسرعاً. ركب سيارته الجيوليتا العتيقة المركونة كالعادة في مكان يمنع فيه الوقوف. كان المطر قد أتلف ورقة المخالفة التي يتلقاها كل يوم بسبب ركنه للسيارة في مكان معيق للسير. انطلق نحو شارع باك.

كان الليل قد حلّ. إنه يوم من إيام الخريف السيئة التي تجعلك

تكره باريس الملوثة، المكتظة بالبشر والسيارات، الغارقة في الوحل والتعاسة. حركة السير بطيئة في شارع سان-جرمان. مسح بول البخار من على زجاج الألفا روميو، والدموع التي تسيل على خديه.

أليس والجنين... لا أصدق ذلك.

منذ علم أنه سيصبح أباً وهو يعيش في الأحلام. ولم يعد ينظر إلا إلى المستقبل: الرضّاعات الأولى، النزهات في حديقة لكسمبورغ، قصور الرمال على الشاطئ، ملاعب كرة القدم صباح الأحد... مجموعة من الأشياء العفوية تغيم الآن في ذهنه.

طرد عنه تلك الأفكار السوداء وحاول أن يحتفظ بهدوئه، لكن انفعاله كان من الكبر بحيث أخذ جسمه ينتفض بالبكاء. امتزج الغضب بالألم. انتحب كما ينتحب الأطفال. عَلِقَ عند إشارة مرور فضرب المقوَد بقبضته غاضباً. كلمات الطبيب لا تزال تطن في رأسه، واصفة حقيقة مرعبة: «**لن أخفيك أن الحالة خطيرة يا دكتور: إنه اعتداء باستعمال السلاح الأبيض، هناك عدة جروح على مستوى البطن...**»

الضوء أخضر الآن. إنه ليتساءل كيف كان ممكناً أن يقع كل ذلك، لماذا وُجدت زوجته، التي تناول رفقتها وجبة الغذاء عند منتصف النهار في مطعم صغير بزُقاق غيزار، مطعونة بسكين في منزل غريب غرب باريس، في الوقت الذي كان من المفترض أن تقضي ما بعد منتصف النهار بصحبة القابلة استعداداً للوضع؟

عبرت مجموعة من الصور ذاكرته مجدداً: أليس وهي تسبح في الدم، فرقة الإنقاذ وقد وصلت باستعجال، الطبيب وهو يسجّل الحالة.

رفع بول من سرعة السيارة فتجاوز تاكسيين، وكان يتأهب للانعطاف نحو اليسار إلا أن الشرطة كانت قد أغلقت شارع سان-ميشيل بسبب مظاهرة احتجاجية. صرخ غاضباً:

اللعنة، ما الذي يحدث هنا؟

تحدث إلى رجال الشرطة. وحاول المرور بالقوة لكنهم منعوه فتراجع غاضباً شاتماً.

يجب أن يهدأ. أن يحتفظ بطاقته لإنقاذ زوجته. أن يبحث لها عن طبيب قادر على صنع المعجزات. وتساءل إن كان على معرفة بأحد الزملاء في مستشفى أوتيل-ديُه.

برلافوريو، هل يعمل هناك؟ لا، إنه يعمل في بشات. وجوردان؟ يعمل في كوشان إلا أن له معارف كثر، هو من يجب أن أتصل به.

أخذ يبحث عن هاتفه في معطفه في المقعد بجانبه، لكنه لم يجده. مضت السيارة في زُقاق برناردان الضيق ثم نحو قنطرة لرشوفشي. ها هو ذا «ممر العاشقين» وعلى جانبيه المسيَّجين آلاف من الأقفال التي يعلقها العشاق تخليداً لحبهم، تلمع وسط ظلام الليل.

رأى بمساعدة ضوء السيارة الداخلي الهاتف الذي كان قد سقط على أرضية السيارة. احتفظ بالمقود في يد، وانحنى ليحمل الهاتف باليد الأخرى، وحين انتصب جالساً فوجئ بأضواء دراجة نارية قادمة نحوه رغم أن السير في الاتجاه المعاكس ممنوع في ذلك الشارع. أدار بول المقوَد بقوة لتلافي الاصطدام. ارتمت الألفا روميو يميناً فاصطدمت بالطِوّار، وتجاوزته لتصطدم بعمود كهربائي بقوة، قبل أن تنتهي بالاصطدام بسياج قنطرة العشاق الحديدي.

مات بول قبل أن تغرق سيارته في نهر السين.

*

أتذكّر
أنني في نفس ذلك اليوم،
21 نوفمبر 2011
بسبب الكبرياء والغرور والضلال،
قتلت طفلي.
وقتلت زوجي أيضاً.

12

عزف حر لموسيقى الجاز

الحياة حالة حرب.

سينيك

منعها ماء الحمام من أن تسمع رنة الهاتف إلا بعد حينَ. خرجت أليس من سهوها منتفضة. أحاطت جسمها بمنشفة ممسكة بالهاتف.

- «شافر على الهاتف».
- «أليس؟ هذا أنا».
- «سيمور، أخيراً».
- «هل أنت بخير؟».

- «نعم، بخير، لكنني في حاجة إلى معلوماتك لأتقدم في البحث. هل عثرت على شيء؟».

- «توصلت بالبصمة. قمتِ بعمل جيد، وأعتقد أن في إمكاننا استثمار نتيجة عملك. أطلعت سافنيون على الموضوع، وهو الآن يقوم بتحرياته. سنحصل على النتيجة بعد نصف ساعة».

- «أوكيه، هل لديك معلومات أخرى؟ بخصوص كاميرات مرآب فرنكلن-روزفلت؟».

- «ذهبت إلى هناك واطّلعت على التسجيلات، إلا أننا لم نشاهد شيئاً مهماً. دخلت سيارتك المرآب الساعة الثامنة ليلاً واثنتا عشرة دقيقة، وغادرَته عند منتصف الليل وسبع عشرة دقيقة».

- «هل أظهر في التسجيلات».

- «لا، في الحقيقة لا شيء يظهر...».

يا لسوء الحظ!

- «هل كنت وحدي عند مغادرة المرآب؟ هل أقود السيارة بنفسي؟».

- «غير مؤكد، التقطت الكاميرا رقم سيارتك، لكن السيارة نفسها تبدو غارقة في الظلام».

- «اللعنة، لا أصدق ما أسمع! هل حاولت أن تعاود الاشتغال على التسجيلات؟».

- «نعم، لكن لا شيء يظهر، آلات التسجيل لديهم سيئة، وأخبرك أيضاً إني لم أحصل على شيء فيما يتعلق بتسجيلات المطارات. في غياب حالة التلبس أو أمر من النيابة القضائية يستحيل النفوذ إلى معطياتهم المخزّنة أو تسجيلاتهم. سيكون الأمر أسهل إذا أبلغنا تايلاندييه بالأمر».

- «لا تفعل ذلك أبداً. هل أجريت تحرياتك مع صديقاتي؟».

- «نعم، معهن جميعاً، قلقن عليك لأنك شربت كثيراً من الخمر. واقترحت مليكة وكارين أن يرافقنك، لكنك رفضت رفضاً تاماً...».

- «وهل لا تزال لديك معلومات أخرى؟».

- «نعم، لقد احتفظت لك بالأهم، هل أنت لوحدك؟».

- «نعم، لماذا؟».

- «الأمر متعلق برفيقك غابرييل كوين... أجرى كاستلي بعض التحريات حوله. لا أثر لعازف بيانو في فرقة جاز يحمل هذا الاسم في أي مكان».

- «إنه ليس شهيراً مثل راي تشارلز أو مشيل لوغرو، فطبيعي جداً أن...».

- «كاستلي أفضل المكلفين بالأرشيف في شرطة محاربة الجرائم، ولو كان هناك أي شيء لعثر عليه، وأنت تعرفين ذلك. لا شيء أقول لك! العشرات من الأشخاص يحملون اسم غابرييل كوين، لكن ليس بينهم أي موسيقي، لا على الإنترنت، ولا في أوساط عازفي الجاز الهواة. وامسكي أعصابك لأن ما قلته عنه ليس هو الأهم...».

ترك سيمور جملته معلقة كما لو كان يستجمع قواه.

اللعنة، هات ما عندك!

- «ألم تخبريني أنه ادَّعى إحياء حفل على مسرح براون شوغر في دبلن مساء أمس؟»، سألها.

- «هذا ما قاله».

- «ليس صحيحاً. اتصل كاستلي بصاحب المؤسسة: حفلات الأمس في براون شوغر كانت عبارة عن سالسا، ومامبو، وتشا-تشا-تشا. ولم يصعد إلى خشبة المسرح إلا أعضاء أوركسترا كوبية قدِموا من هافانا في ذلك الصباح نفسه».

اندهشت أليس ووجدت صعوبة في تقبل الخبر. وفاجأت نفسها تبحث عن شروحات لتدافع عن غابرييل: قد يكون من الذين يتّخذون لأنفسهم اسماً فنياً؟ قد يكون منتمياً إلى جماعة عزف؟ قد...

- «لا أعرف من هو ذلك الشخص على وجه التحديد»، واصل

سيمور، «سأعمّق البحث حوله، لكن عليك، في الانتظار، أن تحترسي منه».

أنهت المكالمة وبقيت جامدة لا تتحرك دقائق كثيرة. لا، إن افتراضاتها ليست صائبة. لقد خُدعت كما يُخدع المبتدئون. لم تتخذ الحيطة والحذر اللازمين. لقد كذب عليها كوين من البداية.

لكن، ما هو السبب؟

ارتدت ملابسها بسرعة، وجمعت حاجياتها في الحقيبة. الآن بدأت تحس بالخوف يسيطر عليها. قلبها يخفق بسرعة وهي تنزل الأدراج ممسكة بالمسدس.

- «كوين؟»، نادت وهي تتقدم في الصالة.

سارت بمحاذاة الجدران بخُطى ذئبية حتى المطبخ، محكمة القبض على المسدس.

وجدت فوق الطاولة، قرب قنينة الخمر الفارغة، ظرفاً كُتِب على ظهره:

أليس

وجدت السيارة، إلا أنها من دون بنزين

سأذهب إلى محطة الوقود

وسأنتظرك في حانة النرجيلة على الواجهة الأخرى من الزُقاق.

إضافة: أتمنى أن تكوني من عشاق الحلويات الشرقية.

غابرييل.

13

حانة الشيشة

(. . .) لكل إنسان في الحقيقة حياتان: الحياة التي يعتقدُ الآخرون أنه يحياها، والحياة الأخرى. تلك الحياة الأخرى هي التي تشكل مشكلة بالنسبة إلى الآخرين فيبذلون ما في جهدهم للكشف عنها.

جيمس سالتر

خرجت أليس إلى الشارع بعد أن أعادت المسدس إلى جرابه. كان الهواء محمّلاً بروائح التوابل، والمُشمُش، والسكر. رأت سيارة شِلبي متوقفة أمام حانة الشيشة: إنها سيارة بلون القهوة المخلوطة بالحليب وبخطين أزرقين يجعلانها مثيرة وشبيهة بنمرٍ مستعد للانقضاض.

عبرت الزُقاق حذرة ثم دفعت باب نفرتيتي.

كان المكان مزيجاً عذباً من التأثيرات العربية والغربية: فالموائد المنخفضة تجاور الكنبات الكبيرة، والأرائك الموشحة بلون الذهب، وبالإضافة إلى ذلك هنالك خزانة محملة بالكتب، وبيانو، وكونتوار عتيق، ولعبة رمي الأسهم.

كان جو المكان جميلاً، جو بداية ظهيرة خريفية هادئة ومشمسة. وكان الطلاب المنشغلون بكمبيوتراتهم المحمولة يجلسون إلى جانب شيوخ مصريين ومغاربيين من أهل الحي، يرفضون العالم بتدخين الشيشة، التي امتزجت رائحتها السكرية برائحة الشاي بالنعناع، ما ساعد على خلق جو يعبق برائحة متناغمة حميمية.

كان غابرييل جالساً يلعب الشطرنج مع شخص كثيف الشعر ويرتدي سترة بياقة صفراء.

- «أريد أن أتحدث معك يا كوين».

رفع لاعب الشطرنج الشاب رأسه واشتكى بصوت ناعم:

- «ألا ترين أننا نلعب يا سيدتي».

- «انصرف أيها الفتى الناعم!»، أمرته وهي تبعثر بيادق الشطرنج.

قبل أن يتمكن من التصرف، كانت أليس قد أمسكت بتلابيبه ورفعته من على مقعده. خاف الفتى. هرع إلى لملمة البيادق المبعثرة فوق الأرض وابتعد دون تردد.

- «يبدو أن الحمام لم يُهدِئ أعصابك»، قال غابرييل آسفاً. «ربما تنجح الحلوى الشرقية في ذلك. ويبدو أن الاسفنج المغموس في العسل والفواكه الجافة ألذ ما يقدِّمونه هنا. أم تفضلين أرزاً بالحليب؟ أو كأس شاي؟».

جلست أمامه في هدوء، مستعدة لمواجهته بتناقضاته.

- «هل تدري ما هو الشيء الذي سيسرني أكثر يا كوين؟».

هزَّ كتفيه، مبتسماً.

- «أخبريني ما هو، إذا كانت أوتاري تستطيع عزف اللحن الذي تريدين...».

- «على ذكر الأوتار، هل رأيت البيانو هناك قرب الكونتوار؟».

التفت وقد عبّرت ملامحه عن القلق.

- «سأكون سعيدة إذا عزفت لي مقطوعة ما»، واصلت أليس. «لن تسمح لي الفرصة دائماً بأن أشرب شاياً رفقة عازف بيانو في فرقة جاز».

- «لا أعتقد أنها فكرة جيدة، لن يروق ذلك للزبائن...».

- «هيا، دع عنك هذه التفاهات، بالعكس، سوف يسعدهم ذلك. كل الناس يحبون الاستماع إلى الموسيقى مدخنين نرجيلاتهم».

حاول غابرييل التملص مرة أخرى.

- «لا شك أن البيانو غير جاهز للعزف».

- «لا يهم، إنه شيء هامشي، هيا يا كوين اعزف لي مقطوعة شهيرة: «الأوراق الميتة»[1] مثلاً، أو «الراهب الأزرق»[2]، أو «أبريل في باريس»[3]... أو ما هو أحسن من ذلك: «أليس في بلاد العجائب»[4]! لا أعتقد أنك سترفض أن تهديني هدية مثل هذه».

تَحرَّج غابرييل وبدا مضطرباً.

- «اسمعي، أعتقد...».

- «وأنا أعتقد أنه إذا كنت أنت عازف بيانو في فرقة جاز، فأنا راهبة».

---

(1) Les feuilles mortes.

(2) Blue monk.

(3) April in Paris.

(4) Alice in Wonderland.

حكَّ غابرييل عينيه وتنهد تنهيدة عميقة معبّرة عن الاستسلام. تخلّى عن الإنكار متخلصاً من عبء ثقيل.

- «حسناً، لقد كذبت عليك»، قال معترفاً، «ولكن في هذه النقطة بالذات فقط».

- «وهل تعتقد أني سأصدقك يا كوين؟ قد لا يكون كوين هو اسمك الحقيقي».

- «كل الأشياء الأخرى التي قلت صحيحة يا أليس! اسمي غابرييل كوين، كنت في دبلن مساء أمس واستيقظت هذا الصباح مقيدة يدي إلى يدك، ولم أعرف كيف وصلت إلى هنا».

- «ولماذا كذبت علي؟».

تنهد ثانية، واعياً أن الدقائق التالية لن تكون سهلة.

- «لأنني مثلك يا أليس».

حكّت حاجبيها.

- «مثلي؟».

- «أنا شرطي مثلك يا أليس».

*

ساد صمت ثقيل.

- «وما هو عملك بالضبط؟».

- «رجل مباحث في مكتب التحقيقات الفدرالي (FBI) معيَّن في المكتب الإقليمي ببوسطن».

- «هل تسخر مني؟»، قالت صارخة.

- «إطلاقاً، لقد كنت في دبلن بالأمس مساء فعلاً، في تمبل بار، أمام الفندق الذي نزلت فيه. ذهبت هناك من أجل قليل من الاسترخاء بعد يوم من العمل المرهق».

- «وماذا كنت تفعل في أيرلندا؟».
- «ذهبت لملاقاة زميل لي في الحرس الجمهوري الأيرلندي».
- «في أي إطار؟».
- «تعاون دولي حول عملية تحري».
- «التحري حول ماذا؟».

شرب غابرييل جرعة من الشاي كما لو أراد أن يوقف تدفق الأسئلة ويمنح نفسه ما يكفي من الوقت.

- «حول سلسلة من الجرائم»، قال أخيراً.
- «حول سفاح؟»، ألحّت أليس كي تحاصره.
- «ربما»، اعترف مُشِيحاً بوجهه.

رنَّ الهاتف في جيب سترة أليس. نظرت إلى شاشته التي ظهر عليها رقم هاتف سيمور. ترددت. كانت رغبتها في الانسياق وراء اعترافات غابرييل تدفعها إلى أن لا تتحمل خطر مقاطعة اعترافاته.

- «ينبغي أن تردي على الهاتف»، نصحها غابرييل.
- «وما دخلك أنت؟».
- «إنه صديقك الشرطي، أليس كذلك؟ ألا ترغبين في التعرف إلى صاحب البصمة التي كانت على المِحقنة؟».

استسلمت.

- «ألو».
- «هذا أنا يا أليس»، أجاب سيمور بصوت مشوش.
- «تحريت عن البصمة؟».
- «أين وجدتيها يا أليس؟».
- «على مِحقنة، سأشرح لك فيما بعد، هل حصلت على نتيجة أم لا؟».

- «نعم، حصلنا على نتيجة، إلا أننا وقعنا في ورطة».

- «لماذا؟».

- «المعلومات تقول إن صاحب البصمة هو...».

- «اللعنة، من هو؟».

- «إريك فوغن»، أجاب بصوت هادئ.

- «إريك فوغن؟».

فاجأ الخبر أليس مفاجأة صاعقة.

- «نعم، إنه نفس الرجل الذي حاول قتلك و...».

- «اللعنة، إنني أعرف جيداً من هو إريك فوغن!».

أغلقت عينيها، وأحست أنها ستسقط، لكن قوة داخلية منعتها من الاستسلام.

- «مستحيل يا سيمور»، قالت بصوت حاسم.

سمعت تنهيدة على الهاتف.

- «أعرف أنه شيء يصعب تصديقه، لكننا كررنا البحث عشرات المرات، أجدني مضطراً هذه المرة أن أبلغ تايلاندييه».

- «امنحني ساعات قليلة أخرى، من فضلك».

- «مستحيل يا أليس، كل ما يتعلق بفوغن الآن يدخلنا إلى أرض ملغومة، ويكفي ما سببته لنا من مشاكل المرة الماضية».

- «جميل أن تذكّرني بذلك».

نظرت إلى ساعة الجدار خلف الكونتوار. كانت الساعة تشير إلى الواحدة زوالاً وخمس عشر دقيقة بتوقيت نيويورك.

- «الساعة الآن في باريس تشير إلى السابعة مساء وخمس عشرة دقيقة، أليس كذلك؟ امنحني وقتاً إلى غاية منتصف الليل».

صمت.

- «أرجوك!».

- «إنه شيء غير معقول...».

- «وأعِد البحث فيما يخص البصمة، فأنا متأكدة أنها ليست بصمة فوغن».

تنهيدة جديدة.

- «وأنا متأكد أن فوغن في نيويورك يا أليس، وأنه يبحث عنك وعازم على قتلك».

14

شعبان

الوحوشُ موجودة فعلاً، والأشباحُ كذلك
إنها تعيش داخلنا، وتنتصر علينا أحياناً.
ستيفن كينغ

جزيئات دقيقة مختلفة الألوان تتراقص وسط ضوء النهار.

أشعة الشمس تنفذ من خلال الشبابيك الخشبية المفتوحة قليلاً.
بار الشيشة غارق في سكونه. وروائح البرتقال القوية والتمر والبندق تسبح في الصالة الكبرى حيث جلس الزبائن متفرقين يدخّنون النرجيلة باستسلام أو يأكلون حلوى كعب الغزال.

تقدَّم شاب من طاولتهما كي يقدِّم إليهما شاياً بالنعناع. صبَّ الشاي على الطريقة المغربية، رافعاً «البراد» بإحكام إلى أعلى كي تتكون على أعلى الكأسين رغوة بيضاء.

وضع غابرييل مرفقيه على الطاولة، وشبك يديه تحت ذقنه.
بدت قسمات وجهه حادة. لقد حلّت ساعة الشرح.

- «إنها بصمة إريك فوغن، أليس كذلك؟».
- «من أين عرفت اسمه؟».
- «إنه نفس الشخص الذي كنت ألاحقه في أيرلندا».

ركزت أليس نظرتها عليه، ولم تبعدها بعد ذلك.
- «لماذا أيرلندا؟».
- «إنها قصة طويلة. قبل عشرة أيام أخبرت شرطة مينيه مكتب التحقيقات الفدرالي عن جريمة قتل غير مألوفة ارتكِبت في مقاطعة كمبرلان. وبُعثتُ إلى مكان الجريمة مع زميلي الشرطي الخاص توماس غريك».
- «ومن كانت الضحية؟»، سألته الشرطية.
- «إليزابيث هاردي، إحدى وثلاثون سنة، ممرضة بمستشفى سوباغو كوتاج، عُثر عليها مقتولة في منزلها...».
- «بواسطة جوارب نسائية نايلونية»، خمّنت أليس.
أكد غابرييل ذلك بإشارة من رأسه.
ارتفع خفقان قلب أليس إلا انها حاولت أن تتحكم في انفعالها. إنها الطريقة نفسها التي يستعملها فوغن، لكن الطريقة نفسها لا تعني بالضرورة أن القاتل واحد.
- «بعد الجريمة»، واصل كوين، «بحثنا من دون فائدة في نظام المعلومات المخزّنة في «الفوكاب». أخبرك، رغم أنه غير مسموح لي بذلك، أن لدينا إمكانية النفوذ، بواسطة قراصنتنا، إلى أنظمة تخزين المعلومات لدى الشرطة الأوروبية: نظام فيسياس الألماني مثلاً، وسالفاك الفرنسي...».
- «هل تمزح؟».
- «لا تلعبي دور المذعورة، فالحرب حرب»، قال غابرييل. «باختصار، بهذه الطريقة تعرفت إلى الجرائم المتتالية التي ارتكبها إريك فوغن في باريس من نوفمبر 2010 إلى نوفمبر 2011».
- «وقمت بالربط؟».

- «وطلبت مقابلة مديرتكم في فرقة محاربة الجرائم».

- «ماتيلد تايلاندييه».

- «كنت سألتقي بها في باريس الأسبوع المقبل، إلا أني ذهبت قبل ذلك إلى أيرلندا، فقد كان نظام تخزين المعلومات العالمية كشف لي عن جريمة قتل ارتكبت في دبلن قبل ثمانية أشهر».

- «وهل كانت الضحية وطريقة القتل شبيهة بسابقاتها؟».

- «تمَّ العثور على ماري مكارتي، أربع وعشرون سنة، طالبة في السلك الثالث بترنيتي كولج، مقتولة خنقاً بواسطة جوارب نسائية نايلونية في غرفتها الجامعية».

- «وهل تعتقد أن فوغن هو القاتل؟».

- «أكيد، أليسَ هذا هو رأيك أنت أيضاً؟»

- «لا».

- «فقدنا أثر فوغن في باريس بعد أن اعتدى عليك. ومنذ ذلك الحين اختفى فوغن تماماً، ولم تتقدم الشرطة الفرنسية في عملية البحث عنه ولو قليلاً».

- «وإذن؟».

- «إليك رأيي، فوغن سفاخ يشبه الحرباء، قادر على أن يغيّر هويته حين يشعر باقتراب الخطر، لذا فأنا اعتقد أنه غادر باريس منذ مدة، ومكث في أيرلندا قليلاً، وهو اليوم في الولايات المتحدة».

- «كل هذه الاستنتاجات توصّلت إليها من خلال جريمتي قتل ارتكبتا بطريقتين تبدوان متشابهتين؟».

- «بل متشابهتان تماماً»، صحح كوين.

- «لكن فوغن ليس القاتل الوحيد الذي يستعمل جوارب نسائية لقتل ضحاياه!».

- «لا تتظاهري بالغباء يا شافر، فأنت تعلمين أن فوغن استعمل في تنفيذ جريمته في كل مرة الملابس الداخلية لضحيته السابقة، هذا بالضبط ما يميّز طريقته، وأنت تعرفين ذلك جيداً!».

- «وضحية بوسطن بماذا تم خنقها؟».

- «ببنطال داخلي لصوق وردي، وهو البنطال نفسه الذي كانت ترتديه الطالبة الأيرلندية يوم قتلها».

- «أرى أنك تتحمس بسرعة، ليس ذلك القاتل في أيرلندا، والآخر الذي في الولايات المتحدة إلا مقلِّداً. إنه شخص ضالع في الجريمة، شخص مسخّر، معجب بفوغن ويقلِّد طريقته في ارتكاب الجرائم بدقة».

- «أتقولين إنه مجرد مقلِّد؟ فعلاً إننا نشاهد أمثاله كل مساء على شاشة التلفزة، إلا أنني لم أصادف على امتداد خمس عشرة سنة من العمل أي واحد منهم، إذ لا وجود لهؤلاء على أرض الواقع».

- «بل موجودون! تذكر قضية زودياك في نيويورك، وقضية هانس...»، رفع يده مقاطعاً:

- «تلك قضايا قديمة عمرها ثلاثون سنة، نجدها في مراجع تدريس الجرائم...»

لم تستسلم أليس.

- «كنت أعتقد أن مكتب التحقيقات الفدرالي أكثر رصانة، هل تقع دائماً في الشراك الذي ينصب لك بهذه السهولة؟».

غضب غابرييل.

- «اسمعي جيداً يا أليس، لم أكن أريد إخبارك، ولكن إذا كنت تريدين دليلاً قاطعاً، فلدي ذلك الدليل».

- «صحيح؟».

- «هل تعرفين نوع الجوارب التي كانت ترتديها الشابة الأيرلندية؟».

- «أخبِرني».

- «جوارب حوامل مطرزة بالدنتيلا، مزركشة بخيوط زرقاء وأخرى خضراء. إنها الجوارب نفسها التي كنت ترتدينها قبل عامين حين كاد أن يقتلك فوغن».

صمتت. صدمها هذا البوح. لم يسبق للشرطة أن كشفت للصحافة عن هذه المعلومة، فكيف يستطيع مقلِّد إذن أن يتعرف إلى نوع الجوارب وزركشتها؟

أخذت تمسد صدغيها.

- «حسناً، أوكيه، لنفترض ذلك، فما هو رأيك أنت؟».

- «أعتقد أن فوغن جمعنا كي يتحدانا. والعثور على إحدى بصماته على المِحقنة يجعلني مطمئناً إلى رأيي. لنبدأ بك أولاً: فأنت الشرطية الفرنسية الوحيدة التي تعرفه أكثر لأنها طاردته بإصرار، والتي قتل طفلها قبل أن يولد، أنت بكل غضبك وحقدك اتجاهه. وأنا: شرطي مكتب التحقيقات الفدرالي المكلَّف بالبحث عنه، ويتعقب أثره في الولايات المتحدة. نحن شرطيان ضدّه، شرطيان مصران على الإيقاع به، إلا أننا شرطيان لهما نقط ضعفهما، وشياطينهما، شرطيان ينتقلان فجأة من موقع الصياد إلى موقع الطريدة».

تأملت أليس هذا الاحتمال بمزيج من الخوف والتحمس. إنه احتمال مرعب حقاً.

- «سواء أكان فوغن أم لم يكن وراء ارتكاب هذين الجريمتين، فإن له بالضرورة مساعد، مسخّر»، أكدت أليس. «بالأمس كنت في

دبلن بينما كنت أنا في باريس، وقد حملنا إلى هنا، بطريقة أو أخرى، بواسطة طائرة إذ لا يمكن أن تكون لدى هذا الشخص موهبة التواجد في كل مكان في الوقت نفسه».

- «صحيح».

أمسكت أليس رأسها بين يديها. لقد أصبح للقضية مسارات غير متوقعة صعّدت ما في داخلها من آلام ومعاناة كانت قد عملت على محاربتها بقوة ومواجهة ندية منذ سنوات.

- «هنالك شيء لم أفهمه يا كوين: لماذا انتظرت كل هذا الوقت لتكشف لي عن هويتك؟».

- «لأنه كان ينبغي ان أتعرف إليك أكثر، أن أتعرف إلى علاقتك بما يحدث ودوافعك. وكان عليّ بالخصوص أن أجمع أكبر قدر من المعلومات كي لا يسحب مني مكتب التحقيقات الفدرالي القضية. وأعترف أني لا أكره شيئاً بقدر ما أكره أن أهان. كما أعترف أنني خُدِعت هذه المرة كما قد يُخدع أي مبتدئ».

- «ولماذا اخترعت شخصية عازف الجاز؟».

- «خطرت لي الفكرة صدفة، كانت وليدة لحظتها. فأنا أحب الجاز فعلاً، وكيني صديقي عازف ساكسفون فعلاً».

- «ماذا تقترح الآن؟».

- «نذهب إلى مختبر تحليل الدم في إبر إيست سايد أولاً كي نطلب القيام بتحليل الدم على قطعة قميصك. لدى مكتب التحقيقات شراكة دائمة مع ذلك المختبر، تحليلاتهم مكلِفة إلا أن لديهم آلات ومعدات جد متطورة. ويستطيعون أن يمدّونا بتحليلات جينية خلال ساعتين».

- «فكرة جيدة، وبعد ذلك؟».

- «نذهب إلى بوسطن بالسيارة كي نتصل بمكتب التحقيقات الفدرالي، فنحكي لهم هناك كل ما نعرفه راجين أن لا تسحب مني القضية».

نظرت أليس إلى غابرييل فلاحظت أن مظهره قد تغيّر منذ كشف عن حقيقته، إذ ترك الجانب المرح لدى عازف الجاز مكانه لصرامة الشرطي. صارت نظرته صارمة، وملامحه صلبة، صار وجهه محمّلاً بالقلق. وبدا كأنهما يتعرفان إلى بعضهما مرة ثانية.

- «سأتبعك»، قالت موافقة، «لكن بشرط: عندما نصل إلى بوسطن أريد أن أكون شريكة في التحقيق».

- «هذا لا يتوقف علي، وأنت تعرفين ذلك».

- «أريد أن نشكل فريقاً واحداً، بشكل رسمي أو شبه رسمي: تزودني بمعلوماتك، وأزودك بمعلوماتي، وإلا فليذهب كل واحد منا في طريقه الخاص، ولتودّع قطعة القميص، هذا هو شرطي، ولا أقبل بغيره».

أشعل سيجارة وأخذ يدخن بعصبية حتى يمنح نفسه فرصة للتفكير.

أخذت تنظر إليه بطرف عينها. ها هو ذا يتكشّف أمامها الآن كواحد من المنتمين إلى المهنة نفسها، شرطياً مسكوناً بمهنته مستعداً لأي شيء مقابل الحفاظ على قضية كُلِّف بها، شرطياً يقضي وقتاً طويلاً من لياليه يفكر في القتلة ليتعرف إلى دوافعهم، شرطياً القبض على المجرمين بالنسبة إليه شيء مقدس.

أخرج مفاتيح السيارة من جيبه ووضعها على الطاولة.

- «موافق، لنذهب»، قال ماعساً سيجارته في المنفضة.

15

اِستعد للحرب

Si vis pacem, para bellem.

إذا أردت السلام فاستعد للحرب.

فيجيس

وصلا إلى المختبر في أقل من ربع ساعة. ولحسن حظهما صادف وصولهما وقت تناول الموظفين وجبات غذائهم، ما ساعدهما على العثور بسهولة على مكان يوقفون فيه سيارتهم.

- «انتظريني في السيارة، أوكيه؟».

- «هل تمزح؟ لن أفعل، سأرافقك».

- «حاضر»، قال غابرييل متنهداً، «ولكن اتركيني أتكلم، أنا من سيقود التحقيق، هل أنت موافقة؟».

- «موافقة، أيها الرئيس»، قالت ساخرة وهي تفتح الباب.

غادر السيارة بدوره.

- «وعلينا أن لا نضيع الوقت، هل أنت موافقة؟»، قال وهو يلقي نظرة على ساعة حائطية.

أشارت برأسها أنها موافقة وتبعته إلى البهو، ثم إلى المصعد. في مثل هذا الوقت من النهار يكون الطابق، حيث المختبر، شبه

فارغ. خلف كونتوار الاستقبال كانت المكلفة بالاستقبال منشغلة بأكل سلطة في علبة بلاستيكية.

قدَّم غابرييل نفسه للمكلفة بالاستقبال وطلب مقابلة إليان بالوتييه، نائبة مدير المختبر.

- «هل هي فرنسية؟» سألته أليس مندهشة وهي تعيد نطق اسم النائبة.

- «لا، من الكيبك، وأحذرك، إنها امرأة فريدة من نوعها»، باح لها غابرييل وهو يرفع أحد حاجبيه.

- «ماذا تقصد؟».

- سأترك لك المفاجأة.

ظهرت إليان بالوتييه في نهاية الممر على الفور.

- «غابي، أيها الصديق العزيز، أجئت لتعرفني على خطيبتك؟»، صرخت من بعيد.

إنها امرأة قوية البنيان، رمادي شعرها الذي قصّته قصيراً، تلبس نظارات مربعة ووزرة طبية بيضاء مفتوحة الأزرار على سترتها السوداء. ولديها وجه مدور وديع شبيه بوجوه الدمى الروسية.

- «سعيدة جداً لأنك قررت أن تتزوج أخيراً»، عاكسته معانقة إياه. امتنع غابرييل على أن يشاركها لعبتها.

- «أقدم لك يا إليان الكابتن شافر، من فرقة محاربة الجرائم في باريس».

- «يومك سعيد يا جميلتي»، قالت وهي تعانق أليس. «اللعنة عليكم أيها الفرنسيون[1]!».

---

(1) «Maudits Français» شتيمة تحببيّة مشهورة في الكيبك، لذلك لم ترد أليس عليها - (المترجم).

سارا خلفها إلى مكتبها.

- «ليس لدينا إلا قليل من الوقت يا إليان، هل في إمكانك إجراء تحليل الحمض النووي DNA على هذا الدم؟ فمختبراتنا لديها عمل كثير جداً».

أخرجت أليس من حقيبتها قطعة القميص ومدّتها للمرأة الكيبيكية.

- «سأكلف أحد أطبائي البيولوجيين بالأمر»، وعدتها وهي تأخذ منها العلبة البلاستيكية حيث وضعت القطعة. «عم تبحث بالضبط؟».

- «عن بصمة جينية يمكن استثمارها. هل في إمكانك إنجاز ذلك بسرعة؟».

- «ست ساعات، هل المدة تناسبك؟»، اقترحت عليه وهي تعدل من وضعية نظاراتها.

- «هل تمزحين؟».

- «أستطيع أن أستعمل مِسباراً مصغّراً وبالتالي التقليص من زمن استخلاص الجينة، لكن ذلك سيكلفك أكثر».

- «أنجزي ذلك بأقصى سرعة تستطيعينها، وبمجرد حصولك على النتائج ابعثيها إلى غريك مرفقة بالفاتورة. أودُّ لو أتصل به كي أبلّغه، هل في إمكاني استعمال خطكم الهاتفي؟».

- «تصرف كما لو أنك في منزلك يا غابي، سأشرع في العمل حالاً».

اختفت وتركتهما في المكتب وحدهما.

- «ما هو رقم هاتفك المحمول، أريد أن أبعث به إلى توماس كي يتمكن من الاتصال بنا بسهولة، إذا كان ذلك لا يزعجك».

كتبت أليس رقم هاتفها على ورقة فوق مكتب إليان.

في الوقت الذي كان غابرييل يجري الاتصال بصديقه، خرجت إلى الممر واتصلت بوالدها، إلا أنها اصطدمت بالمجيب الآلي.

«لا يمكنكم الاتصال بألان شافر حالياً، اتركوا رسالتكم بعد الإشارة الصوتية» طلب منها صوت كصوت الدب.

- «بابا، أنا أليس، اتصل بي حالما تتمكن من ذلك، الأمر عاجل، عاجل جداً».

أنهت المكالمة. فكرت لحظة ثم قررت أن تتصل بسيمور.

- «هذه أنا مرة أخرى».
- «اللعنة، لقد قلقت عليك، هل تحدثت مع كوين؟».
- «نعم، يدّعي إنه من مكتب التحقيقات الفدرالي، فرع بوسطن».
- «أتمزحين؟ هذا الشخص يتلاعب بك يا أليس!».
- «في إمكانك محاولة التأكد، ولكني أعتقد أنه صادق هذه المرة. إنه يجري تحرياته حول جريمة شبيهة بجرائم فوغن».
- «سأتصل بشارمان في واشنطن، هل تتذكرينه؟ إنه الشخص الذي ساعدناه في قضية بِتروس».
- «شكراً يا سيمور، أما زلت في المكتب؟ أريد منك خدمة أخرى».

لم يمسك الشرطي الباريسي نفسه عن أن يتنهد.

- «إنني لم أقم بشيء غير هذا منذ الصباح يا أليس!».
- «أريد أن تذهب بسيارتك و...».
- «الآن؟ مستحيل. لدي عمل إلى الساعة الحادية عشرة ليلاً».

تجاهلت أليس احتجاجاته.

- «استعمل الطريق السريع حتى مدينة ميتز، ومن هناك اذهب إلى ساريغومن».

- «الطريق إلى هناك طويل يا أليس».

واصلت دون أن تستمع إليه.

- «ستجد معملاً مهجوراً لصناعة السكر، بين ساريغومن وساروبرغ. لا أعرف المكان بالضبط ولكن اطلب مساعدة كاستلي: لا يمكن أن توجد معامل كثيرة هناك».

- «قلت لك لا يا أليس».

- «خذ معك مصباحاً وكماشة كبيرة، واتصل بي حالما تصل هناك. أريد أن تتأكد من شيء ما».

- «المسافة تستغرق ثماني ساعات ذهاباً وإياباً يا أليس».

- «ما كنت لأطلب منك ذلك لو لم يكن مهماً. اطلب منك ذلك باسم صداقتنا!»، توسلت إليه. «اللعنة، إني لا أثق في أحد غيرك».

أحس سيمور بالشدة التي تعاني منها صديقته فاستسلم.

- «ماذا يجب أن أفعل هناك»، قال متنهداً.

- «ستجد جثة هناك، هذا ما أتمناه».

❊

الطريق

السرعة

مناظر الطريق المتعاقبة

صوت المحرك

وعلى جهاز الراديو صوت أوتيس ريدينغ الخالد.

وتراقص ألوان شعر أليس الصفراء الذهبية العسلية.

كانا قد غادرا مانهاتن عند الثانية زوالاً، وقضيا في الطريق

حوالي ساعتين، عبرا خلالها جزءاً من الكونكتكت. كانت حركة السير يسيرة، والطريق السريع مشمساً، محاطاً أحياناً بأشجار التنوب، وتارة أخرى بأشجار الجِنكة، وأشجار الدردار والبلوط.

كانا شاردين بتفكيرهما، فلم يتحدثا في الطريق إلا نادراً. كان كل طرف يجتر انشغالاته وحده. كانت سيارة الشِلبي تجري بسرعة السهم. وكان غابرييل خلف المقود يتخيل نفسه لحظة قصيرة وقد صار من شباب الستينيات، فخوراً بسيارته الموستانج، ذاهباً بحبيبته لمشاهدة آخر أفلام ستيف ماكوين، مستمعين إلى أغاني روي أوربيسون أو إفرلي برازرز، خائفاً من التجنيدات الجديدة التي قد تأخذه إلى الفيتنام.

التفت نحو أليس. كانت غارقة في تفكيرها بوجه صارم، ممسكة هاتفها بعصبية، منتظرة مكالمة. كانت سترتها العسكرية، ووجهها الصافي، ووجنتاها المرتفعتان، وشعرها الممشوط إلى الخلف، تجعلها تبدو جميلة جمالاً طبيعياً، يكاد يكون أمومياً. كان واضحاً أن أليس شافر في حالة حرب. لكنها خلف تلك القسمات القاسية تبدو امرأة أخرى مختلفة، امرأة أكثر وداعة وهدوءاً.

تساءل كيف كانت من قبل، قبل الفاجعة. هل كانت دائمة السرور والابتسام، هادئة وسعيدة؟ وهل كان ممكناً أن يحب امرأة مثلها لو التقاها في شوارع باريس؟ هل كان سيحاول الاقتراب منها؟ هل كانت ستنظر إليه؟ وأعاد رسم المشهد، شاعراً بلذة الاستمرار في ذلك الهذيان.

ثم عاد إلى الراديو ليجد نفسه يستمع إلى أصوات جديدة حلّت محل صوت أوتيس ريدينغ. انتهى الحلم. وداعاً لسنوات الستينيات وللأحلام الرومنسية. عاد إلى الواقع.

أغلق غابرييل عينيه قليلاً ثم أنزل الواقي كي يحتمي من الأشعة.

ثم نظر في المرآة فالتقت نظرته بنظرة أليس وهي تعيد تصفيف شعرها.

- «انظر إلى الطريق بالأحرى يا كوين».

- «أريد أن تشرحي لي شيئاً...».

ترك جملته معلقة. نظرت إلى نظرته في المرآة.

- «لماذا أنت متأكدة أن البصمات على المِحقنة بصمات فوغن؟».

- «قلت لك إنه مجرد احتمال، وليس شيئاً مؤكداً».

- «لا تسخري مني: فبينما كل الدلائل تجرّمه، لم تؤمني أنت ولا مرة واحدة أن فوغن في نيويورك. قضيت الآلاف من الساعات أحقق مع المتهمين، وإني لقادر على أن أعرف إذا ما كان الشخص يكذب أم لا، وأنت الآن تكذبين».

دافعت عن نفسها.

- «لا شيء يسمح لك بـ...».

- «أذكرك أني الشرطي المكلف بالتحقيق في هذه القضية!»، قاطعها رافعاً صوته. «لقد تعاملت معك بجدية، وأطلعتك على كل المعلومات في الوقت الذي لم يكن شيء يجبرني على ذلك».

تنهدت. واصل كلامه:

- «طلبت مني أن نكون فريقاً واحداً وأن أزكيك لدى رؤسائي كي تكوني شريكة لي في التحقيقات، وقد فعلت، وإن كنت بذلك أعرّض مصداقيتي للاختبار. إذا كنا شريكين إذن فينبغي أن نتصارح، أوكيه؟».

أشارت برأسها موافقة. إنه نوع الخطاب الذي تفضله.

- «أكرر طرح السؤال إذن يا أليس: لماذا أنت متأكدة أن البصمات على المِحقنة بصمات فوغن؟».

مسّدت صدغها ثم تنفست عميقاً قبل أن تبوح له:

- «لأن فوغن مات يا كوين. فوغن مات منذ مدة طويلة».

أتذكّر...
قبل أقل من سنتين

أتذكّر

5 ديسمبر 2011

ضوءَ الغرفة الشاحب في المستشفى.

شمسَ الخريف الآيلة إلى الغروب التي تجد صعوبة في اختراق المصاريع.

رائحة الأدوية والأطعمة المقززة.

الرغبة في الموت.

*

مرّت الآن ثلاثة أسابيع على اعتداء إريك فوغن علي، وعلى موت بول. ألتزم سريري، تائهة النظرات، ضائعة في الفضاء. حقنة المضاد الحيوي مغروسة في ساعدي. رغم كل المسكنات فإن أي حركة تمزق أسفل بطني. رغم كل الأدوية المضادة للقلق والانهيار، فإن أي فكرة صغيرة تمزق قلبي.

عندما قادتني سيارة الإسعاف إلى المستشفى كنت قد نزفت كثيراً. خضعت لأجهزة أشعة فاحصة أكدت موت الطفل وخطورة الطعنات. مزقت طعنات السكين حواشي الرحم، ومزقت أحد

الأوردة، وتسببت في جروح على مستوى المعدة ووصلت إلى الأمعاء.

لم أشعر يوماً بالحاجة الماسة إلى بول كما شعرت بها في تلك اللحظة. حاجة ماسة إلى أن أحس بوجوده، وأن نبكي معاً متعانقين من شدة الألم، وأن أطلب منه المسامحة، المسامحة، المسامحة...

أخبروني بموته قُبيل إدخالي غرفة العمليات. قُبيل تمزيق بطني لإخراج ابني المغتال منها. انقطعت آخر الروابط التي كانت تشدني إلى الحياة. صرخت من الغيظ ومن الألم، وضربت الأطباء الذين كانوا يحاولون تهدئتي، قبل أن أغيب عن الوجود بفعل المخدِّر.

*

بعد ذلك، بعد العملية، قال لي طبيب وغد إني كنت «محظوظة»، فالطفل الذي كان يشغل حيّزاً كبيراً من بطني ويدفع بأعضائي إلى التراجع إلى الخلف، تلقّى الطعنات بالنيابة عني، الطعنات التي كانت ستقتلني. لقد أنقذ طفلي حياتي.

هذه الفكرة بالذات هي ما لا أستطيع تحمله.

خاطوا كل الجروح الداخلية، وأزالوا جزءاً من أمعائي، بل أخبروني إنهم نجحوا في الحفاظ على رحمي حتى أتمكن من الحمل مستقبلاً.

كما لو أنه سيكون يوماً ما حب آخر، وحمل آخر، وطفل آخر.

*

ركبت أمي القطار وأتت لزيارتي، لكنها لم تبقَ معي إلا عشرين دقيقة، وترك لي أخي رسالة على المجيب الآلي، واكتفت أختي برسالة SMS. لحسن الحظ أن سيمور كان يزورني مرتين في اليوم ويقوم بكل ما يستطيعه للسهر على راحتي وتعزيتي. وأتى زملاء

العمل تِباعاً، غير أني كنت أحس، من خلال صمتهم، خيبتهم وغضبهم: فأنا لم أكتفِ بالاستغناء عنهم في القضية، بل أفسدت التحريات في أهم قضية كلِّفت بها فرقتنا خلال السنوات الأخيرة.

من عمق سريري كنت أفاجئ نظراتهم التي لا يمكن أن تخدعني، نظرات محملة بالمرارة واللوم. أعرف جيداً ما يفكرون فيه جميعاً: إن إريك فوغن ما زال ينعم بالحرية بسببي.

وإن ما حدث لي على الرغم من كل فظاعته، لا يلام عليه أحد غيري.

*

أغرق في بخار الأدوية التي أتجرّعها كل يوم بحرس من الطاقم الطبي. تخدير عقلي ونزع كل إحساس من قلبي، هو الشيء الوحيد الذي توصلوا إليه حتى لا أُقبِلُ على تمزيق عروقي أو القفز من النافذة.

رغم عقلي الثقيل، فأنا أسمع صوت الباب وهو يفتح لأرى أبي أمامي بهيئته الثقيلة. التفت نحوه لأراه وهو يتقدم صوب سريري ببطء. ها هو ذا ألان شافر واقف أمامي في كامل تألقه: شعر أسود خضبه الشيب، قسمات متعبة، لحية لم تحلق منذ ثلاثة أيام. إنه يرتدي لباسه الذي لا يمل من ارتدائه، لباس الشرطي - معطف جلدي طويل، جينز، حذاء طويل العنق مربع المقدمة، وحول معصمه ساعة من نوع رولكس ديتونا - الساعة نفسها التي ارتداها بلموندو في فيلم «خوف في المدينة»[1] - الساعة التي كانت أمي قد أهدته إياها سنة واحدة قبل ولادتي.

---

(1) Peur sur la ville.

- «هل أنت صامدة أيتها البطلة؟»، وجذب كرسياً كي يجلس بجانبي.

بطلة. إنه اللقب الذي أطلقه علي في طفولتي. ولم يناديني به منذ خمس وعشرين سنة على الأقل. وتذكرت أيام كان يرافقني، وأنا طفلة، إلى ملاعب التنس نهاية الأسبوع. ربحنا معاً كؤوساً كثيرة وأمجاداً، أنا كلاعبة وهو كمتفرج. كان لديه دائماً الكلمة المناسبة في الوقت المناسب، والنظرة المطمئِنة والكلمة الصحيحة. وحب الانتصار بأي ثمن.

كان أبي يأتي لزيارتي كل يوم، في المساء غالباً؛ فيبقى معي إلى أن أنام. إنه الوحيد الذي يفهمني قليلاً ولا يحاسبني. الوحيد الذي يدافع عني، لأنه من دون شك كان سيتصرف تصرفي نفسه: لقد كان من عشاق الأدرنالين هو أيضاً، ومن المستعدين للمخاطرة بأي شيء، هو أيضاً كان سيذهب هناك وحيداً ممسكا بمسدسه، غير مبالٍ.

- «ذهبت لزيارة أمك في الفندق»، أخبرني وهو يفتح حقيبة جلدية، «فأعطتني شيئاً طالبتها به منذ سنوات طويلة»!

مدّ لي بألبوم صور مجلّد بثوب عتيق أخرجه لتوه من الحقيبة. بذلت مجهوداً كبيراً كي أنهض قليلاً، وضغطت زر المصباح فوق سريري.

يعود الألبوم إلى سنة 1975، سنة ولادتي. في الألبوم صور خلفها تعاليق بالحبر الجاف.

تعود الصور الأولى إلى ربيع 1975، وفيها أرى أمي حبلى في شهرها السادس. كنت قد نسيت كم أشبهها. كما نسيت أيضاً كم كان أبي وأمي يحبان بعضهما في سنوات زواجهما الأولى. وأنا

أتصفح الألبوم أحسست أن فترة من حياتي تعود إلى الحياة من خلال الصور القديمة. عادت إلى ذاكرتي الشقة الصغيرة التي كانا يسكنان فيها آنذاك في زُقاق دولمبر بمونبرناس. والورق الملون على الجدران، والأريكة ذات الشكل البيضاوي، والرفوف التي فوقها أسطوانات بوب ديلان وجيمي هيندريكس وجورج براسنس، والهاتف العتيق، وصورة مكبرة لفريق سانتتيان أيام أمجاده الكبرى.

على كل الصور أرى أبي وأمي وعلى شفتيهما ابتسامة واضحة، ومظهراً يطفح سعادة لشعورهما أنهما سيصبحان أبوين. التقطا صوراً لكل شيء، واحتفظا بكل شيء: تحليلات الدم التي تبشّر بقدومي إلى الحياة، الفحص الأول، ولائحة طويلة بالأسماء المقترحة على دفتر صغير: إيمّا أو أليس إذا كانت طفلة، وجوليان أو ألكسندر إذا كان طفلاً.

قلبت الصفحة، فخنقني الانفعال. صورة لي في المستشفى يوم مولدي. مولود يبكي بين أحضان أبي. تعرفت على خط أمي تحت الصورة:

«12 يوليو 1975: ها هي ذي صغيرتنا أليس! إنها هادئة كأبيها وأمها!».

على الصفحة المقابلة أسوِرَة مولديَ ملصقة بجانب صورة التقطت لي ساعات قليلة بعد ولادتي. هذه المرة، كانت «أليس الصغيرة» نائمة بهدوء في سريرها، محاطة بأبويها اللذين حول عيونهما هالة من السواد جراء السهر، غير أن نظرتهما محملة بالسعادة. ومرة أخرى خط أمي:

«حياة جديدة تنفتح أمامنا. مشاعر جديدة تغير حياتنا. لقد أصبحنا أبوين».

سالت على خدي دموع كثيرة وأنا أقرأ عن مشاعر لن أعرف مثلها أبداً.

- «اللعنة، لماذا تطلعني على هذه الصور؟»، قلت وأنا أبعد الألبوم عني.

انتبهت إلى أن أبي أيضاً كان مبلل العينين بالدموع.

- «أنا من حمّمك أول مرة، ومن وضع الرضّاعة في فمك، حين ولدتك أمك. يومها لما حملتك بين ذراعي وعدتك بشيء».

توقف عن الكلام قليلاً مهشم الصوت بسبب الانفعال.

- «بماذا وعدتني؟»، سألته.

- «وعدتك أني ما دمت حياً فلن أدع أحداً يُؤذيك، سأحميك مهما يحصل ومهما تكن الظروف».

ابتلعت ريقي.

- «أرأيت الآن كيف لا ينبغي أن نعد بمثل تلك الوعود لأنه لا يمكن الوفاء بها».

تنهد ومسح دموعاً لم يستطع منعها، ثم أخرج من الحقيبة محفظة أوراق كارتونية.

- «فعلت ما استطعت فعله، فعلت ما كان يجب أن أفعله، قال وهو يمدُّ لي بالمحفظة».

قبل أن أفتحها سألته نظراتي، فأخبرني حينها:

- «وصلت إليه يا أليس».

- «عمن تتحدث؟».

- «وصلت إلى إريك فوغن».

اندهشت، وتسمرت في مكاني. رفض دماغي تسجيل ما سمعته لتوي. طلبت منه أن يكرر ما قال.

- «وصلت إلى إريك فوغن. لن يؤذيك بعد اليوم أبداً».

جمّدتني رعشة باردة. نظرنا إلى بعضنا قليلاً.

- «مستحيل! منذ فراره وكل شرطة باريس تطارده. فبأية معجزة وصلت إليه وحدك؟».

- «لا يهم ذلك كثيراً، المهم أني وصلت».

غضبت.

- «ولكنك طُردت من الشرطة، لم تعد شرطياً، ولم تعد لك فرقة ولا...».

- «احتفظت ببعض العلاقات»، شرح مستمراً في النظر إلي. «إنهم أشخاص مدينون لي ببعض الخدمات، أشخاص يعرفون أشخاصاً، يعرفون بدورهم أشخاصاً آخرين. إنك تعرفين جيداً كيف تسير الأمور في مثل هذه الحالات».

- «لا، لا أعرف».

- «ما زال لدي علاقات بمخبرين في صفوف سائقي التاكسي. ركب فوغن مع أحدهم قرب باب سان-كلود مساء اعتدائه عليك، ولما أحس أنه تمّ التعرف عليه، ترك جهازه الـMP3 في التاكسي».

أحسست بقلبي يكاد ينفجر داخل صدري. واصل أبي:

- «حمله التاكسي إلى السين-سان-دوني، في أولناي-سو-بْوا، إلى أحد الفنادق الرديئة قرب ساحة الجنرال لوكليرك».

أخذ المحفظة من يدي لكي يسحب منها عدة صور فوتوغرافية كتلك التي تلتقطها الشرطة للأشخاص الفارين المختبئين في مكان ما.

- «بينما الجميع يعتقدون أنه فر إلى الخارج، كان ذلك النذل مختبئاً على بُعد عشرين دقيقة فقط من باريس. مكث هناك خمسة

أيام تحت اسم مستعار، ببطاقة هوية مزورة. حرص على أن تكون تحركاته محدودة، ولكنه كان يسعى إلى الحصول على جواز سفر كي يغادر البلد. في اليوم الأخير، حوالي الحادية عشرة ليلاً، خرج لاستنشاق هواء نقي. كان وحيداً، يمشي بمحاذاة الحيطان، مُطأطأ الرأس، وعلى رأسه قبعة، هناك فاجأته».

- «هكذا، وسط الشارع؟».

- «المكان خالٍ في الليل. ضربته ضربتين على عنقه ورأسه بقطعة حديدية. كان ميتاً حين حملته في صندوق سيارتي الرانج روفر».

حاولت ابتلاع ريقي، لكن حلقي كان مخنوقاً. تمسكت بعمود السلامة الحديدي بجانب سريري.

- «و. . . ماذا فعلت بالجثة؟».

- «مضيت بالسيارة جزءاً كبيراً من الليل باتجاه اللورين. كنت قد حددت سلفاً المكان المثالي حيث سأتخلص من ذلك الوحش: معمل لصناعة السكر مهجور بين ساربورغ وساريغومن».

أعطاني صوراً أخرى أوحت لي بديكورات أفلام الرعب. صف من البنايات المهجورة خلف الأسيجة. نوافذ مغلقة بالآجر. مداخن من آجر تهدد بالانهيار. حاويات عملاقة من حديد منغرسة في الأرض. عربات متوقفة فوق سكك حديد صدئة علتها حشائش عالية. جرافات غارقة في الصدأ.

وضع إصبعه على إحدى الصور.

- «رميته في إحدى هذه الآبار الثلاث. البئر الوسطى حيث جثته في طريقها إلى التحلل. لن يعثر عليها أحد أبداً».

أراني صورة أخيرة، صورة تلك البئر الوسطى محاطة بسياج ثقيل.

- «من حقنا أن ننتقم»، أكد أبي وهو يضم ساعدي. «سينتهي البحث في القضية الآن، لأنه لن تكون هناك جرائم أخرى، ولأن المحققين سيعتقدون أن فوغن قد فرَّ إلى أيرلندا أو نيويورك حيث أفراد من عائلته».

نظرت إليه دون ان يطرف لي جفن. إنني مرعبة عاجزة عن النطق بأية كلمة، وتتملكني كثير من المشاعر المتناقضة.

بعد موجة أولى من الشعور بالهدوء، أحسست بنوع من السعار الصامت. ضغطت بأظافري على قبضتي بقوة حتى أحسست أنها تنغرس في جلدي. جسدي بأكمله منقبض. تسارعت الدموع إلى عيني وأحسست بالدم يصعد إلى وجنتي.

لماذا حرمني والدي من الانتقام، من انتقامي. بعد أن مات زوجي وطفلي، كانت مطاردة إريك فوغن وقتله قد صارا سبب وجودي الوحيد الذي من أجله سأستطيع الاستمرار في التشبث بالحياة.

أما الآن، فلم يتبقَّ لي أي شيء.

القسم الثالث

من دم وغضب

16

تعقُّب القاتل

الأشياء الفظيعة والدموية هي الأجمل أحياناً.

دونّا تارت

الكيلومترات تتوالى.

وغابرييل يقود السيارة وعيناه على الطريق، غارقاً في أفكاره، ويدخن سيجارة تلو أخرى.

لوحة طريق: المخرج المقبل هارفورد. ثم لوحة أخرى مباشرة بعد الأولى: بوسطن 105 ميلاً. بهذه السرعة سيتمكنان من الوصول إلى مكتب التحقيقات الفدرالي في أقل من ساعتين.

كانت أليس قد وضعت جبينها على الزجاج ترتب أفكارها والمعلومات في ضوء آخر ما تم التوصل إليه، فتجمع العناصر والمعطيات في أنواع من الملفات الخيالية، لتخزنها بعد ذلك في دماغها. شيء واحد كان يقلق راحتها، ما قاله سيمور عن كاميرات المراقبة في المرآب: **التقطت الكاميرات رقم سيارتك، لكن السيارة نفسها غارقة في الظلام.**

رغبت رغبة شديدة أن تشاهد تلك الصور بنفسها.

إنها هكذا دائماً، حريصة على أن تراقب كل شيء.

أن تتأكد من كل الجزئيات.

لكن ما السبيل إلى ذلك؟ إعادة الاتصال بسيمور؟ لا ضرورة تدعو إلى ذلك. لقد سبق أن أخبرها بذهابه إلى فرنكلن-روزفلت وشاهد التسجيلات لكنها لم تكشف عن أي شيء مهم. شاهد سيمور الشريط ولم يكن في حوزته. وهو أمر منطقي، في غياب أمر من القاضي لم يكن من الممكن أن يحصل عليه. لقد ذهب إلى المرآب وتفاوض مع المكلف بسلامة المرآب طويلاً قبل أن يتمكن من مشاهدته في عين المكان.

أخذت تستعرض من خلال ذاكرتها لائحة معارفها. اتصلت بالعميد مارشال، مدير إقليمية شرطة النقل.

- «تحياتي، فرانك، أنا شافر».

- «أليس؟ أين أنت؟ على الهاتف رقم من خارج البلد».

- «في نيويورك».

- «هل بعثت بك شرطة محاربة الجرائم إلى هناك على حسابها الخاص؟».

- «إنها قصة طويلة، سأشرح لك....».

- «حسناً، لقد فهمت، دائماً تلك الرغبة في القيام بتحقيقاتك دون انضباط. لن تتغيري أبداً!».

- «نعم، إنها الحقيقة، وهذا بالضبط هو السبب الذي دفعني أن أتصل بك».

- «إنها العاشرة ليلاً يا أليس! وأنا الآن في منزلي... ماذا تريدين؟».

- «صور التقطتها كاميرا. في مرآب فانسي في شارع فرنكلن-

روزفلت أحتاج إلى كل ما تستطيع التوصل إليه بخصوص سيارة أودي، رمادية اللون».

- «ولكنه مرآب خصوصي يا أليس!».

غير أنه سرعان ما عاد إلى القول بعد لحظة صمت:

- «ماذا تطلبين مني؟».

- «ما تجيد فعله. لك معارف في بارك فانسي، اذهب إليهم، تفاوض معهم، هددهم، داعبهم، المهم أن تحصل على الصور. سجل عندك الآن رقم السيارة».

- «لست...».

- «هل تتذكر أيام كنت أعمل في شرطة محاربة المخدرات وتستّرتُ على ابنك؟ ألم تكن يومها مسروراً أني أنقذته من السجن؟ هل تريد أن أذكرك بكمية الكوكايين التي ضبطت معه؟».

- «اللعنة يا شافر، لقد مضى على ذلك عشر سنوات! هل تريدين أن أكون مديناً لك مدى الحياة!؟».

- «أعتقد ذلك فعلاً. إنها القاعدة عندما يكون لدينا أبناء، أليس كذلك؟ طيب، سجّل الرقم».

تنهد مارشال مستسلماً.

- «ابعث بالصور على إيميلي الخاص حال حصولك عليها، أوكيه؟ ولا تتأخر، فأنا في حاجة إليها هذا المساء».

أنهت المكالمة راضية، ثم لخّصت لغابرييل مضمونها: أراد غابرييل أن يشعل سيجارة لكنه اكتشف أن العلبة فارغة.

- «ألم تتوصلي إلى أي خبر عن والدك حتى الآن؟».

نفت أليس توصلها إلى أي خبر بإشارة من رأسها. ألحَّ غابرييل:

- «إنه، مع ذلك، أول من يمسك بمفاتيح اللغز. إذا كان قد قال الحقيقة، وكان قد قتل فوغن فعلاً، فنحن إذن على خطأ فيما يخص القاتل الحقيقي».

- «أتعتقد أني لا أدرك ذلك؟».

معس غابرييل علبة السجائر الفارغة في قبضته وألقى بها في المنفضة.

- «وما الذي دفعه إلى أن يكذب عليك؟».

- «ربما أراد مساعدتي على طي الصفحة بعد الحادث الذي تعرضت إليه».

حرك غابرييل شفتيه متشككاً.

- «ولكن كيف يدفعه الكذب إلى اختراع كل هذه القصة؟».

- «أرى أنك لا تعرف والدي».

- «فعلاً لا أعرفه».

نظرت إلى الطريق السريع من خلال النافذة، وإلى الحواجز الواقية من الانزلاق وهي تتوالى بسرعة مدهشة.

- «لمحاسنه عيوبها»، شرحت أليس، «لقد أدرك، لأنه يعرفني جيداً، لأني سأقوم بأي شيء من أجل الانتقام وقتل فوغن بمَحْض يدي. لا أستبعد أن يكون أراد من خلال ذلك أن يجنبني ارتكاب حماقة معيّنة».

- «ومع ذلك، أليس من الأحسن إعادة الاتصال به؟».

- «لا فائدة، لو أن رسالتي وصلته لكان اتصل».

- «هيا، حاولي للمرة الأخيرة، ولن أضايقك بعدها»، دعاها غابرييل مبتسماً محاولاً أن يقنعها.

اتصلت أليس بوالدها مستسلمة.

«لا يمكن الاتصال بألان شافر الآن. اتركوا رسالة بعد سماع الصوت».

- «غريب ألا يتصل بك، ألا تعتقدين ذلك؟».

- «أبي ليس من ذلك النوع من الرجال الذي يتصفح هاتفه كل خمس دقائق. ثم إنه أغرم، بعد التقاعد، بدراسة الكهوف واستكشافها. قد يكون الآن في أحد كهوف إسير أو البريني صحبة أصدقائه من نادي قُدامى الشرطة القضائية».

- «لسنا محظوظين إذن...»، غمغم غابرييل.

ما أن أنهت اتصالها حتى تلقّت أليس مكالمة أخرى.

- «بابا؟».

- «يؤسفني أن لا أكون أباكِ، أنا توماس غريك وقد بعث لي غابرييل برقم هاتفك. هل في إمكاني...».

أعطت الهاتف لغابرييل بعد أن جعلت المكالمة مسموعة من الجميع.

- «توماس؟».

- «تحياتي يا غابي، بعثت لي إليان بالوتييه نتيجة التحليلات التي أجريت على الدم الذي على قطعة القماش. قمت بالتحريات اللازمة، وتوصلت إلى نتيجة».

تبادلا النظرات. أحسا بقلبيهما يخفقان بسرعة.

أشارت أليس إلى لوحة طريق.

- «اسمع يا توماس، هناك محطة للاستراحة على بعد كيلومترين، سأعيد الاتصال بك حال وصولي».

*

ساعة محطة الاستراحة لوغري 91 تشير إلى الرابعة واثنتي عشرة دقيقة. أشعة خريفية تتدفق إلى القاعة شبه الخالية. خلف الكونتوار جلست نادلة، غارقة في الحلم، وتستمع إلى ساكسوفون ستان غيتز.

جلسا إلى طاولة في أقصى القاعة، بعيداً عن الكونتوار والمقصف. وضعا الهاتف مرتفع الصوت على الطاولة وأخذا يستمعان باستغراق إلى صوت توماس غريك الجهوري وهو يمدّهم بمعطيات حول صاحب الدم.

- «الدم لشخص اسمه كالب دون، واحد وأربعون سنة، مسجّل في نظام حفظ المعطيات «كودس» على اعتباره مرتكباً لجرائم خفيفة. قُبض عليه قبل ثماني سنوات في كاليفورنيا بتهمة الإتجار في المخدرات، وعصيان رجال الأمن. قضى بسجن سالناس فالي ست سنوات، ثم تزوج بعد ذلك، ورحل إلى الجهة الشرقية حيث عثر على عمل، ولم يقم بما يخالف القانون حتى الآن».

سجلت أليس بعض المعلومات، سأله غابرييل:

- «وما هو عمله؟».

- «حارس ليلي في دار للمتقاعدين في غنغورد، في نيو هامشير».

- «وهل من المسموح به اليوم تشغيل ذوي السوابق في دور المتقاعدين؟»، تساءل غابرييل مندهشاً.

- «لكل شخص الحقّ في فرصة ثانية، أليس كذلك؟».

كانت أليس تلعب بغطاء القلم الدعاية الذي أعارتها إياه النادلة.

- «هل لديك عنوان منزله؟».

- «نعم، أجاب توماس. إنه يسكن منزلاً في لينكولن، في وايت مونتانز، ما المطلوب مني الآن يا غابْ؟».

- «لا أريد منك شيئاً الآن، ولكن استمر في التحري، سنعود إلى الحديث عن كل هذا بعد قليل، سنصل إلى بوسطن بعد ساعتين».

- «يجب أن تزودني بمزيد من المعلومات، على كل حال. المدير يعتقد أنك في أيرلندا».

- «لا تخبره بأي شيء الآن. سأتصل به بعد قليل. في المناسبة، هل لديك صورة لدون؟».

- «سأبعث لك بها عبر إيميل».

- «مستحيل، فالهاتف شيء متجاوز اليوم».

ألقى غابرييل نظرة على ورقة قائمة المأكولات المقترحة مذيلة بأرقام وسائل الاتصال في المطعم.

- «ابعث لي بها عبر الفاكس».

- «قلت الفاكس؟ هل هو ذلك الشيء الذي كنا نستعمله قبل الإنترنت؟».

- «هو بالذات، اسخر مني كما يحلو لك. أنا الآن موجود في لوغري 91 وهذا هو الرقم. ابعث بالصورة مرفقة بعنوان دار المتقاعدين ومنزل دون».

أملى عليه غابرييل الرقم وأنهى المكالمة. نظر الشرطيان إلى بعضهما في صمت. تحرياتهما إلى الآن لم تقدّمهما نحو أي اتجاه محدد، فالاتجاهات كثيرة جداً. وعلامات الاستفهام كثيرة جداً. وليس ثمّة إلا خيوط قليلة لربط عناصر لا رابط بينها.

خرج غابرييل عن صمته.

- «يا إلهي، لم تفدنا هذه المعلومات الجديدة في التقدم في البحث. كيف وصل دم ذلك الحارس الليلي إلى قميصك؟».

- «أتعتقد أني أطلقت عليه الرصاص؟».

- «غير مستبعد، أخبرتني أن مسدسك تنقصه رصاصة».

زمته أليس بنظرة غاضبة.

- «أتعتقد ذلك فعلاً؟ وما الدافع إذن؟ لم يسبق لي أن عرفت هذا الشخص!».

رفع يديه كي يهدئ من غضبها.

- «أوكيه، إنك على صواب، فأنا لا أعرف أي شيء عن ذلك».

ثم طقطق أصابعه قبل أن يقرر.

- «سأذهب لشراء سجائر، في المحطة متجر صغير، هل ترغبين في شيء؟».

نفت بإشارة من رأسها وأخذت تنظر إليه وهو يبتعد.

أحست من جديد بألم في أسفل معدتها. نهضت ومضت نحو الكونتوار لتخبر النادلة أن فاكساً يخصهما سيصل قريباً.

- «هل أنت بخير، سيدتي؟».

- «نعم، نعم، قليل من ألم المعدة وسيزول».

- «آه، أمي أيضاً تعاني من الألم نفسه، هل ترغبين أن أحضر لك عصير خفيف بالباباي، إنه جد فعال».

إنها فتاة تشبه دمية الباربي.

- «أوافق على العصير، وأشكرك كثيراً»، قالت وهي تجلس على أحد المقاعد. «هل لديك خريطة للمنطقة؟».

- «الزبائن ينسونها فوق الطاولات أحياناً، سأذهب لأرى إن كان في المكتب واحدة».

- «أشكرك على لطفك».

بعد أقل من دقيقتين عادت الباربي حاملة خريطة إقليم نيو إنجلاند. فرشت أليس الخريطة. إنها خريطة عتيقة تعود إلى ما قبل عهد GPS والهواتف الذكية المحمولة والإنترنت، إلى ما قبل عهد المجانين الذي استسلم فيه الناس ليصبحوا عبيداً للتكنولوجيا.

- «هل يمكنني الكتابة عليها؟».

- «نعم، إنها لك الآن: إنها هدية منا، وها هو ذا عصيرك».

شكرتها أليس بابتسامة. لقد أحبت هذه الفتاة: إنها فتاة طيبة فعلاً وعادية، وجذابة. كم هو عمرها: ثمانية عشر؟ تسعة عشر على الأكثر؟ وعمرها هي ثماني وثلاثون سنة، إنها تكبرها بعشرين سنة. صدر الحكم الذي لا مفر منه: إنها في سن أمها، تلك ملاحظة كثيراً ما صارت تعرض لها كلما مرت بها فتيات شابات. إنها تحس بنفسها متأرجحة بين الشعور بأنها ما زالت في العشرين من عمرها من حيث عقلها، بينما جسدها يقول إن عمرها ضعف ذلك.

ملعون هذا الوقت الذي يمضي بسرعة. إنه سيد من لا سيد له... كما يقول المثل العربي.

طردت عنها تلك الأفكار وتفرغت للتركيز على الخريطة. لقد تعودت، حين تشتغل على خريطة، أن تحمل في يدها قلماً. رسمت دائرة حول نيويورك التي غادرتها قبل ساعتين. ثم حول بوسطن حيث مقر مكتب التحقيقات الفدرالي. وها هي الآن في هارتفورد، الواقعة بين نيويورك وبوسطن بالضبط. ثم رسمت دائرة أخرى: أخبرهما غريك أن دون يشتغل في دار للمتقاعدين بكونكورد، في أقصى

الشمال، بمدينة نيوهامشير. إنها بعيدة عن موقعها الآن حوالي 250 كيلومتراً على الأقل. وقد وضّح لهما غريك أيضاً أن دون يسكن في لينكولن. استغرق بحثها عن المكان حوالي دقيقتين قبل أن تعثر على ما كانت تبحث عنه. إنها بلدة محاصرة بجبلين.

- «هل تعرفين هذا المكان؟»، سألت صديقتها الجديدة.

- «نعم، بجانبها محطة للتزلج على الثلج، محطة لون مونتان، سبق لي أن ذهبت إليها رفقة صديقي».

- «وكيف هي؟».

- «كئيبة، بخاصة في فصل الشتاء. ثم إنها بعيدة».

أرغمت حرارة القاعة المرتفعة أليس أن تنزع سترتها لتبقي على القميص فقط.

عاد غابرييل إلى المطعم وفي يده علبة سجائر.

- «هل تريد أن تشرب شيئاً يا سيدي؟».

- «هل لديكم إسبريسو؟».

- «لا، آسفة».

- «ماء بيرييه، إذن؟».

- «لا».

تبرمت أليس.

- «هيا، يا كوين، لا تعقد الأمور».

- «أوكيه، هاتِ قهوة سوداء عادية».

حين انشغلت النادلة بتحضير القهوة، أخذ غابرييل يتفحصها من رجليها إلى رأسها، مركزاً بلا حياء على ذلك العضو المكتنز من جسدها.

- «إياك أن تتحرج!»، قالت أليس غاضبة.

رفع غابرييل بصره نحو السماء. واصلت أليس:

- «إنك لا تختلف عن باقي الرجال فعلاً»، قالت متنهدة.

- «لم أدّعِ عكس ذلك أبداً»، قال وهو يخرج سيجارة من العلبة ويضعها خلف أذنه.

كانت أليس قد جهزت ردّها، لكنها لم تجد الفرصة كي ترميه به.

- «وصل الفاكس»، أخبرتها الباريبي قبل أن تذهب إلى المكتب على الفور.

عادت تحمل ورقتين ضمتهما إلى بعضهما بعناية.

تأملا صورة كالب دون.

- «لا شيء...»، قالت أليس خائبة.

لم يكن في السجل العدلي شيء. ويظهر دون على الصورة إنساناً عادياً: أسمر، متوسط القامة، وجه من دون علامات مميزة، ومظهر كمظهر جُلّ الناس. إنه باختصار كجميع الناس.

- «لا شيء يظهر من خلال الصورة»، سلّم غابرييل، «إنه ككل الناس».

تخلّص الشرطي من خيبته وأدار الورقة واكتشف العناوين التي أضافها توماس غريك بخط يده: عنوان دار المتقاعدين، وعنوان منزل دون.

- «ألا يبدو غريباً أن تشغّل دار للمتقاعدين رجلاً من ذوي السوابق؟».

لم تردّ أليس. ركزت على الصورة محاولة «سبر أغوار» دون.

تجرّع غابرييل جرعة من كأس القهوة، وقمع حركة امتعاض كاد يعبِّر عنها وجهه.

- «هل يمكنني استعمال هاتفك؟ أريد أن اتأكد من شيء».

اتصل بالإرشادات ليحصل على رقم دار المتقاعدين. أفصح لموظفة الاستقبال عن هويته، وطلب التحدث مع مدير المؤسسة. وكالعادة جعل المكالمة مسموعة من الجميع حتى تسمع أليس الحديث.

- «معك خوليوس ماسون، مدير المؤسسة. هل من خدمة؟».

ادَّعى غابرييل أنه يقوم بتحريات عادية ليحصل على معلومات عن دون.

- «أتمنى أن لا يكون وقع شيء لدون»، قال المدير قلقاً.

- «هل حضر إلى عمله مساء أمس؟».

كاد المدير يختنق.

- «كالب دون توقف عن العمل هنا منذ حوالي سنتين!».

- «حقاً؟ لم... لم أكن أعرف».

وجد غابرييل صعوبة في الحفاظ على هدوئه. لم تستطع أليس منع نفسها من الابتسام: حتى مكتب التحقيقات عاجز عن تحديث معلومات ملفاته، ليس البطء والتعقيدات الإدارية حكراً على فرنسا إذن.

عاد غابرييل إلى الحوار غاضباً.

- «هل كنت تعلم أن دون من ذوي السوابق حين وظفته؟».

- «سوابق؟ إنه قام فقط ببيع قليل من المخدرات، ومواجهة الشرطي الذي ألقى القبض عليه بحقيقته، أهذا ما تسميه سوابق! لم يكن دون يستحق السجن بسبب ذلك».

- «أهذا رأيك؟».

- «نعم، وهو رأي الكثيرين أيضاً».

ابتسمت أليس مرة أخرى. لم يكن سهلاً طرح الأسئلة على ذلك الشخص.

- «حين كان دون يشتغل هناك، ألم تلاحظوا يوماً أن سلوكه غير ملائم أو مناسب؟ ألم يكن في سلوكه ما يثير الاستغراب؟».

- «لا، بالعكس، كان كالب شخصاً جاداً جداً وخدوماً جداً. لم يكن العاملون والمقيمون هنا يتعبون من مدحه».

- «لماذا استغنيتم عنه إذن؟».

- «أراد مجلس الإدارة التقليص من نفقات التسيير. ولكي نقتصد بعض الدولارات تم التعاقد مع شركة للحراسة، إنها أقل تكلفة».

- «وهل عثر على عمل آخر؟».

- «طبعاً، وبأقصى سرعة. فقد نصحت مستشفى في ماين كان في حاجة إلى حارس ليلي بتشغيله».

- «وما اسم ذلك المستشفى؟».

- «لكي تقوموا بتحديث معلومات ملفاتكم وتستمروا في مضايقة الناس الشرفاء؟».

- «من فضلك، يا سيد ماسون...».

- «مستشفى سوباغو كوتاج، في كومبرلانغ».

تبادل الشرطيان نظرة مندهشة. إنه المستشفى نفسه الذي كانت تعمل فيه إليزابيث هاردي، الممرضة التي عُثر عليها مقتولة في منزلها قبل عشرة أيام.

*

إنهما شرطيان بكل ما تحمل الكلمة من معنى.
شرطيان إلى أخمص قدميهما.
شرطيان في أعماق أعماقهما.
لذلك لم يحتاجا إلى نقاش طويل كي يتفقا. لن يضيعا الوقت في بوسطن. سيستمران في البحث وحدهما: سيذهبان إلى شمال لينكولن، وسيحققان مع دون بنفسهما.
- «لم أنتبه لهذا الشخص وأنا أجري أبحاثي»، اعترف غابرييل. «لقد قُتِلت إليزابيث هاردي في منزلها. كانت قد عطّلت نظام التحذير في منزلها، ما دفعنا إلى الاعتقاد أنها كانت على معرفة بالقاتل. حققت مع عديد من أقاربها ومعارفها وزملائها في العمل. ذهبت إلى سوباغو كوتاج شخصياً، إلا أن اسم هذا الشخص لم يرد على أي لسان، فأنا متأكد أنه ليس من معارف أو أقارب هاردي».
- «كم سيستغرق وصولنا إلى هناك؟».
نظر إلى الخريطة بإمعان، متتبعاً الطريق إلى لينكولن بإصبعه.
- «أربع ساعات، أو أقل قليلاً إذا لم نحترم السرعة المسموح بها».
- «كل هذا الوقت؟».
- «في إمكاننا استعمال الطريق السريع حتى برادفورد، غير أن علينا بعد ذلك أن نسير وسط الجبال. السيارة سرعتها جيدة إلا أنها قديمة، وتحتاج إلى تغيير زيت المحرك، وتعبئة عجلتها الاحتياطية. قبل الذهاب إلى هناك لا بدّ من المرور على ميكانيكي».
سمعت الباربي كل الحديث الذي دار بينهما، فصرخت:
- «ابن عمي ميكانيكي! سأتصل به إذا شئتما».
رفع غابرييل أحد حاجبيه.

- «وأين نجده؟».

- «في غرينفيلد»، أخبرتهما وهي تعيِّن المدينة على الخريطة.

نظر إلى الخريطة. إنها على بعد أقل من ساعة.

- «هل في إمكانه إصلاح سيارة موستانج قديمة؟».

- «يستحسن الاتصال به لنعرف ذلك»، تدخلت أليس، «اتصلي به».

وافق الشرطي فأخرجت الباربي هاتفها.

في اللحظة التي كانت أليس ترمقه بنظرة متواطئة، أحست مرة أخرى بألم غير معهود في بطنها، كما لو أن الحموضة تمزِّق أحشاءها.

حين أحست بالمذاق الرصاصي في فمها، نزلت من على الكرسي وهرعت صوب المراحيض.

*

أحست أليس برغبة في القيء فمالت على حوض الغسيل. أحست بحرقة في بطنها فمسّدتها على مستوى معدتها دون أن تنجح في تهدئة الألم. ما سبب هذا الألم الحاد؟ الضغط؟ الإثارة التي يسببها التحري والبحث؟ التعب؟

استمرت في تمسيد بطنها دقيقة كاملة ثم انتصبت وغسلت يديها في الحوض. تجنبت النظر إلى صورتها في المرآة إذ لم تكن لديها الرغبة في مشاهدة عينيها المحاطتين بهالة من السواد، ولا ملامحها المتعبة. غسلت وجهها بماء بارد وأسدلت أهدابها لحظة. لماذا استيقظت هذا الصباح وعلى قميصها دم كالب دون؟ ومن هو كالب دون؟ هل هو من أتباع فوغن كي يوظف نفس طريقته لقتل الممرضة؟

أم هو فوغن نفسه؟

لا، إنها ترفض الآن تقبّل هذا الاحتمال. صحيح أن لدى أبيها عيوب لا تحصى، ولكنها ترفض الاعتقاد أنه اخترع كل تلك الكذبة بكل تلك التفاصيل. فوغن مجنون خطير، بل شديد الخطورة، والبحث عنه محفوف بكل المخاطر، منذ سنتين وأشهر تلاحقه شرطة فرنسا بلا هوادة، لكن عبثاً.

وهذا دليل على أن ذلك السفاح قُتِل، حاولت أليس أن تقنع نفسها بذلك.

وسيؤكد سيمور أن جثته مرمية بالفعل في قعر تلك البئر، في أحد تلك البنايات المهجورة البعيدة الكئيبة...

سال قليل من الماء على صدرها.

مسحت بمنشفتين ورقيتين عنقها وبين نهديها! أحست بالخجل فخفضت عينيها.

في تلك اللحظة رأته.

*

إنه جسم غريب عن جسدها، مزروع تحت جلدها، تحت ناحرها بأربع أو خمس سنتمترات. ضغطت أليس على لحمها لتخرج الجسم الغريب.

إنه جسم مستطيل: أكبر قليلاً من حجم شريحة SIM بثلاثة سنتمترات، تظهر حواشيه المدببة كلما نظرَت إلى بشرتها بدقة.

اللعنة، من زرع هذا الشيء تحت جلدي؟ تساءلت مذعورة.

وأخذت تبحث غريزياً عن أثر لعملية جراحية ما أجريت لها. نزعت القميص أمام المرآة، وأخذت تتحسس كل مكان في جسدها: صدرها، تجويف صدرها، إبطيها.

لا أثر لأي جرح حديث، أو عملية جراحية.

علا جبينها العرق: بزغ من بين الأسئلة التي هاجمتها سؤالان على وجه الخصوص:

منذ متى وهذا الشيء مزروع في جسدها؟

والأهم من كل ذلك: ما هي تأثيراته؟

17

خُدع الشيطان

القدرُ يلاحقنا كشيطانٍ مسلح
بشفرة حلاقة.

أندريه تاركوفسكي

غادرت السيارة الطريق السريع، ودخلت أحد الدواوير، ثم غادرته نحو المدينة عند أول مخرج.

تقع غرينفيلد بين حدود ماسوشوستس ونيوهامشير. في الشارع الرئيس من البلدة، وعلى امتداد كيلومترين، تصطف دار البلدية، ومكتب البريد، والمحكمة، وكنيسة كبيرة بيضاء ذات أجراس حادة، والخزانة العمومية، وسينما عتيقة، ومقاهي، ومطاعم، ومتاجر صغيرة تقليدية. وعلى كل واحدة من تلك البنايات يرفرف العلم الأمريكي.

- «توقف هنا»، أمرته أليس وهي تعدّل من وضع مسدسها.

- «هنا؟ ولكن الباربي قالت إن كراج ابن عمها في مخرج المدينة».

- «أريد أن أشتري شيئاً يا كوين».

- «اعتقدت أننا انتهينا من التكتمات...».

- «لن أبقى مكتوفة اليدين في انتظار أن تصلح السيارة! سأبحث عن مقهى إنترنت، لا بدّ أن أتأكد من شيء».

- «وما هو ذلك الشيء؟»، سألها حذِراً.

- «أريد الاطّلاع على مقالات قديمة في الجرائد بخصوص فوغن، سأشرح لك...».

توقفت السيارة عند إشارة حمراء، أخرج غابرييل علبة السجائر.

- «ليس في هذه البلدة مقهى إنترنت».

- «سأعثر على واحدة يا كوين».

أخذ يفكر قليلاً.

- «أوكيه، سأتوقف هنا، لكن اتركي المسدس في السيارة».

لم يرقها ذلك، لكن لا وقت للجدل. صارت الإشارة خضراء. فتحت صندوق السيارة أمامها ووضعت فيه المسدس مع جِرابه.

- «نلتقي في الكاراج»، قالت وهي تفتح باب السيارة.

عبرت الطريق، ومضت على الرصيف حتى سيتي هال. شاهدت أمام البناية خريطة للمدينة. تفحصتها حتى عثرت عما كانت تبحث عنه: عنوان مستشفى في الشارع الثاني.

تتميز المدن الصغرى بتجمع أهم المؤسسات والمصالح الحيوية في محيط واحد، لذلك لم تحتج أليس إلا إلى بضع مئات من الخطوات كي تصل إلى بناية حديثة العهد بالبناء، عصرية.

عبرت الأبواب الأوتوماتيكية كي تصل بهو البناية حيث علّقت عدة لوحات موجِّهة. وهي تتفحصها اكتشفت أن المستشفى الرئيس عبارة عن تجمع من اختصاصات عدة: أطباء عموميون، أطباء

اختصاصيون، مختبرات للتحليل، مختبرات لأجهزة الأشعة الفاحصة...

تقدَّمت أليس نحو الاستقبال مؤكدة أنها أتت لإجراء فحص بالأشعة لصدرها. طلبوا منها بطاقة الموعد، ووصفة الطبيب، ورقم ضمانها الاجتماعي. وبما أنها لم يكن لديها أي شيء من ذلك، فقد أدلت بأول كذبة خطرت لها على البال، مدّعية أنها سائحة فرنسية تعاني من مرضٍ في القلب، وترغب في إجراء فحص روتيني بالأشعة. حدجتها السكرتيرة بنظرة متشككة، وعادت إلى دفتر المواعيد لتقترح عليها موعداً ليوم غد.

- «الأمر عاجل شيئاً ما»، ألحّت أليس. «أريد مقابلة الدكتور المختص كي أشرح له حالتي الخاصة. وسأؤدّي ثمن كل المصاريف طبعاً».

- «سأرى»، قالت السكرتيرة وهي تمسك بسماعة الهاتف.

تفاوضت مع زميلتها دقيقتين، ثم أنهت المكالمة معلنة:

- «اتصلت بسكرتيرة الدكتور ميشيل. سيأتي لملاقاتك بعد الانتهاء من فحص أحد المرضى. هل يمكنني الاطّلاع على بطاقة هويتك؟».

- «للأسف، تركت حقيبتي في السيارة، لكن زوجي سيلتحق بي و...».

- «حسناً، اصعدي حالاً، قاعة الفحص بالأشعة في الطابق الرابع». ضغطت زراً لتفتح باباً أمنياً صغيراً يؤدي إلى الطوابق العليا.

المصعد، فمستقبِلة أخرى، فمعبر، فقاعة انتظار.

القاعة مرتدية ألواناً زاهية وديعة، والجدران بيضاء. جلست

عجوز منحنية الظهر تحت وطأة سنوات عمرها المتقدم، تنتظر وهي تقلّب صفحات مجلة شعبية. وأمامها شاب عريض وكأنه دولاب يملأ جسده جُلَّ الكنبة. كان مجبّس الرجل، مقرّح العين، ويلعب بلعبة إلكترونية.

جلست أليس إلى جانبه وسرعان ما انخرطت في حديث معه.

- «حادثة سير؟».

- «كرة القدم الأمريكية»، أجاب الطالب وهو يرفع بصره عن الشاشة. «لاعبو جامعة ألبانيا كانوا قاسين معي».

وجه وسيم ونظرة كريستالية. لا شكّ أن الفتيات يحلمن بمعاشرته، وبعض الفتيان كذلك.

- «هل لوحتك الإلكترونية تسمح بتصفح الإنترنت؟».

- «نعم».

لم تتردد أليس.

- «هل تحب أن تربح خمسين دولاراً بلا تعب؟».

رفع أحد حاجبيه.

- «كيف؟».

أخرجت من جيبها ورقة نقدية.

- «أعرني إياها خمس دقائق وخذ الخمسين. إنه شيء سهل...».

- «أفعل إذا جعلتيها مئة دولار».

- «اذهب إلى الجحيم».

- «أوكيه، لا تغضبي!»، استسلم الشاب فسلّمها الآيباد.

دخلت أليس إلى موقع لبراسيون ولوموند ولوفيغارو. الغريب في الأمر أن أليس لم تكن تعرف وجه فوغن، لأنه كان أثناء الاعتداء

عليها مرتدياً خوذة سوداء مرعبة. كانت صورته تلك هي ما احتفظت به ذاكرتها إلى الأبد.

فيما بعد، وخلال حصص الاستشفاء، اتفقت أليس مع طبيبها النفساني على أن لا فائدة من العودة دائماً إلى مقالات الجرائد التي تعرضت للحادث والتنقيب فيها. لكن الشيء الذي كان يجهله الطبيب النفساني هو أن أليس كانت متأكدة أن فوغن قد مات.

لم تعد تعتقد ذلك اليوم.

عثرت في الصحف على صور كثيرة للقاتل. صور مختلفة يظهر فيها إريك فوغن بشكل شبه واضح. إنه رجل في الخامسة والثلاثين، أسمر، متناسق البنية، لكن لا يميزه أي شيء عن غيره.

كانت صعوبة التوصل إلى صورة نهائية لفوغن من خلال كل تلك الصور شيئاً محيّراً. شبّهته أليس بأولائك الممثلين السينمائيين الذين هم كالحرباء، إذ لا تستطيع التعرف إليهم بسهولة كلما انتقلوا من دور إلى آخر مختلف في فيلم آخر، لأن لديهم قدرة خارقة على التحول، ومنهم: هيو جاكمان، كرستيان بيل، كيفن سبيسي، جون كوزاك...

سحبت من جيبها الفاكس ومعه صورة كالب دون، وقارنت بينها وبين صور فوغن. هل هما الشخص نفسه؟ لا يبدو ذلك جلياً، إلا أنه ليس أمراً مُستبعداً.

تدرك أليس أن للجراحة التجميلية اليوم قدرة على تغيير الوجوه تكاد تكون لا نهائية. وقد صادف زملاؤها في العمل مؤخراً حالات لجأ خلالها المجرمون إلى هذه النوع من الجراحة لتغيير مظهرهم...

في اللحظة التي كانت تعيد اللوحة إلى صاحبها رنَّ هاتفها في جيبها.

سيمور.

إنه الرجل الذي في إمكانه أن يضع حدّاً لهذا الحلم المزعج.

*

- «اقتربت من الوصول إلى المعمل؟»، سألته من دون مقدمات.

- «ليس بعد، غادرت لتوي ساريغومن، حركة السير في باريس جهنمية. وجد كاستلي صعوبة في التعرف إلى موقع معمل السكر المهجور».

- «وأين يوجد؟».

- «المكان يُعرف باسم طريق كاستلسهايم المسدود، استعملت الـ GPS لكن من دون نتيجة. لا تقلقي سأنتهي بالوصول إليه. المشكلة هي هذا المطر اللعين. إنه من الغزارة بحيث يستحيل أن تري شيئاً على بعد ثلاثة أمتار».

- «اتصلت بك من أجل شيء آخر»، واصل سيمور. «لقد اضطررت إلى أن أطلِع سافنيون وكاستلي على ما حدث. لم يكن ممكناً أن أطلب منهما المساعدة خارج قانون العمل دون أن أطلعهما على ذلك. سيمضيان الليل في المكتب للبحث في الإمكانيات والاحتمالات والطرق التي من شأنها أن تفيدنا في التحريات».

- «أشكرهما بالنيابة عني».

- «اتصل بي سافنيون قبل قليل بخصوص رقم المسدس الغلوك 22 الذي بعثت لي به هذا الصباح».

بَلعت ريقها. كانت قد نسيت البحث في هذا الاتجاه تماماً.

- «نعم، ذاك الذي وجدته في جيب سترتي، والنتيجة؟».

- «عدت إلى ملف الأسلحة المسروقة، لكن لم أعثر على

شيء. في المقابل، تذكّر سافنيون حين حدثته عن فوغن على الفور أنهم وجدوا في شقة القاتل مسدساً بعد سنتين من الاعتداء عليك».

- «وبعد؟».

- «عاد سافنيون إلى ملف الإجراءات: إنه المسدس نفسه الذي عُثر عليه في شقة فوغن، غلوك 22، والرقم مطابق».

- «مستحيل. المسدس ضمن المحجوزات».

- «قضى سافنيون ساعة كاملة يبحث عنه في المحجوزات، لم يعثر عليه».

اللعنة.

ويستمر الكابوس.

- «صارحيني يا أليس، هل أخذت المسدس من المحجوزات؟».

- «كيف تطرح عليّ سؤالاً كهذا يا سيمور؟».

- «لأننا في ورطة حقيقية الآن».

- «إنها ليست المرة الأولى التي تحدث فيها مشاكل فيما يتعلق بالمحجوزات. هل تتذكر قضية ذلك الحارس الذي كان يلجأ إلى قاعة المحجوزات فيبيع الأسلحة المحجوزة والكوكايين؟ ربما يكون وراء قضية الغلوك 22 أيضاً».

- «نعم، نعم...».

- «لنفترض أني سرقت هذا المسدس، فكيف استطعت أن أدخله الأراضي الأمريكية، أن أعبر به عبر حواجز التفتيش والأمن والهجرة؟».

سمعت زميلها يتنهد.

- «أريد أن أصدقك حقاً يا أليس، لكن ينبغي أن نوضّح الأمور».

أحست أنه لم يكشف لها عن كل ما لديه من معلومات.

- «هل لديك معلومات أخرى؟».

- «نعم، معلومات لن تعجبك، إنها بخصوص سيارتك».

- «عرفت مكانها؟».

- «نعم، إنها في محشر السيارات بشارلتي. بحث سافنيون في الأمر فوجد أن رجال الولاية أحضروها الليلة من جزيرة لا سيتي».

- «من أين بالضبط؟».

تنفّس سيمور بعمق.

- «وجدوا سيارتك في الرابعة صباحاً وسط قنطرة لارشوفيشي. في المكان نفسه الذي وقعت فيه حادثة بول».

كادت أن تسقط الهاتف من يدها بفعل المفاجأة.

في تلك اللحظة نفسها، فُتح باب غرفة الانتظار، وأطلّ رأس عملاق يرتدي وزرة بيضاء من شق الباب.

- «الآنسة أليس شافر؟»، سأل العملاق المنتظرين.

18

اللكمة

Omne ignotum pro terribili.

ما من خطر مجهول إلا وهو مخيف.

مَثَل لاتيني

كان الدكتور أوليفر ميشيل طويل القامة، حليق الرأس، كثيف شعر الحاجبين. ورغم قامته المثيرة للانتباه وانتصابته الغريبة، فإنه يشبه تلميذاً بالكاد تخرّج من الجامعة، إذ كان وجهه الدائري يشع بابتسامة طفولية، ويكتفي من اللباس بجينز وحذاء رياضي قديم وقميص.

– «لم أفهم جيداً نوع مرض القلب الذي تعانين منه»، أعلن وهو يفسح لها لتدخل قاعة الأشعة الفاحصة.

قررت أليس أن تصارحه.

– «كذبت لأصل إليك».

– «هذا كل ما في الأمر! يا له من شيء فريد... وجَريء. أنت فرنسية، أليس كذلك؟».

خمّن وقد تعرف إلى لكنتها.

– «نعم، أنا كابتن في شرطة محاربة الجرائم بباريس».

- «حقاً؟ في المقر 36، رصيف الأرفيفر، كما جِيلْ مِغْريه؟».

استغربت أليس متسائلة عن تلك المعجزة التي جعلت بطل الكاتب سيمنون يجري على لسان دكتور متخصص في الفحص بالأشعة معجب بموسيقى الروك في مستشفى غرينفيلد بالماسوشوستس؟

- «زوجتي تحضّر رسالة دكتوراه في الأدب الفرنسي بجامعة هارفارد، موضوعها: صورة باريس في روايات سيمنون».

- «هذا ما يفسر إذن معرفتك بسيمنون».

- «ذهبنا معاً إلى رصيف الأرفيفر الصيف الماضي، آه، يا لجمال رصيف الأرفيفر ويا للذة الأطعمة الباريسية!».

هل أنا في حلم أم في علم!

قررت أليس أن تستغل الموقف.

- «إذا وافقت ففي إمكاني أن أرافقكما في زيارة لمقرنا، عند زيارتكما المقبلة».

- «أشكرك على هذا اللطف، إنها...».

- «في انتظار ذلك، يجب أن تساعدني». قاطعته وهي تزيل سترتها، وقميصها، ولم تبقي إلا على حمالة صدرها.

اقتربت من الطبيب كي تريه الجهاز تحت جلدها.

- «ما هذا؟»، قال وحاجباه الكثان يطرفان.

- «هذا بالضبط ما أريد أن أعرفه».

غسل يديه بمحلول من المضادات الحيوية، وفحص أعلى صدرها، وأخذ يُخرج، بواسطة تدليك الجلد، المستطيل المدبب.

- «هل يؤلمك ما أفعله؟».

- «لا، إطلاقاً».

- «وكأنها آلة منظِّمة لدقات القلب. هل تعانين من مشكلة في القلب؟».

- «لا، ولا أعرف حتى من زرع هذا الشيء في جسدي، ولا متى زُرع».

أشار إليها الدكتور أن تتوجه نحو جهاز الأشعة الفاحصة دون أن يبدو عليه الاندهاش.

- «الأشعة ضرورية كي يتضح الأمر».

وافقت أليس متّبعة تعاليم الدكتور، فعرّت صدرها ووقفت أمام الجهاز.

- «اقتربي أكثر، استنشقي الهواء بعمق، توقفي عن التنفس، نعم هكذا».

التقطت آلة الأشعة السينية الصورة في أقل من ثانيتين.

- «تنفّسي بشكل عادي الآن، سألتقط صورة جانبية من باب الاحتياط».

عاود الكرّة، ثم دعا أليس أن تتبعه إلى غرفة مجاورة. جلس خلف آلة إلقاء الأضواء الكاشفة على صور الأشعة.

- «هل يتطلب ذلك وقتاً طويلاً؟»، سألته.

- «لا، تظهر النتيجة في الحال».

عرض الصورتين على الأضواء الكاشفة، وأخذ يعدّل من مستوى أشعتها.

- «لم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا!»، قال وهو يصفّر ويشير إلى نقطة بيضاء مستطيلة.

- «هل هي آلة مصغّرة؟»، حاولت أن تعرف.

- «لا أعرف نوعها»، قال الدكتور وهو يحك رأسه.

- «قد تكون آلة مصغَّرة لتعقب تنقلات الأشخاص»، قالت الشرطية، «شبيهة بتلك التي تستعمل لتعقب تنقلات الحيوانات. حضرت محاضرة في الموضوع في إطار عَمَلِي السنة الماضية: يبدو أن بعض الأشخاص الأغنياء في أمريكا الجنوبية يلجؤون إلى زرعها في أجسادهم حتى يسهل تعقب أثرهم إذا اختُطِفوا».

- «الجيش هو الآخر أصبح يلجأ إلى ذلك بالنسبة إلى الجنود الذين يُبعَثون إلى جبهات القتال»، قال ميشيل دون أن يرفع عينيه عن الآلة الكاشفة، «فيقوم الجهاز بتخزين كل المعطيات المتعلقة بصحتهم الجسدية. وفي حالة مرض مفاجئ يكون من الممكن الولوج إلى ملف المريض بواسطة سكانر. إنها طريقة في طريقها إلى أن تصبح عادية، غير أن ذلك النوع من الآلات صغير جداً لا يتعدى حجمها حجم حبة أرز، في حين أن آلتك هذه حجمها أكبر».

- «ما هي هذه الآلة إذن؟».

حاول الطبيب تذكّر كل معلوماته.

- «كثُر الحديث في السنوات الأخيرة على صفحات المجلات الطبية عن أبحاث تُجرى حالياً لاختراع آلات إلكترونية صغيرة قادرة على أن تمدّ المريض بجرعات الدواء التي يحتاجها بشكل أوتوماتيكي ومنظَّم، وهو أمر مهم فيما يتعلق بأمراض عدة، بل إنه بدأ العمل بتلك التقنية فيما يخص مرض العظام، لكن الآلة في هذه الحالة تزرع في الفخذ، وهي أكبر حجماً من هذه بكثير».

- «إذن؟»، تساءلت أليس فاقدة صبرها.

- «ما زلت مصراً على فكرتي، إنها منظِّمة لنبضات القلب».

- «سبق وقلت لك أني لا أعاني من اضطراب في النبضات!»، قالت غاضبة.

- «شكل آلتك هذه غير مألوف، إلا أنني أكاد أكون متأكداً أنها مصنوعة من التيتانيوم»، أكّد الدكتور.

اقتربت أليس من آلة تفحص الصور.

- «حسناً، لنفترض إنها آلة منظِّمة للنبضات، أعرف زميلاً زرعت له آلة مثلها، فهو مجبر على أن يذهب كل سبع سنوات إلى المستشفى لإجراء عملية تغيير بطارية الآلة...».

- «نعم، إنها عملية يجب القيام بها كل سبع إلى عشر سنوات».

أشارت أليس إلى الصورة.

- «وكيف توضع بطاريات داخل حجم صغير كهذا؟».

قال الدكتور وهو يفكر:

- «آلتك لا بطارية لها، دون شكّ».

- «وكيف تعمل إذن؟».

- «بتسيير ذاتي، بواسطة ملتقِط آلي يحوِّل حركات صدرك إلى طاقة حرارية. إنه الطريق الذي يسلكه الباحثون حالياً للتقليص من حجم الآلة المنظِّمة للنبضات».

أشار ميشيل إلى مكان على الصورة بمسطرة بلاستيكية التقطها من على المكتب.

- «هل ترين هذا الرأس المدبب؟».

هزت أليس رأسها.

- «أعتقد أنها آلة لربط المنظِّمة بقلبك عبر مِسبار».

- «وأين المِسبار؟»، سألته الشرطية.

- «غير موجود، وهذا هو الشيء المحيّر».

- «إذن، الآلة موصولة إلى ماذا؟».

- «إلى لا شيء»، اعترف الطبيب، «فهي إذن لا تستطيع أن تبعث بدفقاتٍ حرارية».

سألته أليس متشككة.

- «هل تستطيع إزالتها؟».

- «أحد زملائي يستطيع ذلك، إلا أن ذلك يتطلب إجراء عملية، بالإضافة إلى بعض التحاليل».

بدأ عقل أليس يعمل بسرعة خارقة.

- «لدي سؤال أخير: بحثت في عنقي وصدري وإبطي ولم أعثر على أي جرح، فكيف تمكنوا إذن من زرع هذا الشيء في جسدي دون أن يتركوا أي أثر؟».

عضَّ ميشيل على شفته.

- «إما أنها في جسدك منذ مدة طويلة...».

- «مستحيل. كنت سأنتبه إلى ذلك»، قاطعته.

- «أو زرعوها في جسدك عبر عضو آخر».

شرعت أليس تتعرى أمام نظرة الدكتور المندهشة. رأت في أعلى فخذها ضمادة شفافة، فأخذ قلبها ينبض بشدة. أزالت الضمادة فرأت جرحاً لا يكاد يُرى.

- «من هنا زرعت»، خمّن الطبيب وهو يقترب من الجرح. «الآلة من الصغر بحيث أنه كان في إمكانهم تصعيدها من الفخذ بواسطة مِسبار».

ارتدت أليس ثيابها قلقة. لم تعد هذه القضية محيّرة ومرعبة وسُريالية فقط، وإنما صارت قضية شيطانية بشكل واضح.

- «باختصار، أنا أحمل في جسدي آلة منظّمة للنبضات من دون

بطارية وبلا مِسبار موصل، فهي إذن لا تلعب أي دور بالنسبة إلى أي عضو في جسدي».

- «أعترف أنه شيء غير مفهوم»، قال ميشيل معتذراً.
- «وما هو دورها في هذه الحالة؟».
- «إنه السؤال نفسه الذي أطرحه على نفسي»، قال الدكتور مستسلماً.

19

مع الأحياء

من قلب مكسور
ما من قلب يتقرب
إن هو لم ينعم
بنعمة القلوب التي تعذبت

إيملي ديكنسون

حلَّ المساء بطيئاً.

وفي انتظار أن يحل الليل كانت أشعة الشمس تتدفق باقتصاد. مَلأ غابرييل خزان البنزين عن آخره في غرينفيلد، وراقب مستوى زيت المحرِّك، وعثر على عجلة احتياطية جديدة. عندما التحقت به أليس أطلعته على آخر الأخبار التي توصلت إليها من سيمور المتعلقة بالمسدس وسيارتها، لكن غريزتها أوحت إليها أن لا تحدّثه عن ذلك الشيء المزروع تحت جلدها. فضّلت أن تنتظر ريثما تتوضح الأمور أكثر لتطلعه على ذلك المُعطى الذي لا يصدق.

مضيا في الطريق، ولكنهما حين وصلا إلى برتلبورو صادفا شاحنة بنزين منقلبة على حافة الطريق. كان البنزين قد تدفق في كل مكان، وأرغم رجال المطافئ والشرطة على إغلاق الطريق 91، وإخلاء محيطها احتياطاً وتجنباً للحريق.

انخفضت سرعة السيارة لأنها اضطرت أن تترك الطرق الرئيسية نحو الطرق الثانوية. وإذا كان الشرطيان قد غضبا أول الأمر وثارا ضدّ ذلك الحظ العثر، فإنهما ما لبثا أن هدآ تحت تأثير هدوء المكان الذي كانا يعبُرانه. كانا يستمعان في الراديو إلى قناة إذاعية محلية تذيع الأغنيات الشهيرة تباعاً: «أميركان باي» لدون ماكلين، «لهذا اليوم فقط»[1] لجورج هاريسون، «قلب من ذهب»[2] لنيل يونغ... وتوقفا على جانب الطريق في مكان اشتريا منه عصير الفاكهة عند بائع محلي.

ونسيا قضيتهما والتحقيق حول القضية ساعة كاملة.

كانت المناظر الجبلية من حولهما خلابة، تؤثثها مسالك عديدة وقناطر وعيون ماء. وفي الجوار تمضي الطريق وحولها قرى جميلة، وعزب، ومراعٍ مَلأى بالأبقار.

استسلمت أليس لهدهدة السيارة لحظات طويلة. كانت المناظر قد ذكرتها بتلك العطل التي كانت تقضيها في نورماندي في أول شبابها. توقف الزمن. كانا كلما عبرا بقرية شعرا وكأنهما عادا إلى الوراء مئة سنة.

*

لكن سحر تلك اللحظات سرعان ما تبدد حين فتحت أليس صندوق السيارة أمامها لتخرج المسدس. خلال سنوات خدمتها الأولى كانت أليس تسخر من زملائها الذين يتأبطون مسدساتهم حتى خارج أوقات العمل. لكنها صارت مثلهم مع مرور الأيام: صارت

---

(1) Just for today.

(2) Heart of gold.

في حاجة إلى الإحساس بالمسدس عند صدرها، لتكون مطمئنّة كل الاطمئنان، ومنسجمة مع نفسها كل الانسجام.

كان المسدس لا يزال حيث تركته، قابعاً في جِرابه الجلدي، إلا أن لعبة أطفال كانت تقبع بجانبه: إنها سيارة حديدية بلون القهوة المخلوطة بالحليب مع خطين أزرقين، عبارة عن صورة مطابقة للأصل لسيارة الموستانج شِلبي التي يركبانها الآن.

- «ما هذا؟».

ألقى غابرييل نظرة على اللعبة.

- «أعتقد أنها لعبة أعجبت كيني».

- «لم تكن هنا من قبل».

هز غابرييل كتفيه.

- «ربما لم تنظري داخل الصندوق جيداً».

- «أنا متأكدة أن الصندوق كان فارغاً عندما وضعت المسدس».

- «وما أهمية ذلك؟»، قال متبرماً.

- «ألم نتفق على أن نتصارح؟».

تنهّد كوين.

- «أوكيه، لقد أهداني إياها ابن عم الباربي، إنه شخص طيب، ومن هواة جمع السيارات الصغيرة المصنوعة من طرف شركة هوت ويلز. يملك منها ثلاثمئة على الأقل. أليس هذا جنوناً؟».

- «نعم، إنه الجنون بعينه...»، كررت وهي تنظر إليه بإلحاح.

أبدى غابرييل عن امتعاضه بأن رفع صوته:

- «ماذا هناك؟ بدا لهذا الشخص أن يسعدني فأهداني هذه

السيارة الصغيرة. ولا أعتقد أننا في حاجة أن نتناقش حول شيء كهذا طوال المساء».

ثارت أليس.

- «توقف عن معاملتي كغبية! أتحاول أن تقنعني أنكما، أنت وذلك الملطخ، ارتحتما إلى بعضكما إلى درجة أنه أهداك سيارة من مجموعته؟ انظر إلى ثمنها على العلبة».

تفحّصها غابرييل غاضباً، حانقاً، قبل أن يسحب السيجارة من خلف أذنه ويشعلها. سحب منها سحبات عدة نفثها داخل السيارة. أنزلت أليس الزجاج متبرمة. استمرت تنظر إليه متفحصة عينيه، وقسماته التي غيّرها الغضب، متمنية أن تمسك بحقيقة ما، أن تكشف سراً ما.

ثم فرضت الحقيقة نفسها فجأة.

- «الديك ابن، أليس كذلك»، قالت وكأنها تكلّم نفسها.

انكمش. ساد الصمت. ألحّت.

- «اشتريت هذه اللعبة من أجله».

التفت نحوها. كانت نظرته السوداء تشع كالبترول. أدركت أليس أنها دخلت منطقة ملغومة.

- «صحيح، اعترف وهو يسحب نفساً من سيجارته، لدي طفل صغير. وأردت أن أهديه شيئاً. هل هذا ممنوع؟».

دفع الحياء أليس أن تمسك عن الاستمرار شاعرة بعدم الارتياح، وبتوقف رغبتها في مواصلة الحديث. ورغم ذلك سألته بصوت هادئ:

- «ما اسمه؟».

رفع غابرييل صوت الراديو وهزَّ برأسه. لم يتوقع مثل هذا الانحشار المفاجئ في حياته الشخصية.

- «أعتقد أن لدينا مشاكل أخرى يجب أن نعالجها يا شافر...».

علا وجهه قناع معتم، وطرفت عيناه مرات عدة قبل أن يقول:

- «اسمه تيّو. عمره ست سنوات».

فهمت أليس من خلال نبرته أن الموضوع مؤلم.

خفضت صوت الراديو متأثرة وحاولت أن تحدثه حديثاً مهدئاً.

- «إنها سيارة صغيرة جميلة»، قالت مشيرة إلى السيارة الشِلبي، «وأعتقد أنها ستفرحه».

نزع غابرييل السيارة من يدها بلا مراعاة ورمى بها خارج السيارة.

- «لن تنفع في شيء، فأنا على كل حال لا أراه أبداً».

- «لا، يا غابرييل».

وأمسكت بمقود السيارة حتى ترغمه على التوقف. ضغط الفرامل فجأة خارجاً عن طوعه، وانحرف بالسيارة إلى جانب الطريق، ثم قفز خارجها غاضباً، وابتعد.

نظرت إليه أليس في مرآة السيارة وهو يبتعد. كانا قد توقفا في طريق ضيق جميل المناظر، يؤدّي إلى النهر. رأت غابرييل يجلس على صخرة على الحافة. أنهَى سيجارته فأشعل أخرى على الفور. خرجت أليس من السيارة، والتقطت السيارة الصغيرة، ثم اقتربت من غابرييل.

- «آسفة»، قالت حين التحقت به حيث يجلس.

- «ابتعدي عن هذا المكان، إنه خطير».

- «إذا كان خطيراً علي، فهو خطير عليك أنت أيضاً».

انحنت إلى الأمام فشاهدت بحيرةً في الأسفل. كانت ألوان الخريف العابرة تنعكس على صفحة مائها بقوة.

- «لماذا لا تراه أكثر؟».

- «يعيش مع أمه في لندن. إنها قصة طويلة».

أخذت منه سيجارة وجدت صعوبة في إشعالها بسبب الريح. أعطاها سيجارته وشرع يبوح لها بما في قلبه حين لم تتوقع منه ذلك.

- «لم أكن أعمل في مكتب التحقيقات الفدرالي أول الأمر. قبل أن أنجح في مباراة الالتحاق بمكتب التحقيقات كنت شرطياً عادياً، في شيكاغو».

أغلق عينيه قليلاً تاركاً للذكريات أن تتدفق.

- «هناك ولدت، وهناك التقيت بزوجتي: نشأنا في حي أوكرانيا فلاج، وهو حي المهاجرين من أوروبا الشرقية. حي هادئ يقع شمال غرب اللوب».

- «هل كنت تعمل في فرقة محاربة الجرائم؟».

- «نعم، ولكن في تلك التي في الأحياء الجنوبية الأكثر عرضة للجرائم: أونغلوود، نيوسيتي...».

سحب نفساً عميقاً قبل أن يواصل.

- «إنها أحياء مَوبوءة تكتسحها العصابات المنظَّمة، أحياء تواجه الخوف واليأس وحدها، حيث الشرطة لا تستطيع أن تفعل الشيء الكثير. أحياء بأكملها واقعة في قبضة أنذال يظنون أنفسهم «سكار فيس» وينشرون الرعب مستعملين الأسلحة الرشاشة».

عاد إلى ذاكرته، إلى ماضٍ غير بعيد. ماضٍ لا يريد أن يعود إليه، ولكنه وجد نفسه يعود إليه الآن رغم أنفه.

- «ألا يخطر في بالك أحياناً أننا نحن الشرطة نعمل من أجل الأموات؟ حين نفكر جيداً ندرك أنهم زبائننا. وإليهم نقدِّم الحساب عما أنجزنا من أجلهم. ويقضون مضاجعنا حين لا نعثر على قاتليهم. هذا ما كانت تعيبه عليّ زوجتي في كثير من الأحيان. «إنك تقضي أغلب أوقاتك مع الأموات، ولا تكاد تعيش مع الأحياء». لم تكن مخطئة في الحقيقة...».

قاطعته قبل أن ينهي كلامه.

- «غير صحيح! بالعكس، فنحن نعمل من أجل عائلاتهم، من أجل كل من يحبونهم. نقوم بذلك من أجل العدالة، من أجل أن لا يعود المجرمون إلى ارتكاب جرائم أخرى!».

صدرت عنه حركة متشككة وواصل حديثه:

- «في أحد الأيام، قررت أن أساعد الأحياء. في أونغلوود كنت على اتصال يومي بأعضاء إحدى الجمعيات المدنية. ناس من أبناء الحي، من مختلف المشارب، وأغلبهم من ذوي السوابق، تظافرت جهودهم ليقوموا بما عجزنا نحن ممثلي القانون عن القيام به: تسيير الأمور وتيسيرها، تجنب الصراعات، تهدئة التصعيدات، والأهم من كل ذلك إنقاذ من يمكن إنقاذهم».

- «إنقاذ الشباب؟».

- «بخاصة أولائك الفتيان والفتيات الذين لم يتحولوا بعد إلى مدمنين على الكوكايين. لم يكن المتطوعون يترددون أمام خرق القانون. ساعدتهم مراراً على إنقاذ عاهرات شابات من بنات الحي، وذلك بإبعادهن عن المحيط الذي يمارسن فيه الدعارة، ومنحهن حياة جديدة. كنت أساعدهن على الحصول على هويات مزورة،

وأمنحهن قليلاً من المال من ذاك الذي يتم حجزه خلال عمليات القبض على تجار المخدرات، وتذاكر القطار المتوجه غرباً، وعناوين سكن مؤقت، ووعوداً بالعمل...».

مثل بول... فكرت أليس من دون إرادة منها.

كانت ألوان الغابة تنعكس على عيني غابرييل فتمنح نظرته زخماً مُقلقاً.

- «لأني كنت واثقاً أني أفعل خيراً، لم أنتبه إلى حجم ما كنت أواجهه. كنت قد قررت أن لا أعبأ بالإنذارات والتهديدات التي أتلقاها. كان عليّ أن أحملها محمل جد لأن المتاجرين بالعاهرات وأباطرة المخدرات لا يرحمون عندما تمسُّ مصالحهم، عندما تمسُّ أدوات عملهم».

واصل حديثه ملتزماً الصمت بين الفينة والأخرى.

- «في يناير 2009 عزمت أخت زوجتي الذهاب رفقة صديقاتها إلى إحدى محطات التزحلق على الثلج في نهاية الأسبوع للاحتفال بعيد ميلادها. طلبت منا أن نقرضها سيارتنا رباعية الدفع، فوافقنا. إلى اليوم ما زلت أرى نفسي وأنا واقف خلف الواجهة الزجاجية في المنزل ألوح لها بيدي: «كوني حذرة يا جوهانا! لا تغامري في أماكن التزحلق الخطرة!». ليلتها كانت ترتدي قبعة صوفية ذات شُرّابة. وكانت وجنتاها ورديتين بفعل البرد. كانت في الثامنة عشرة. مليئة بالحياة. جلست خلف المقود، شغلت المحرك و... انفجرت السيارة أمام أعيننا تماماً. لم يتردد أوغاد أونغلوود في تلغيم سيارتي...».

توقف لحظة ريثما يشعل سيجارة من عقب السيجارة السابقة، وواصل:

- «في اليوم التالي، بعد الدفن، هجرت زوجتي المنزل صحبة ابني. واستقرت في لندن حيث يعيش بعض أفراد عائلتها. ثم تسارعت الأحداث بعد ذلك: طلبت الطلاق وانبرت علي الكلاب المسعورة التي استأجرتها لمهاجمتي والدفاع عنها. اتهموني بممارسة العنف ضدها، وبالإدمان على الكحول، وبمعاشرة العاهرات. وأتوا بشهود مزورين وقدّموا للمحكمة رسائل SMS منتزعة من سياقها الحقيقي. لم أعرف كيف أدافع عن نفسي. حكمت المحكمة لصالحها، فكان لها حقّ الاحتفاظ بتيّو لوحدها».

سحب نفساً من سيجارته ثم معسها على الصخرة.

- «لم يكن لي الحقّ في زيارة ابني إلا مرتين في السنة. لكني لم أصبر فذهبت في أحد الأيام لملاقاة زوجتي. حاولت أن أعيدها إلى طريق الصواب لكنها رفضت. انبرى علي محاموها مرة أخرى فحصلوا على حكم بالإبعاد النهائي، فأنا حالياً ممنوع من زيارة تيّو».

عبَّرت نظرته عن الاستسلام. حلَّ الليل. صار البرد قارساً. في اللحظة التي وضعت يدها على ساعده رنَّ الهاتف مهشماً لحظتهما الحميمية.

تبادلا نظرة مدركين أن باب البوح الحميمي على وشك أن ينغلق.

واستقبلت المكالمة.

*

- «نعم يا سيمور؟»، أجابت وهي تلمس الشاشة لتجعل المكالمة مسموعة بصوت عالٍ.

- «عثرت على معمل السكر. اللعنة، إنه مكان مثير للجنون،

معزول تماماً. أهو المكان نفسه الذي قاموا فيه بتصوير فيلم «موت شرير»[1]؟.

- «صِف لي ما تشاهده».

- «إنه يشبه غرفة الانتظار في جهنم».

- «لا تبالغ».

- «المطر غزير وليس معي مظلة».

- «لا يهم يا سيمور! هل حملت المصباح والكماشة».

- «نعم، إنهما في حقيبتي».

- «المعمل مغلق منذ أزيد من ثلاثين سنة، بحسب ما قال كاستلي. أنا الآن في البناء الرئيسي، يكاد أن ينهار. الصدأ يعلو كل شيء. والحشائش تصل حتى منتصف قامتي».

أغلقت أليس عينيها كي تتذكر معالم المكان كما وصفها والدها بالضبط.

- «حسناً، اخرج من الخلف وابحث عن بناية التخزين، إنها تشبه الهُري».

مضت بضع ثوانٍ قبل أن يعود سيمور إلى الكلام.

- «أوكيه، أمامي الآن مخزن عالٍ وضيق، وسط اللبلاب. إنه كقضيب العملاق الأخضر!».

لم تعبأ أليس بالدعابة.

- «ابتعد عن المخزن وابحث خلفه عن ثلاث آبار من حجر».

انتظار جديد.

- «وجدتها، إنها مسيّجة».

---

(1) Evil dead.

أحست أليس بنبضات قلبها تتسارع.

- «ابدأ بالبئر الوسطى. ارفع السياج».

- «انتظري، سأضع العُدّة... حسناً، بالإضافة إلى السياج ثمّة غطاء حديدي».

- «هل تستطيع إزالته؟».

- «اللعنة، ما أثقله! إنه يزن طناً على الأقل. حسناً، لقد أزلته».

تنفست الشرطية بعمق.

- «ماذا ترى في قعر البئر؟».

- «لا شيء...».

- «اللعنة، استعمل المصباح».

- «هذا ما فعلته يا أليس، لا شيء في البئر».

- «تأكد أكثر»، طلبت منه فاقدة صبرها.

مرت ثوانٍ قليلة قبل أن يؤكد سيمور.

- «البئر فارغ وجاف تماماً».

اللعنة، لا أصدق ما أسمع.

- «من كنت تتوقعين أن أجد في البئر؟»، واصل سيمور.

أمسكت أليس رأسها بين يديها.

- «جثة فوغن».

- «هل تهذين!».

- «انظر في قعر البئرين الآخرين!»، أمرته.

- «الأسيجة حولهما صدئة وملحومة، لم تلمسها يد منذ دهر!».

- «اكسر الأسيجة بالكماشة».

- «لا يا أليس، لن أكسر شيئاً، لقد تعبت من ترهاتك. ساعود الى باريس».

عجزها وبُعدها عن ذلك المعمل بما يزيد على ستة آلاف كيلومتر جعلاها تشعر بالغضب. إنها متأكدة أن سيمور أخطأ وأن الجثة موجودة في ذلك المعمل.

كانت على وشك أن تنهي المكالمة حين سمعت على الجهة الأخرى من خطّ الاتصال غمغمة وشتماً كثيراً مزقا طبلة أذنها.

- «ماذا هناك يا سيمور؟»، سألته قلقة.

صمت. تبادلت نظرة مع غابرييل الذي وإن لم يفهم كل ما دار بين الفرنسيين من كلام، فإنه أحس بتعقد الأمور.

- «ماذا حدث يا سيمور؟»، صرخت في الهاتف.

تواصل صمت سمعا خلاله طقطقات حديدية متتالية. قال سيمور أخيراً:

- «اللعنة، كنت على صواب. ثمّة... ثمّة جثة!».

أغلقت أليس عينيها وكأنها تريد أن تشكر السماء.

- «ولكنها ليست في البئر!»، أردف الشرطي.

ليست في البئر؟

- «ثمّة جثة داخل جرافة قديمة!».

سألته أليس ممتقعة اللون.

- «هل هي جثة فوغن؟».

- «لا، جثة امرأة شابة! إنها مقيدة ومكمّمة... انتظري... بجوارب نسائية نايلونية. اللعنة، لقد خُنقت بجوارب نايلونية».

حاولت أليس الاحتفاظ بهدوئها.

- «ما هي درجة تحلل الجثة؟».

- «الظلام لا يسمح بالرؤية الواضحة... رأيي أنها قتلت قبل أيام قليلة».

ارتسم القلق على وجه غابرييل.

- «هل في إمكانك أن تشرحي لي ما يحصل؟».

لخّصت أليس الوضع بالإنكليزية على عجل. وعلى الفور انفلت سؤال من بين شفتي الشرطي الفدرالي:

- «اسأليه عن لون الجوارب، كانت إليزابيث هاردي ترتدي يوم مقتلها، بحسب الشهود، جوارب نايلونية وردية اللون».

- «ما هو لون الجوارب يا سيمور؟».

- «من الصعب الجزم، فالظلام حالك... سأضطر إلى إنهاء المكالمة يا أليس، يجب أن أتصل بالشرطة».

- «انتظر يا سيمور! أريد أن أعرف لون الجوارب، من فضلك!»، صرخت أليس.

- «حمراء، على ما أظن... لا بل هي وردية على الأرجح»، قال متردداً قبل أن ينهي المكالمة.

تبادلا النظر مندهشين.

ويستمر الكابوس المزعج.

20

في المنزل

يبحثُ الناس عن الضوء في حديقة هشّة
ترتعش فيها الألوان.

جان تارديوه

يلوح في الأفق قمر أزرق يتحدى الغيوم.

البرد صقيعي.

وجهاز التدفئة في سيارة الشِلبي لا يصدر إلا ريحاً دافئة قليلاً. فركت أليس يديها لتبعث فيهما الدفء، ثم خبأتهما في كم البلوفر. كانت تنظر في الخريطة التي وضعت فوق ركبتيها. وكان غابرييل يقود السيارة، منحنياً، مُربَدّ الوجه، ممسكاً المقوَد بإحكام. مرّت ثلاث ساعات على مضيهما نحو الشمال. وبعد كل هذه المسافة كشفتِ الشِلبي العتيقة عن عجزها أن توفر لهما الراحة، فالمقاعد منخفضة، وجهاز التدفئة شبه عاطل...

تمضي السيارة في طريق ومنطقة خاليين.

وحولهما كانت الطبيعة تفرض نفسها بكامل جبروتها. وتبدو الغابة سوداء مهدِّدة، رتيبة.

كانت أليس تجتر شريط ما كان سيمور قد كشف عنه، كانت

متعبة، وتعاني من قلّة النوم: لم يمت فوغن إذن، بل عاد إلى نشاطه. قبل عشرة أيام قتل ممرضة، هنا، في نيو إنجلاند، وبعد ذلك بأيام قليلة، عاد إلى فرنسا ليقتل من جديد ويضع الجثة في معمل السكر المهجور.

أليس متأكدة أن فوغن ينفذ جرائمه بمفرده، وأن لقاءها بغابرييل لم يكن بفعل الصدفة. لقد جمع بينهما فوغن كي يدعوهما إلى التنافس وكي يتحداهما. إلا أن هذا المسلسل لا يمكن أن يكون من إخراج شخص واحد. يستحيل، مادياً ومعنوياً، على شخص واحد أن يُسيِّر كل هذا.

حكّت أليس حاجبيها. لم تعد أفكارها واضحة، وعقلها لا يعمل إلا قليلاً.

ومع ذلك، فإن سؤالاً كان يحيرها: لماذا كذب عليها أبوها بخصوص موت فوغن؟

مسّدت كتفيها، ومسحت البخار الذي تجمّع على النافذة. كانت المناظر الكئيبة من حولها تنعكس عليها، فتحس بالخوف. وحده وجود غابرييل إلى جانبها يمنعها من الاستسلام للرعب.

قطعا خمسة عشر كيلومتراً قبل أن يصلا إلى المكان المقصود.

- «وصلنا!»، قالت أليس وهي ترفع عينيها عن الخريطة.

انعطفت السيارة يساراً، ثم مضت في طريق غابوي محاط بأشجار التنّوب. بعد حوالي مئة متر، صار الطريق ضيقاً، كما لو أن الأشجار تكاتفت عنوة كي تصدّ تقدم الدخيلين. مضيا وسط الحشائش. أخذت رؤوس بعض النباتات الحادة تجرح سيارة الموستانج، بينما نباتات أخرى ترتطم بالزجاج والأبواب، ثم صارت الطريق غير مستوية.

وفجأة انبثقت من العدم كتلة معتِمة، فتدحرجت أمام سيارتهما. صرخت أليس وضغط غابرييل الفرامل وأدار المقوَد بكل قوة كي يتجنب حاجزاً. ارتطمت السيارة بجذع شجرة تنّوب فتحطمت إحدى المرايا، والزجاج الخلفي.

صمت. خوف. ثم صوت متألم.

ظبي ضخم. . . اعتقدت أليس وهي تنظر إلى شبح حيوان كبير ذي قرنين ضخمين على شكل مروحة.

- «هل أنت بخير؟»، حاول غابرييل التأكد.

- «بخير»، أكدت أليس، «وأنت؟».

- «بخير أيضاً»، أكّد وهو يعود إلى تشغيل المحرك.

ساراً مسافة خمسمئة متر إلى أن وصلا إلى منزل وسط الأشجار.

أوقف السيارة بالقرب من المنزل وأطفأ أضواءها. كان ضوء القمر كافياً كي يتمكنا من رؤية المنزل الصغير. إنه منزل خشبي مستطيل. على واجهته نافذتان صغيرتان تبدوان وكأنهما تنظران إليهما نظرة حذرة. لم تكن ستائر المنزل الذي كان غارقاً في الظلام منسدلة.

- «لا أحد في المنزل»، لاحظ غابرييل.

- «أو أن هناك من يريد أن يوهمنا بذلك»، أضافت أليس، ثم أحكمت إغلاق حقيبتها وسلمتها لغابرييل.

- «أمسك»، أمرته في اللحظة التي شرعت تخرج المسدس من صندوق السيارة أمامها.

أخرجت المسدس من جِرابه وأعدّته.

- «هل تعتزمين الذهاب إلى هناك دون حماية من الخلف؟».

- «وهل هناك وسيلة أخرى؟».

- «سنُرمى بالرصاص!».

- «لو كان فوغن يريد قتلنا لفعل منذ مدة طويلة».

خرجا من السيارة إلى البرد القارس وتقدّما نحو المنزل. كان البخار يخرج من بين شفتيهما ويتبدد وسط عتمة الليل.

توقفا أمام علبة رسائل تقليدية مقشورة الطلاء.

كالب دون

لم يعد ثمّة أي شك في هوية صاحب المنزل بعد مشاهدة اسمه منحوتاً على علبة الرسائل.

- «لم نخطئ الطريق إلى المنزل على الأقل»، قال غابرييل وهو يفتح علبة الرسائل.

كانت فارغة. أفرغها أحدهم من محتوياتها مؤخراً.

واصلا سيرهما حتى الشرفة حيث عثرا على جريدة.

- «يو أس إي توداي، إنها تحمل تاريخ هذا اليوم»، لاحظ غابرييل وهو يمزّق الغلاف البلاستيكي الذي غلّفت به الجريدة.

- «لم يعد دون إلى منزله اليوم إذن»، استخلصت أليس وهي تلقي نظرة على الجريدة اليومية.

توقف غابرييل أمام الباب وبدا متردداً.

- «لا يحق لنا التواجد هنا قانونياً، فكالب دون لم توجه له أية تهمة رسمياً، وليس معنا إذن بالتفتيش ولا...».

- «وما العمل إذن؟»، تساءلت أليس نافدة الصبر.

- «سيكون من الأحسن الدخول إلى المنزل دون كسر الباب، ف. . .».

- «ناولني حقيبتي».

أخرجت من حقيبتها الظرف الكبير الذي يضم الصور الراديوغرافية التي أجريت لصدرها في غرينفيلد.

- «أين عثرت على هذا؟»، سألها غابرييل حين شاهد الصور.

- «سأشرح لك فيما بعد يا كوين. أتراهن على أن الباب غير مغلق بالمفتاح؟ لا يحتاط الأشخاص من اللصوص في مثل هذه الأماكن عادة».

أدخلت أليس صورة الأشعة بين شق الباب وإطاره، ودفعته مرات عدة من دون نتيجة.

- «توقفي يا شافر، فنحن لسنا في فيلم، الباب مغلق بالمفتاح».

لكن أليس أصرت إلى أن نجحت في فتح الباب.

رمته بنظرة منتصرة وأخرجت المسدس من جِرابه. ثم دخل الشرطيان إلى المنزل.

*

الحقيقة الأولى: كان المنزل مدفّئاً. الاستخلاص الأول: عندما غادر دون المنزل كان ينوي العودة إليه بسرعة.

ضغط غابرييل زر الكهرباء. إنه منزل بسيط يشبه منازل الصيادين، من خشب وأثاث بسيط، ومدفئة عتيقة فوقها رأس جدي، وأربعة أسلحة معلقة.

- «إنها بنادق للصيد لا أكثر»، أشار غابرييل.

لم يكن في المنزل الصغير من الآلات الإلكترونية الحديثة إلا تلفاز، ولعبة إلكترونية، وكمبيوتر محمول، وآلة طباعة موضوعة فوق طاولة خشبية. توجها نحو المطبخ. العينة نفسها: جدران متآكلة، جهاز طبخ عتيق، وعدد من الطناجر النحاسية.

صعدا إلى الطابق الأول فوجدا معبراً يؤدي إلى ثلاث غرف تكاد تكون فارغة.

عادا إلى الطابق الأرضي ففتحا الدواليب، وبحثا في الرفوف، وتحت المقاعد وخلفها. لا شيء. باستثناء قليل من المخدرات وجداها في أحد الصحون. من الصعب الاعتقاد أن هذا المنزل منزل سفاح.

- «شيء غريب أن لا يكون في المنزل أية صورة شخصية لكالب»، لاحظ غابرييل.

جلست أليس أمام الكمبيوتر وشغلته. ليس ثمّة كلمة سرية لتشغيل الجهاز. ولا نظام لالتقاط الصور، والمواقع التي زارها لم يقم بمحوها من القائمة. والحصيلة لا شيء على الإطلاق.

واصل غابرييل البحث من جهته. وجد في أحد دواليب المطبخ غطاء بلاستيكياً، ولاصقاً، فاحتفظ بهما لترميم زجاج السيارة المنكسر. رأى نافذة كبيرة تطلّ على الغابة من الخلف، فدفعه فضوله أن يفتحها، فأدّى ذلك إلى دخول ريح قوية صفقت باب المدخل الذي كان قد بقي مفتوحاً إلى تلك اللحظة.

قفزت أليس من على كرسيها، واقتربت من باب المدخل المُغلق. تسمَّرت في مكانها. قد ثُبِّتت على الباب صوراً بمسامير كبيرة صدئة، إنها صورها الثلاث التي تحتفظ بها في محفظتها دائماً.

صورة بول وهو يضحك بطلاقة، الصورة التي التقطت له على

ساحل أمالفي في حدائق رافيلو المعلقة. وصورة إيكوغرافية للجنين في الشهر السادس من الحمل.

أغلقت أليس عينيها. لقد عاد إليها في لحظة خاطفة كل ذلك الشعور الذي أحسته وهي تشاهد طفلها على شاشة الآلة يومها. كان كل شيء مرئياً بوضوح يومها: شكل الوجه الهشّ، العينان الدائريتان، الأنف الصغير، اليدان الصغيرتان، الأصابع المتشابكة، وصوت دقات القلب المدهشة. **بابام. بابام. بابام...**

ثم فتحت عينيها على الصورة الثالثة. إنها صورة بطاقتها المهنية ذات الألوان الثلاثة. هي أيضاً كانت معلقة، إلا أن من علقها كان قد مزقها نصفين قبل أن يعلقها.

بابام. بابام. بابام... امتزجت دقات قلبها بذكرى دقات قلب ابنها. ثم أحست فجأة بالمكان يدور من حولها. وبدفقة حرارية تغمرها، وبرغبة عنيفة في التقيؤ، لم تشعر إلا وقد أغمي عليها، فتمتد يد لإسنادها.

*

دوى الرعد فاهتزت النوافذ. سرعان ما عادت أليس إلى وعيها، لكنها كانت ممتقعة اللون كشبح.

– «لا فائدة من البقاء طويلاً في هذا المنزل، ينبغي أن نعثر على كالب دون، ولا شيء هنا يُنبئ بأنه سيأتي».

جلسا إلى طاولة الصالة الخشبية متقابلين، ووضعا خريطة المنطقة فوقها.

واصل الشرطي الفدرالي تحليله:

– «إما أن فوغن ودون ليسا إلا شخصاً واحداً، وإما أن دون سيقودنا إلى فوغن. لدى كالب دون جزء من الحقيقة دون شك».

وافقت أليس. وأغلقت عينيها لتركز أكثر. أبان التحليل الذي أجري على الدم الذي كان على قميصها أنه دم دون. إذن دون جُرح مؤخراً، الليلة الماضية أو في الساعات الأولى من الفجر. وكان جرحه من الخطورة بحيث منعه من الرجوع إلى منزله. لكن، أين هو الآن؟ مختبئ في مكان ما، من دون شك... أو أنه في أحد مراكز الاستشفاء، بكل بساطة.

قال غابرييل وكأنه قرأ أفكارها:

- «ماذا إذا كان دون يُعالَج في نفس المستشفى الذي يعمل فيه؟».

- «لنتصل بهم كي نتأكد»، اقترحت وهي تشغل الكمبيوتر.

بحثت بواسطة الإنترنت عن عنوان مستشفى سوباغو كوتاج. سجّلت العنوان ورقم الهاتف، وحاولت العثور على موقع المستشفى في الخريطة.

- «إنه هنا»، قالت وهي تشير إلى ضفة بحيرة. «على بعد أقل من ستين كيلومتراً».

صحّح غابرييل:

- «إذا أضفنا وقت الخروج من هنا والعودة من أجل الالتحاق بالطريق السريع، فإن ذلك سيتطلب ساعتين على الأقل».

- «لنتصل بإدارة المستشفى أولاً، ولنسألهم إن كان دون يُعالَج هناك».

أشار برأسه رافضاً.

- «لن يخبرونا بشيء عبر الهاتف، بل نخشى أن يخبروا دون بالأمر قبل وصولنا».

- «هل نغامر بالذهاب إذن؟».

- «قد لا يكون ذلك ضرورياً، لأن لدي فكرة أخرى. ناوليني هاتفك».

اتصل بالمستشفى فأجابته مستقبلة المكالمات، وعوض أن يطلب منها أن تصله بأحد العاملين بالمستشفى، طلب الاتصال بأحد المسؤولين عن الحراسة.

- «معك الحراسة، أنا في الاستماع»، أعلن صوت متراخٍ لا يليق بمن يمارس مثل هذه المهنة.

- «مساء الخير، أنا من أصدقاء كالب دون. قال لي إنه في إمكاني الاتصال به على هذا الرقم، هل يمكنني التحدث معه؟».

- «آه، الأمر صعب يا رجل، يبدو أن كالب أصيب برصاصة في بطنه. إنه هنا فعلاً، لكن من الصعب الاتصال به».

- «دون موجود هناك؟ في مستشفى توباغو كوتاج؟».

- «هذا ما أخبرتني به المديرة على كل حال».

- «المديرة؟».

- «كاترين كولر، نائبة المدير».

- «وهل عرفوا من أطلق عليه الرصاص؟».

- «لا أعرف، إنهم لا يحبون أن تطرح عليهم الأسئلة هنا».

شكر غابرييل الحارس وأنهى المكالمة.

- «هيا بنا»، قالت أليس، «لقد وقع بين أيدينا هذه المرة!».

توقفت في اللحظة التي كانت ستغلق الكمبيوتر فيها.

- «دقيقة فقط».

واستغلت الإنترنت لتلقي نظرة على إيميلاتها. كان قد مرَّ على اتصالها بفرانك مارشال أكثر من خمس ساعات، وربما حصل على صور لسيارتها في كاميرا المراقبة بمرآب شارع فرنكلن-روزفلت. لم

تكن، في الحقيقة، تعوّل كثيراً على أن يقدِّم لها مارشال هذه الخدمة.

أخطأ حدسها، حيث قد وصلها إيميل من مارشال.

من: فرانك مارشال

إلى: أليس شافر

الموضوع: مراقبة الكاميرات في فانسي

تحياتي، أليس

ها هي ذي صور كاميرا المراقبة الخاصة بالسيارة التي تحمل الرقم الذي أطلعتني عليه. لم أتمكن من إرسال ملف الفيديو بأكمله، لأن حجمه أكبر من أن يستوعبه إيميل. ولكني أبعث لك بصور متقطِّعة. أتمنى أن يكون ذلك كافياً.

قبلاتي

فرانك

رُفق الإيميل بأربع صور.

تفحّصت أليس الصور عن كثب.

الثامنة مساء واثنتا عشرة دقيقة: صورتان تبرزان دخول سيارة الأودي إلى المرآب. لم يكن التصوير بتلك الرداءة التي ادّعاها سيمور. رأت أليس نفسها جيداً من خلف زجاج السيارة الأمامي، كانت وحدها. منتصف الليل وسبع عشرة دقيقة: صورتان تبرزان السيارة وهي تغادر المرآب. هذه المرة تظهر أليس برفقة شخص ما، لم تكن تقود السيارة. تظهر الصورتين أنها منهارة، وتكاد تكون فاقدة

الوعي، وتجلس بجانب من يقود السيارة. إذا كانت الصورة الأولى لا تسمح برؤية وجهه، فإن الصورة الثانية تظهر رأسه المرفوعة.

كبّرت أليس حجم الصورة.

تجمّد الدم في عروقها.

لا يمكنها أن تخطئ.

فالرجل الذي يقود السيارة هو سيمور.

21

غشاوة

ويلٌ لمن هو وحده إن وقع إذ ليس ثانٍ ليقيمه.
سِفر الجامعة، 4: 10

مضت السيارة وسط الظلام.

كانت العاصفة تهوي على الجبل بقوة مدمِّرة، والريح تؤرجح السيارة، والمطر ينقر زجاجها والغشاء البلاستيكي محدثاً صوتاً جحيمياً. كانا قد تجاوزا قمة الجبل منذ نصف ساعة، وشرعا ينزلان نحو الوادي. وكانت التواءات الطريق الكثيرة المدوخة قد صارت زلقة تحت تأثير المطر القوي.

أمسكت أليس بين يديها صورة المرآب التي يظهر فيها وجه سيمور بوضوح. كانت قد حاولت الاتصال بصديقها مرات عدة، إلا أنها اصطدمت في كل مرة بالمجيب الآلي. نظرت إلى الصورة مرة أخرى تتفحصها على ضوء هاتفها الشاحب.

رأت نفسها جنب سيمور، في الأودي. بدت محطمة وسكرانة، غير أنها لم تكن فاقدة الوعي بشكل تام.

كيف عجزت عن أن تتذكر هذا الحدث الذي لا يعود إلا لليلة أمس؟ حاولت أن تنشّط ذاكرتها، لكن الغشاوة نفسها كانت تمنعها

الدخول إلى ذاكرتها. مع ذلك شرعت آلة دماغها، بفضل محاولاتها المتكررة، تعود إلى العمل. خفق قلبها بقوة. نعم، ها هي ذي الذكريات تعود! تخترق منعرجات لاوعيها الضبابية. ها هي ذي الحقيقة الغائبة تتقدم نحوها. وها هي ذي أليس تقترب منها بدورها، لكنها ما أن أوشكت على أن تمسك بها حتى تلاشت، تبددت، لتذوب نهائياً.

يا لها من معاناة مؤلمة!

فجأة لمعت إشارة حمراء وسط الظلام الحالك. التفتت أليس نحو مصدرها: إنها إشارة وشك نفاد البنزين.

- «اللعنة، قد لا يسمح لنا ما تبقى من بنزين بالوصول إلى المستشفى. تبتلع هذه السيارة أكثر من عشرين لتراً كل مئة كيلومتر».

- «كم كيلومتراً نستطيع أن نقطع بما تبقى من بنزين؟».

- «خمسون على الأكثر».

سلّطت أليس ضوء هاتفها على الخريطة الطرقية.

- «ثمّة محطة للوقود بحسب الخريطة. هل تعتقد أننا يمكن أن نصل إليها».

ضيّق غابرييل عينيه كي يتبيّن موقع المحطة.

- «بالكاد، ولكن لنحاول ما دام ليس أمامنا خيار آخر».

الرياح تبذل كل ما في وسعها لتخترق الغشاء البلاستيكي، والمطر ما زال يهطل بغزارة مهدداً بإغراق السيارة. قال غابرييل وعيناه على الطريق:

- «لا أطيق سيمورك».

تنهدت أليس شاعرة بالتعب.

- «إنك لا تعرفه».

- «إنه غامض».

- «انتقاداتك الجارحة هي الغامضة. لننتظر تفسيره كي نحكم عليه».

- «لا أعتقد أن ما سيقوله سيغير من الأمر شيئاً». قال الشرطي متبرماً. «لقد كذب عليك من البداية. اللعنة، إنه يكذب علينا كلنا! قد تكون كل المعلومات التي مدّنا بها منذ الصباح خاطئة!».

نظرت أليس إلى هذا الاحتمال بقلق. بحث غابرييل عن سيجارة في جيبه وأشعلها دون أن يتخلى عن مراقبة الطريق أمامه.

- «أبوك هو الآخر كذب علينا!».

- «يكفي، دع أبي بعيداً عن كل هذا».

- «لم أقم بغير ملاحظة أن كل من يحيطون بك يتلاعبون بك ويعرّضونك إلى الخطر». وأضاف بعد قليل:

- «وتدافعين عنهما بالإضافة إلى ذلك!».

دافعت أليس عن نفسها بقوة متبرمة.

- «من دون سيمور وأبي ما كنت لأبقى على قيد الحياة! هل تعتقد أني كنت سأتمكن من البقاء على قيد الحياة بعد أن مزّق ذلك الأحمق بطني، وقتل ابني، وتركني ميتة وسط بركة من الدم!».

حاول غابرييل أن يبرر ما قاله، لكن أليس رفعت من صوتها حتى تمنعه أن يفعل:

- «بعد وفاة بول تحطمت، ولم يبقَ لي سند غيرهما! افهم ذلك إذا لم تكن من الغباء بحيث أنك لا تستطيع أن تفهم».

التزم غابرييل الصمت. وواصل التدخين مفكراً، قلقاً. تنهدت أليس والتفتت إلى الجهة المعاكسة. كانت الأمطار تهاجم الزجاج، والذكريات تهاجم عقلها.

أتذكّر...
ديسمبر 2011 - يوليو 2013

أتذكّر.

أتذكّر أني كنت متأكدة أن كل شيء سينتهي أخيراً.

لم أكن أتصور مخرجاً آخر: سأعود إلى المنزل وأطلق رصاصة على رأسي.

طلقة واحدة ستوقف استمرار انزلاقي نحو الجحيم.

أعدتُ اللقطة مرات عدة، وأنا سجينة سريري بالمستشفى: حديد المسدس البارد في فمي، وفوهته الموجهة إلى أعلى لتدمير المخ.

تلك هي الصورة التي كررتها دون انقطاع كي أنعم براحة النوم. إصبعي وهي تضغط الزناد، رأسي وهي تتشظى جراء تلك الحركة المنقذة من العذاب.

*

ومع ذلك، فإن حياتي لم تمضِ في ذلك المسار.

- «ستسكنين معنا»، قال أبي حين أتى لإخراجي من المستشفى.

طرفت عيناي.

- «ماذا تقصد بـ«معنا»؟».

- «معي، ومع صديقك «خلي البال»».

استأجر أبي خلال فترة نقاهتي منزلاً كبيراً ذا حديقة في سكوير منتوسوري، ولم يخبرني بذلك. كان المنزل فيما قبل معملاً لرسام محاطاً بالخضرة، وكان كل من يراه يعتقد نفسه في قلب البادية بينما هو في قلب المقاطعة 14.

كان أبي قد استفاد من فترة قلق عاطفي يمر منها سيمور ليقنعه بالانتقال إلى ذلك المنزل. كنت أعرف أن صديقي عاش مؤخراً قصة حب معقدة مع راقص ومصمم رقصات يعمل في أوبرا باريس، قد ترك العاصمة واستقر بالولايات المتحدة، فلم يصمد حبهما أمام ذلك البِعاد.

عشنا نحن الثلاثة ما يقارب ثلاث سنوات، وصمدت عشرتنا التي لم يكن محتملاً أن تصمد. احتفظ أبي وسيمور بأحكامهما المسبقة عن بعضهما، بشكل غير متوقع، وأصبحا صديقين حميمين، معجبين ببعضهما. انخدع سيمور بصورة الشرطي الخرافي ألان شافر، وبقدرته العالية على كشف ألغاز الجرائم، وبحضور بديهته، وببراعته في فرض وجهة نظره. أما أبي فاعترفَ بأنه تسرع في الحكم على زميلي الشاب، وأصبح يحترم، بعد ذلك، الجانب المفاجئ والمدهش في شخصيته: جانب الغني المتأنق، المِثْلي، المثقف، والذي يستطيع، على الرغم من ذلك، أن يصمد أمام زجاجات الويسكي التي عمرها عشرون سنة.

وكان لدى الرجلين، على الخصوص، تلك الرغبة المصرة على حمايتي من نفسي. أخذني أبي، خلال الأسابيع التي تلت مغادرتي

المستشفى، إلى إيطاليا والبرتغال. وطلب سيمور إجازة ليأخذني، في بداية فصل الربيع، إلى لوس أنجلوس وسان فرانسيسكو. وقد ساعدتني تلك الغربة وذلك الجو العائلي على أن أخرج من تلك التجربة دون أن أنهار.

عدت إلى العمل حالما استطعت، وإن بقيت، خلال الأشهر الأولى، غير قادرة على ترك المكتب والخروج إلى الشارع لإجراء التحريات. وحلَّ سيمور مكاني على رأس «فرقة شافر»، واكتفيت بالعمل في أرشيف المعلومات المحصل عليها أثناء إجراء التفتيشات والتحريات. وأمضيت سنة بأكملها أعالَج لدى «طبيب نفساني» مختص في علاج الصدمات التي تخلّفها المصائب.

صار وضعي في العمل صعباً، فبعد فشل التحريات في قضية إريك فوغن، أخذت تايلانديه تضايقني. كان يمكن، في ظروف أخرى مغايرة، أن أطرد من العمل دون تردد، إلا أن وسائل الإعلام كانت قد حشرت نفسها في قضيتي، إذ خصصت مجلة باري ماتش أربع صفحات لقصتي الدرامية، لتحول إخفاقي إلى حكاية ألعب فيها أحسن الأدوار: دور كلاريس ستارلينغ، تلك المرأة الباريسية التي غامرت بكل شيء من أجل الإيقاع بعدو الشعب الأول. ومنحني وزير الداخلية، في السياق نفسه، وسام الشرف عن عملي الوطني الشجاع. وقد ولّد ذلك الاهتمام الإعلامي وذلك الوسام الحقدَ في نفوس زملائي، إلا أنه مكنني، من جهة أخرى، من الاستمرار في ممارسة عملي.

*

ثمّة اختبارات لا ننجح أبداً في التغلب عليها حقاً، ولكننا، مع ذلك، نستطيع أن نتعايش معها. انهار جزء مني. واستمر الماضي

بملاحقتي وخنقي، إلا أنني كنت محظوظة بوجود أشخاص من حولي يمنعونني من الانهيار.

مات بول، ومات ابني. فلم يعد للحب أي معنى. إلا أنه بقي في أعماقي شعور بأن المسرحية لم تتم فصولها. وأنه قد يكون لدى الحياة شيء تمنحني إياه.

عدت إلى الحياة بالتدريج. إلى حياة انطباعية تتغذى بأشياء بسيطة: جولات في الغابة تحت أشعة الشمس، ممارسة الرياضة على الشاطئ، كلمة طيبة يقولها أبي، ضحك طلق صحبة سيمور، كأس من خمرة سان-جيليان على الشرفة، براعم فصل الربيع الأولى، خروجي اليومي صحبة صديقاتي القديمات في الجامعة، كتاب أعثر عليه صدفة بين كتبي.

عدت في شهر سبتمبر 2012 إلى رئاسة فرقتي. حبي لعملي، وعشقي للتحريات لم يزولا، وبفضل «البَرَكة» استطاعت «فرقة شافر» على امتداد السنة، حلّ ألغاز كل القضايا التي كلِّفت بها. وعاد فريق الأحلام إلى الواجهة.

دارت عجلة الحياة بسرعة. قبل ثلاثة أشهر، بداية صيف 2013، استعدت مكانتي في أوساط شرطة محاربة الجرائم، فعادت إلي ثقتي بنفسي، وحظيت باحترام أعضاء فرقتي من جديد، وعدنا إلى ما كنا عليه من إحساس بالمسؤولية المشتركة.

وأحسست من جديد بقوة ذلك الإحساس الذي ينبئني بأنه ربما ما زال لدى الحياة شيء تمنحني إياه.

ولم يخطر في بالي أن ذلك الشيء سيتخذ شكل اختبار جديد.

22

فوغن

حلَّ الليل، دقت الساعة.

غيوم أبولينير

نفذت الرياح إلى السيارة من كل جانب، فتمزق الغطاء البلاستيكي، وظهر ثقب خلفها. أغرق المطر المنهمر بغضب أرضية السيارة وكراسيها.

- «اقتربنا من الوصول!»، صرخت أليس لتُسمع صوتها وسط العاصفة الهوجاء.

كانت الخريطة التي وضعتها فوق ركبتيها قد تبللت تماماً، وأخذت تتفتت بين يديها.

سارا ببطء، وتجاوزا بحذر منعطفاً تحطمت فيه إشارة مرور جراء العاصفة. ثم شاهدا بعد ذلك مباشرة علامة متجر غرانت جنِرال وهي تلمع وسط الظلام، فأحسا بالارتياح.

توقفا أمام حاويتي البنزين. ضغط غابرييل بوق السيارة ليُشعر بوجوده. هرول نحوهما عجوز أدرد يحتمي من المطر بلباس بلاستيكي ومظلة، وانحنى صوب زجاج السيارة:

- «سيدي، سيدتي، فرجيل في خدمتكما».

- «املأ الخزان حتى آخره، من فضلك».

- «حالاً. وينبغي إصلاح زجاج سيارتكما الخلفي أيضاً!».

- «وهل تستطيع أن تفعل ذلك؟»، سأله غابرييل.

- «سأرى ما يمكنني أن أفعل»، وعدهما فرجيل، «ادخلا كي تتدفآ».

غادرا السيارة وركضا نحو متجر المحطة للاحتماء من المطر تحت سقيفة. دفعا الباب والمطر يقطر من ثيابهما فوجدا نفسيهما في قاعة مليئة بالصراخ والحيوية. كانت القاعة مقسمة قسمين: على اليمين متجر عام تقليدي، وعلى اليسار مكان مهيّأ حول كونتوار كبير خلفه امرأة تقدّم للزبائن ما لديها من مأكولات.

كان جو المكان حميمياً، والحماس مضموناً وسط زبائن تعودوا أن يأتوا إلى هذا العالم الذي أعادوا صوغه. ملصقات تعود إلى سنوات الخمسينيات تملأ الجدران من حولهما، ملصقات إشهارية لحفلات الروك. بدا المكان خارج الزمن الحقيقي، حتى إنك تشعر حقاً أن شوك بيري، أو بيل هالي، أو بودي هولي، سيقيمون حفلاً في الجوار نهاية الأسبوع المقبل.

جلسا متقابلين في مكان منعزل من القاعة، فوق كرسيين عاليين دائريين من جلد أحمر.

- «ماذا تطلبان، أيها العاشقان؟»، سألتهما صاحبة المحل وهي تمد إليهما قائمة المأكولات.

لم يكونا جائعين، إلا أنهما أدركا أن ليس في إمكانهما أن يشغلا مقعدين دون أن يطلبا شيئاً.

في الوقت الذي كانا منشغلين بالاختيار، ملأت صاحبة المحل كأسيهما ماء ووضعت أمامهما أوراقاً لتنشيف ومسح اليدين.

- «إنكما مبللان تماماً، أيها الطفلان! حذار من أن يصيبكما الموت».

شكرها الشرطيان. وتقدما بطلبيهما. طلب غابرييل سندويتشاً، وطلبت أليس شوربة محار.

في انتظار الطعام، أخذا ينشّفان وجهيهما، وعنقيهما، وشعرهما.

- «تذوقا الطعام!»، قالت وهي تقدّم لهما الأكل.

ووضعت أمامهما كأسين من الويسكي.

- «إنها هدية من المطعم، كي تدفّئا نفسيكما: فرجيل هو من أوصى بذلك».

- «يسعدنا ذلك»، قال كوين بحماس وهو يرشف من كأس الويسكي متذوقاً.

عضّ على سندويتشه وانتظر حتى يتأكد أن لا أحد سيستمع إلى ما سيقوله لينظر إلى أليس قائلاً:

- «لا يفصلنا عن المستشفى إلا خمسين كيلومتراً، يا شافر، ولا بدّ من أن نتناقش».

شربت ملعقة من شوربتها.

- «لنتناقش إذن».

- «إنني جاد يا أليس، أعرف أنك وأسرتك عانيتم كثيراً بسبب فوغن...».

- «إنك تجيد فن التلميح...».

- «ليكن الأمر واضحاً من البداية، لسنا ذاهبين لمعاقبته، أليس كذلك؟ سنصل إلى المستشفى ونعتقل ذلك الشخص ثم نأخذه إلى بوسطن لنحقق معه في إطار القانون».

أشاحت عنه بوجهها، وشرب هو جرعة من الويسكي.

- «هل أنت متفقة على ما قلت؟»، أصر غابرييل.

قالت أليس في غير سياق كلامه:

- «فليتحمل كل واحد مسؤولياته».

رفض غابرييل الوقوع في المصيدة، فرفع صوته قائلاً:

- «سأتحمل مسؤولياتي، على كل حال. هات مسدسك وإلا فلن تخرجي من هنا».

- «اذهب إلى الجحيم!».

- «الأمر غير قابل للتفاوض يا أليس».

ترددت، لكنها أدركت أن غابرييل لن يتراجع. جرّدت المسدس من جِرابه، وسلمته إياه من تحت الطاولة.

- «هكذا أحسن»، أكد غابرييل وهو يضع المسدس في حزامه.

هزت كتفيها، أفرغت كأس الويسكي في جوفها، فحدث ما يحدث لها دائماً حين تشرب خمراً: أحست بالويسكي يتغلغل في مسامها. تجلب لها الكؤوس الأولى دائماً ذلك الإحساس النادر بالطمأنينة، وبدفقة حقيقية من الأدرنالين تغمرها لتمنحها بصيرة غيز مألوفة، وشعوراً غامراً بأنها فقدت السيطرة على نفسها قليلاً.

جالت نظرتها في القاعة، متنقلة من شخص إلى آخر، إلى أن استقرت عند كأس غابرييل. توقفت نظرتها فجأة، مجمّدة تحت تأثير الألوان وتراقصها فوق صفحة الويسكي. ألوان متغيرة، حمراء، برونزية، صفراء ذهبية. أخذت القاعة تدور من حولها. شعرت بالشعور نفسه الذي شعرت به وهي داخل السيارة قبل قليل: ذلك الشعور الراسخ بأنها قط لم تكن أقرب إلى الحقيقة قبل الآن.

والاقتناع بأنها وصلت أخيراً إلى نقطة العبور، وأنها تستطيع أن تمزق حجاب الجهل.

تاهت نظرتها وسط تَلألؤ الويسكي. كانت تلك النظرة منجذبة إلى كأس مرافقها. وفجأة أحست برعشة في كامل جسدها، وبشيء يقف في حلقها، وأدركت في تلك اللحظة أنها لم تكن منجذبة إلى كأس الويسكي وإنما إلى يد غابرييل التي تمسك بالكأس. وبالضبط إلى ذلك الإصبع الذي كان ينقر على الكأس نقراً منتظماً عصبياً. كانت ترى كل شيء، كما لو أنها تنظر إلى العالم من خلال منظار مكبّر. كانت ترى يد غابرييل؛ وعظام يده؛ وذلك الجرح الصغير على شكل صليب في سبابة يده اليمنى، الجرح الذي كانت تراه كلما أحاطت يده بالكأس. إنه من تلك الجروح التي نتعرض إليها في طفولتنا، حين نعيد نصل السكين إلى غمده دون حذر. جرح لا يمحى، وإنما يصاحبنا ما حيينا رغم عملية الخياطة التي أجريت له.

وفجأة ظهر رأس فرجيل المشعث أمامها.

- «أصلحت زجاج السيارة بطريقة أودّ منكما أن تطّلعا عليها لتخبراني إن كانت تناسبكما».

نهض غابرييل.

- «ابقي هنا في الدفء، سآتي لأصحبك حالما أتأكد أننا نستطيع الذهاب».

نظرت أليس إلى غابرييل وهو يبتعد، محمّرة الوجنتين. كانت تحس بوقع نبضات قلبها القوية في صدرها، وبالنار تشتعل في داخلها، وهي عاجزة عن أن تحدّ من اشتعالها، وبرأسها تدور، وبأنها تغرق، وبالرغبة في أن تعرف.

- «هل أنت بخير يا جميلتي؟ أتريدين أن أحضر لك شيئاً؟».

وافقت أليس على كأس ويسكي أخرى، فشربته دفعة واحدة. كانت تريد أن تؤمن في أن للكحول سلطة تجعل أفكارها واضحة. أو أن لها القدرة على أن تمنحها الشجاعة على الأقل.

إما أتصرف أو أموت!

فتحت حقيبتها. بحثت عن علبة البصمات. أمسكت الكأس التي شرب فيها غابرييل بمنشفة ورقية. وقامت بنفس ما قامت به مع المِحقنة. كانت تعمل بدقة وبشكل آلي، إذ أن ضيق الوقت لم يكن يسمح لها بارتكاب أي خطأ. بصمة غابرييل الآن ترقد إلى جوار بصمة المِحقنة، على ورقة كارتونية واحدة.

في اللحظة التي كانت تنظر إلى نتيجة عملها بتقريب الورقة الكارتونية التي عليها البصمتان اللتان حصلت عليهما، دقّت الأجراس الصغيرة المثبتة فوق باب الدخول إلى القاعة.

نهضت وقالت لغابرييل.

- «هل نستطيع أن نذهب الآن؟»، قالت وقد رفعت صوتها كي يسمعها وسط لغط القاعة.

- «قام فرجيل بعمل ممتاز. لن يتسرب الماء إلى السيارة ثانية!».

قررت أليس أن تغامر بكل شيء.

- «اذهب وشغّل المحرك لتسخين السيارة، سأدفع ثمن المأكولات والتحق بك في السيارة»، أكدت أليس وهي تتمنى أن يعود من حيث أتى.

- «لا داعي لذلك، فأنا...».

نادته صاحبة المحل من وراء الكونتوار:

- «هيه، أنت أيها العاشق الطيب، تعال اشرب كأساً أخيرة؟ كأس حضّرها فرجيل بنفسه. ذق وقل لي ما هو رأيك!».

امتنع غابرييل لأنه فوجئ بهذه الطريقة في التعامل التي تحطم كل الحواجز.

- «شكراً، لا أريد، يجب أن نذهب».

استغلت أليس تلك الثواني التي دار خلالها الحديث لتلقي بالورقة الكارتونية داخل حقيبتها. وأخرجت من جيبها ثلاث ورقات من فئة عشرة دولارات ووضعتها فوق الكونتوار.

- «هيا بنا»، قال غابرييل بعد أن وصل إلى حيث تقف.

تبعته بما استطاعت من هدوء حتى الباب. كان المطر ما زال يهطل غزيراً.

في الوقت الذي كان غابرييل يركض صوب السيارة أدارت أليس ظهرها لموقف السيارات، وأخرجت الورقة. قارنت بين البصمتين على ضوء لوحة جنِرال ستور اللامعة. إنهما متطابقتان، أو هذا ما تراه عيناها على الأقل. متطابقتان، وعلى كل واحدة منهما علامة ذلك الجرح الذي على شكل صليب...

أدركت لحظتها أن غابرييل كذب عليها من البداية.

حين رفعت رأسها، أحست أن السيارة توقفت خلفها. فتح لها غابرييل الباب. صعدت وشدت حزام السلامة.

- «هل أنت بخير؟ تبدين غريبة».

- «أنا بخير»، أجابته وقد تذكرت أنها كانت قد سلمته مسدسها، ولم يعد معها سلاح.

أغلق باب السيارة. التفتت أليس إلى الجهة الأخرى مرتعشة.

في الوقت الذي مضت السيارة وسط الظلام، احتاجت أليس إلى ثوانٍ عدة لتسلِّم بالحقيقة: غابرييل وفوغن ليسا إلا شخصاً واحداً.

القسم الرابع

المرأة المُفَكَّكة

23

التصرّف أو الموت

- «كيف عرفت أني حمقاء؟» سألته أليس.
- «لو لم تكوني حمقاء لما أتيت إلى هنا» أجاب القِطّ.

لويس كارول

مطر غزير عنيف يرتطم بالنوافذ.

الرعد يقصف بلا انقطاع، ويمزّق البرق السُحب من حين إلى آخر. تمتد شبه الجزيرة التي يتواجد بها مستشفى سوباغو كوتاج على مساحة خمسة عشر كيلومتراً، راسمة وسط البحيرة رقعة واسعة محاطة بأشجار الصنوبر.

كان غابرييل يقود السيارة بسرعة مفرطة وتركيز، وسط طريق تناثرت فيه الأغصان المنكسرة وبقايا الأعواد، ما يجعل القيادة بسرعة شيئاً خطيراً. كانت الرياح هي الأخرى تعوي وسط الأشجار، وترغمها على أن تميل حتى الانكسار، وتُزعزع السيارة كما لو أنها تريد أن تمنعها من التقدم.

أخذت أليس تسترق النظر إلى هاتفها. ليس غريباً أن تكون

شبكة الاتصال في مثل هذا المكان غير مستقرة، إلا أنها ليست معطلة كلياً. كانت جودتها تختلف من مكان إلى آخر.

حاولت أن تحتفظ بهدوئها. كان عليها أن تربح الوقت. ستبقى في أمان ما لم يشك غابرييل في أنها كشفت هويته. لكنها عاجزة عن أن تفعل شيئاً من دون سلاح وفي طريق خالية. ستنتظر إلى أن يصلا إلى المستشفى كي تتصرف.

سيكون المستشفى مملوءاً بالناس، والحركة، وكاميرات المراقبة... لن يفلت فوغن من قبضتنا هذه المرة...

تغلبت ضغينتها على خوفها.

لم تتحمل أن تكون جالسة بجانب قاتل ابنها. أن تعرف أن جسده على بعد سنتمترات قليلة منها. ولم تتحمل أيضاً شعورها بأنها قريبة منه، وأنها حكت له جزءاً من حياتها الخاصة، وأنها انفعلت وتأثرت بكذبه، وأنها خُدعت، في نهاية المطاف، بهذه الطريقة.

تنفست بعمق. حاولت أن تفكر، أن تبحث عن أسئلة ما زالت معلقة: ما فائدة هذه اللعبة التي يلعبها؟ ما هو مخطط فوغن؟ لماذا لم يقتلها وقد كانت طوع يديه منذ ساعات؟

❋

مضت السيارة في منعطف ضيق قبل أن يضغط غابرييل الفرامل فجأة. كانت صاعقة قد هوت على شجرة صنوبر كبيرة بجانب الطريق فقسمتها قسمين، وتناثرت الأشلاء والبقايا وسط الطريق فعرقلت حركة السير. وحالت قوة الأمطار دون أن تشب فيها النيران، لكن الدخان ما زال يتصاعد منها.

- «يا للحظ العثر!»، صاح غابرييل.

حاول غابرييل أن يمضي بالسيارة وسط طريق مليئة بالأغصان

والأخشاب، فزاغت السيارة عن الطريق واتجهت نحو الحافة، وغرقت العجلتان الأماميتان في الوحل.

- «سأحاول إخلاء الطريق»، قال غابرييل وهو يسحب فرامل اليد.

خرج من السيارة وأغلق الباب خلفه، تاركاً المحرك يعمل.

كيف أصدق أنه غادر السيارة فعلاً؟

طبعاً، لقد كان في إمكانها في تلك اللحظة أن تحاول الهرب بالسيارة ما أن ينجح غابرييل في إخلاء الطريق. لكن ليست الرغبة في الهرب هي ما يتملكها. الرغبة في أن تعرف، وأن تذهب بالأمور إلى أقصاها هي ما يتملكها.

ألقت نظرة على هاتفها: شبكة الاتصال ضعيفة، غير أنها ليست منعدمة. لكن، بمن ينبغي أن تتصل؟ بـ 911؟ سيطول شرح قصتها. بأبيها إذن؟ أو بسيمور؟ لم تعد متأكدة إن كان ينبغي أن تستمر في الثقة بهما. هل تتصل بأحد زملائها في قسم محاربة الجرائم؟ نعم، تلك فكرة جيدة. لكن بمن؟ كاستلي؟ سافنيون؟ لم تتمكن من تذكر رقم أي واحد منهما لأنها عوّلت دائماً على قائمة الأرقام المخزّنة في هاتفها الخاص.

أغلقت عينيها كي تركز؛ الرقم الوحيد الذي تذكرت هو رقم أولفييه كروشي، وهو سادس أعضاء فرقتها. أحسن من لا شيء. اتصلت بالرقم خفية، لأن غابرييل لم يتوقف لحظة عن النظر صوب السيارة، غير أن ستار المطر الغزير كان من السُّمك بحيث أنه يحول دون مشاهدته أليس داخل السيارة.

رنّة... اثنتان... ثلاث رنات... ثم المجيب الآلي.

ما هذا الحظ العثر!

في اللحظة التي أنهت فيها الاتصال دون أن تترك أية رسالة، خطرت لها فكرة أخرى. فتحت حقيبتها وأخرجت منها السكين التي سرقتها من مقهى بووري. لم يكن نصل السكين حاداً جداً، لكن رأسها حادة جداً. أدخلت السكين في كم قميصها في اللحظة التي عاد فيها غابرييل.

- «أخليت الطريق، سنواصل السير!»، قال مفتخراً.

*

مستشفى سوباغو كوتاج
منطقة مؤمَّنة
خففوا السير

كان المحرس الخشبي الصغير الخاص بأعضاء المراقبة مضاء بضوء أبيض أمام لوحة منبهة تظهر من بعيد. سارا نحو المحرس، لكنهما حين وصلا إليه وجداه فارغاً.

توقف غابرييل أمام الحاجز الحديدي، وأطل من نافذة السيارة.

- «هيه، هل من أحد هنا؟»، صرخ بصوت مرتفع كي يسمع من خلال صوت العاصفة.

خرج من السيارة وتقدم نحو المحرس. كان الباب مفتوحاً تتلاعب به الرياح. أطل برأسه وقرر الدخول. لا أحد في الداخل. ضغط زر الحاجز وعاد إلى السيارة.

- «غياب الحارس علامة لا تسر»، قال وهو يشغل المحرك.

أشعل سيجارة أخرى ويداه ترتعشان قليلاً.

قاد السيارة في ممر على جانبيه أشجار الصنوبر إلى أن وصل إلى ساحة واسعة مفروشة بالحصى. إنه مرآب المستشفى.

كان المستشفى الذي شيِّد على ضفة البحيرة فريداً من نوعه،

ومثيراً للإعجاب. عُلقت أمام مدخله الرئيسي لوحة إلكترونية تذاع عليها معلومات تُحدَّث باستمرار.

أهلاً، اليوم هو الثلاثاء 15 أكتوبر 2013
الساعة الآن: الحادية عشرة ليلاً وسبع وخمسون دقيقة
مواعيد الزيارة: من العاشرة صباحاً إلى السادسة مساء
مرآب الزوار: ب 1، ب 2
مرآب العاملين في المستشفى: ب 3

خفف غابرييل من سير السيارة. أخرجت أليس السكين التي أخفتها في كمها ببطء، وأحكمت الأمساك على قبضتها. **الآن أو أبداً.**

أحست بقلبها ينبض بقوة. ارتعشت بفعل دفقة الأدرنالين. واختلطت في عقلها أحاسيس متعارضة: الخوف، العنف، الألم بخاصة. لا، لن تكتفي بإلقاء القبض على فوغن. ستقتله. إنها الوسيلة الراديكالية الوحيدة لتخليص العالم من شخص مؤذٍ مثله. إنه التكفير الوحيد الممكن عن موت بول وموت ابنها. أحست بغصة في حلقها، وبدموع تنهمر على وجنتيها ولا تستطيع التحكم فيها.

الآن أو أبداً.

وظفت كل قوتها لطعن غابرييل بالسكين. غرست نصلها في صدره. أحست بعضلة كتفه تتمزق. صرخ تحت وقع المفاجأة وتخلى عن المقوَد، فزاغت السيارة عن الممر المؤدي إلى الساحة واصطدمت بحائط صغير. انفجرت إحدى العجلات وتوقفت السيارة. اغتنمت فرصة الاضطراب الحاصل لتستولي على المسدس الذي كان قد وضعه في حزامه.

- «لا تتحرك!»، صرخت وهي تصوب المسدس نحوه.

قفزت خارج السيارة. أعدّت المسدس محكمة القبض عليه.

- «اخرج من السيارة!».

انحنى غابرييل كي يحمي نفسه، لكنه لم يخرج من السيارة. كان المطر من الغزارة بحيث أنها لم تستطع رؤية ما كان يفعله.

- «اخرج حالاً!»، كررت أليس، «وارفع يديك!».

انفتح الباب ببطء ووضع غابرييل رجلاً خارج السيارة. كان قد نزع السكين من كتفه، وظهرت بقعة من الدم فوق لباسه.

- «انتهى الأمر يا فوغن».

رغم المطر والظلام كانت نظرة غابرييل تلمع كما الكريستال، وتنجح في اختراق الظلام.

منذ سنوات وأليس لا ترغب إلا في شيء واحد: أن تقتل فوغن بنفسها.

غير أنه من المستحيل أن تجهز عليه الآن قبل أن تحصل على كل الأجوبة.

رنّ الهاتف في جيبها. أخرجته دون أن تبعد نظرها عن فوغن أو تتخلى عن تصويب المسدس نحوه. ظهر على شاشة هاتفها رقم سادس أعضاء فرقتها.

- «كروشي؟».

- «هل اتصلت بي أيتها الرئيسة؟»، تساءل صوت مثقل بالنوم، «هل تعلمين ما الساعة الآن؟».

- «أنا في حاجة إليك يا أولفييه. هل تعرف أين هو سيمور؟».

- «إطلاقاً. فأنا في عطلة ببريتاني عند والد زوجتي منذ أسبوع».

- «ماذا قلت؟ ألم نلتقِ أمس في 36؟».

- «أيتها الرئيسة. . . إنك تعرفين أن ذلك مستحيل».

- «لماذا؟».

- «أيتها الرئيسة، أنت. . .».

- «لماذا؟»، ألحّت أليس غاضبة.

- «لأنك في عطلة مرض منذ ثلاثة أشهر. ومنذ ذلك الحين لم تضعي قدمك في قسم محاربة الجرائم».

ماذا يقول؟!؟

جمّد جوابه الدم في عروقها، فأسقطت الهاتف من يدها على الأرض المبللة.

رغم المطر ومن وراء فوغن، وقع نظرها على اللوحة الإلكترونية:

أهلاً، اليوم هو الثلاثاء 15 أكتوبر 2013

الساعة الآن: الحادية عشرة ليلاً وتسع وخمسون دقيقة.

كان ثمّة خطأ في تلك اللوحة الإلكترونية. تاريخ اليوم هو 8 أكتوبر وليس 15 أكتوبر. مسحت قطرات المطر من على وجهها. في أذنيها صفير. وفي رأسها انبثق ضوء كأنه إشارة تحذير. إنها، منذ البداية، لم تكن تطارد فوغن فقط، وإنما عدواً آخر أكثر مكراً وضراوة: أليس نفسها.

ثم توالت في ذاكرتها صور متلاحقة على شكل لقطات من فيلم رعب، من أول لقطة إلى آخرها.

تذكرت أول الأمر ذلك الشاب الصيني المُقرِض، الذي رأته صباحاً في تشاينا تاون، وهو يحرك عقربي ساعة بول: «سأصحح التاريخ والساعة»، شرح لهما وهو يغير الرقم 8 بالرقم 15.

ثم افتتاحية تلك الجريدة التي كانت قد رمقتها أمام باب منزل كالب دون. هي الأخرى كانت بتاريخ 15 أكتوبر. تماماً كما رسالة فرانك مارشال الإلكترونية. تذكرت كل تلك الجزئيات التي لم تعرها أي اهتمام حينها...

معقول؟

ثم فهمت فجأة. فهمت أن نسيانها لا يتعلق بليلة واحدة، كما اعتقدت منذ البداية. إنه يتعلق بأسبوع بأكمله، على الأقل.

امتزجت دموع الغضب والحزن بحبات المطر على وجهها. ما زالت تمسك بالمسدس مصوباً نحو فوغن، إلا أن جسدها بأكمله كان يرتعش. ترنحت، قاومت الانهيار، وأحكمت القبض على مسدسها.

من جديد غطت تلك الغشاوة عقلها، غير أنها استطاعت، هذه المرة، أن تزيحها قليلاً. ثم انقشعت الغشاوة تماماً، مفسحة المجال للذكريات كي تطفو إلى السطح، وتلتحم شظاياها شيئاً فشيئاً.

مزّق البرق الظلام فجأة. التفتت أليس إلى الجهة الأخرى لحظة قصيرة. تلك اللحظة كانت قاتلة، إذ هجم عليها غابرييل وأسقطها على مقدمة السيارة. ضغطت أليس الزناد، غير أن الطلقة لم تصب الهدف.

حاصرها عدوها بكل ثقل جسده، وأوقف حركاتها بذراعه اليسرى. لمع البرق من جديد وأضاء الأفق. رفعت أليس عينيها فرأت المِحقنة في يده. تغيرت نظرتها. أحست بطعم الحديد في

فمها. رأت رأس المِحقنة اللامعة وهي تميل نحوها ببطء، ثم تغرس في أحد عروق عنقها وهي عاجزة تماماً على أن تقوم بأية حركة كي تتفاداها.

حقنها غابرييل. آلم المحلول جسد أليس وكأنه شحنة كهربائية. مزّقها الألم، مكسراً سياج ذاكرتها المقفل فجأة. وتهيّأ لها أن كيانها برمته يشتعل، وأن قنبلة يدوية مقبلة على الانفجار حلت محل قلبها.

أعماها ضياء أبيض.

أرعبها ما لمحته في تلك اللحظة.

ثم غابت عن الوجود.

أتذكّر...
قبل ثلاثة أشهر
12 يوليو 2013

جو من الرعب يخيم على العاصمة.

قبل أسبوع، فجّرت انتحارية ترتدي حزاماً ناسفاً نفسها داخل حافلة، في شارع سان-لازار، بعد انتهاء ساعات العمل ومغادرة الموظفين مكاتبهم. كان الحادث دموياً، والحصيلة فظيعة: ثمانية قتلى، وأحد عشر جريحاً.

وعُثر في اليوم نفسه على حقيبة في داخلها قنينة غاز ملأى بالمسامير في الخط رقم 4، بمحطة مونبارناس 6 بيانفنيه. ولحسن الحظ تمكنت فرقة تعطيل المتفجرات من تعطيلها قبل أن تحدث أية خسائر. لكن الرعب خيَّم على المدينة إثر ذلك.

عادت إلى الأذهان أشباح اعتداءات 1995. ولجأ رجال الأمن إلى إخلاء الأماكن الأثرية. استأثرت «عودة الإرهاب» إلى الواجهة في كل الجرائد وافتتاحيات نشرات الأخبار. ووُضع قسم محاربة الإرهاب تحت الضغط، فأكثر من موجة الاعتقالات في الأوساط الإسلامية، والحركات الفوضوية، والتيارات اليسارية المتطرفة.

في البداية لم أكن معنية بتلك القضايا والتحري حولها، إلى أن

طلب مني أنطوان فوكو نائب رئيس فرقة محاربة الإرهاب حضور إحدى جلسات التحقيق مع أحد المتهمين الموضوعين رهن الحراسة النظرية. كانت حراسته النظرية قد مددت ثلاث مرات، وتوشك على الانتهاء. كان فوكو، عند بداية حياته المهنية، قد اشتغل إلى جانب أبي سنوات عدة قبل أن تفترق سُبُلهما. وكان، إلى جانب ذلك، واحداً من المكوِّنين الذين درست على يدهم في مدرسة الشرطة. كان يقدّرني، ويعتقد أن لدي مؤهلات تسمح لي بالتحقيق مع المتهمين، والحال أني لم أكن أتوفر على مثل تلك المؤهلات.

- «نحن في حاجة إليك يا أليس فيما يخص هذه القضية».

- «وماذا تطلب مني على وجه التحديد؟».

- «منذ ثلاثة أيام ونحن ندفع بهذا الشخص نحو الاعتراف، لكنه لم يعترف بأي شيء. أعتقد أن في إمكانك أن تنجحي في ذلك».

- «لماذا؟ هل لأنني امرأة؟».

- «لا، لأنك تجيدين ذلك».

كان ينبغي أن يحمسني اقتراح كهذا، ومع ذلك لم أشعر بأية دفقة أدرنالين، فاندهشت. لم أكن أحس إلا بتعب شديد وبالرغبة في العودة إلى المنزل. منذ الصباح لم تفارقني آلام فظيعة في الرأس. إنه يوم من أيام الصيف الحارة الثقيلة. الجو حارق، وباريس برمتها تختنق تحت وطأة التلوث. كنت قد قضيت يوماً مرهِقاً في العمل، وكان مقر 36 قد تحول إلى فرن حقيقي، إذ ليس ثمّة جهاز تبريد، ولا أوكسجين كافٍ. كنت أحس ببقع العرق الباردة على قميصي، ومستعدة أن أرتكب جريمة قتل مقابل زجاجة كوكا كولا لايت، لكن الموزع الآلي كان عاطلاً.

- «اسمع، إذا كان رجالك قد فشلوا في ذلك، فإني لا أرى أية فائدة في محاولتي».

- «هيا يا أليس»، أصر فوكو، «لقد سبق لي أن شاهدتك تحققين مع أحد المتهمين».

- «سأضيع وقتك لا غير. فأنا لم أطّلع على ملف القضية و...».

- «سنطلعك على الملف، فتايلاندييه موافقة. حققي معه وانتزعي منه اسم أحد شركائه. بعد ذلك نتولى نحن أمره».

ترددتُ، ولكن هل كان لدي الاختيار فعلاً؟

أطلعني رجال محاربة الإرهاب على مدى ساعتين على الشخص وملفه في قاعة مزودة بمروحتين. كان اسم الشخص إبراهيم الرحماني، ويلقب بـ«بائع المدافع» أو «صانع المتفجرات»، وكان تحت مراقبة شرطة محاربة الإرهاب منذ مدة طويلة، ومتهماً بتزويد الجماعة التي كانت وراء انفجار حافلة سان-لازار بالمتفجرات. وقد ضُبطت في منزله كمية من مواد تصنيع المتفجرات، وهواتف حوِّلت إلى أجهزة تحكُّم عن بعد، بالإضافة إلى ترسانة حقيقية: أسلحة من كل الأحجام، سترات واقية من الرصاص... لم يعترف الشخص بأي شيء على الإطلاق على امتداد ثلاثة أيام. ولم تسفر الأبحاث التي خضع لها كمبيوتره الشخصي، ورسائله الإلكترونية، عن العثور على أي شيء يؤكد مشاركته في الاعتداء ولو بشكل غير مباشر.

إنها قضية مشوقة فعلاً، لكن معقدة. لم أتمكن من التركيز بسبب الحرارة. كان زميلان لي في العمل يتحدثان بسرعة ويزوداني بكثير من التفاصيل التي وجدت صعوبة في حفظها. ورغم قوة ذاكرتي، استعنت بدفتر سجلت عليه كل شيء.

رافقوني إلى القبو حيث تجرى الاستنطاقات. فوكو وتايلانديه كانا هناك، خلف الزجاج، مستعدين لمتابعة تحقيقي مع المتهم. حينها شعرت، أنا أيضاً، بالرغبة في الدخول إلى الحلبة.

كانت حرارة القبو شديدة، تكاد لا تطاق. وكان الرحماني مقيداً، جالساً خلف طاولة من خشب بالكاد أكبر من طاولة التلاميذ. كان عرقاناً، مطأطأ الرأس. بالكاد لاحظ وجودي.

شمرت عن ساعدي، ومسحت عرق جبيني. وحملت إليه قنينة ماء بلاستيكية كي أتقرب منه. فجأة، وعوض أن أمد بها إليه، فتحتها وجرعت منها جرعة كبيرة.

أنعشني الماء، أول الأمر، لكن سرعان ما أحسست أني سأتهاوى. أسدلت جفوني لأن دواراً عابراً أرغمني على أن أتكئ على الحائط لأستعيد توازني.

عندما فتحت عيني وجدتني تائهة. لم يكن في عقلي إلا الفراغ، وقلق فظيع: قلق أشعرني أني نقلت إلى مكان لا أعرفه.

أحسست أني فقدت توازني فجلست على الكرسي، وسألته:

- «من أنت؟ وماذا أفعل هنا؟».

أتذكّر كل شيء...
قبل أسبوع
الثلاثاء 8 أكتوبر 2013

السادسة مساء. باريس. نهاية يوم خريفي جميل.

تنعكس أشعة الشمس الغاربة على زجاج نوافذ العمارات، وسطح النهر، وواجهات السيارات، وأسفلت الشوارع.

أمضي بالسيارة صوب مستشفى ماري-كوري جنوب المقاطعة 15.

أمرّ بمرآب، أبواب إلكترونية، مصاعد، لأصل إلى غرفة الانتظار.

لدي موعد مع البروفسور إفارست كلوزو، مدير المؤسسة الوطنية للذاكرة، التي تشغل آخر طوابق المستشفى.

يُعدّ البروفسور كلوزو واحداً من أكبر المختصين الفرنسيين في مرض ألزهايمر. كنت قد تعرفت عليه قبل ثلاث سنوات أثناء التحقيق الذي أجراه فريقنا حول موت أخيه التوأم جان-بابتست، رئيس قسم أمراض القلب في المستشفى نفسها. كان الأخوان يكنان لبعضهما كراهية بلغت حد أن جان-بابتست، حين علِم أنه مصاب بسرطان البانكرياس، قرر أن ينتحر بطريقة توهم بأنه قُتل وأن كل

الدلائل تدين أخاه التوأم. وقد سُجن أخوه فعلاً لمدة قصيرة، قبل أن نتوصل إلى الحقيقة. بعد الإفراج عنه قال البروفسور لسيمور إننا أنقذناه من جحيم حقيقي، وإنه سيبقى مديناً لنا مدى الحياة. لم يكن ما قاله مجرد كلام مناسبات، إذ لما اتصلت به، عبر الهاتف، قبل أسبوع، لم يتردد في أن يحدد لي موعداً في اليوم نفسه.

بعد إخفاقي في التحقيق مع الإرهابي المفترض، استيقظت من إغماءتي، وعادت إلي ذاكرتي على الفور. لم تدم الإغماءة إلا ثلاث دقائق، لكنها حصلت أمام عيون جميع الحاضرين. أرغمتني تايلانديه على أن أحصل على إجازة، ثم عملت، أثناء إجازتي، على عرقلة عودتي إلى العمل، وذلك بأن طلبت من الطبيب تقريراً يدعو إلى توقيفي عن العمل. وهكذا وجدت نفسي مرغمة على أن أخضع إلى تحاليل طبية عميقة وأن أتردد على طبيب نفساني من جديد. ثم أحالوني إلى عطلة مرض طويلة الأمد رغم إرادتي.

لم يفاجئ ذلك أحداً: فتايلانديه كانت تسعى، منذ سنوات، إلى إبعادي عن قسم محاربة الجريمة. وإذا لم تنجح أثناء قضية فوغن فإن قضية الإرهابي منحتها فرصة الانتقام على طبق من ذهب. إلا أني لم أستسلم، فاتصلت بنقابتي، واستشرت محامياً متخصصاً في قانون العمل، وزرت عدة أطباء لأحصل على شهادة طبية تثبت سلامة صحتي.

لم أكن قلقة، بل كنت في حالة نفسية جيدة، وكانت لدي الرغبة في أن أخوض المعركة من أجل العودة إلى عملي. صحيح أنني كنت أعاني من فقدان الذاكرة المفاجئ والقصير، وأني كباقي البشر يحدث لي أن أغيب عما حولي للحظات قصيرة، إلا أني كنت أعزو ذلك إلى الضغط، والتعب، والإرهاق، والحرارة...

وقد أكد لي ذلك كل الأطباء الذين زرتهم. باستثناء طبيب واحد شك في خطر إصابتي بمرض عصبي، وطلب مني الخضوع إلى فحص من طريق السكانر.

ولأنني أفضّل الهجوم على الدفاع، فقد قررت أن أستبق الأمور فألجأ بمحض إرادتي إلى طبيب متخصص. وهكذا لجأت إلى البروفسور كلوزو الذي طلب إجراء مجموعة من الفحوصات والتحاليل. أمضيت، الأسبوع الماضي، يوماً بأكمله في ذلك المستشفى الملعون، متحملة كل أشكال وأنواع التحاليل، وعدة تجارب حول ذاكرتي. ثم حدد لي كلوزو موعداً جديداً اليوم كي يطلعني على النتائج.

كنت مطمئنة تماماً، وأنتظر العودة إلى عملي بفارغ الصبر، بل عزمت على أن أحتفل بتلك العودة الليلة صحبة صديقاتي الثلاث في الجامعة: كاترين، ومليكة، وسامية. كنا قد تواعدنا على أن نشرب كوكتيلاً في الشانزلزيه و. . .

- «البروفسور سيستقبلك حالاً».

رافقتني السكرتيرة إلى مكتب يطل على نهر السين. كان البروفسور كلوزو جالساً خلف مكتبه - الذي كان على شكل جناح طائرة أملس لامعاً كمرآة - ينقر على شاشة كمبيوتره المحمول. يبدو البروفسور المتخصص في الجهاز العصبي أول الأمر شخصاً مهملاً: شعر فوضوي، سحنة ممتقعة، وجه مهمل، لحية غير محلوقة. إنه يوحي إلى من يراه على تلك الحال أنه قضى الليل يلعب البوكر ويشرب الخمر. كان يرتدي وزرته الطبية البيضاء، تحتها قميص فيشي مزرر بإهمال وفوقه بلوفر وكأنه من صنع جدة حمقاء تماماً.

كان البروفسور رغم مظهره المهمل يوحي بالثقة بفضل شهرته: كان قد شارك، خلال السنوات الأخيرة، في وضع أُسُس جديدة لفحص مرض ألزهايمر، وتعتبر مؤسسة الذاكرة التي يسيِّرها واحدة من المؤسسات الأكثر شهرة فيما يتعلق بالأبحاث، والاعتناء بمرضى ألزهايمر. وحين تتطرق وسائل الإعلام إلى هذا الموضع، فإن كلوزو هو من تلجأ إليه قبل غيره.

- «مساء الخير، آنسة شافر، اجلسي من فضلك».

غربت الشمس بعد قليل، فعمّت العتمة الغرفة. نزع كلوزو نظارته ونظر إلي نظرة بُوم قبل أن يضغط زر مصباح فوق مكتبه. ضغط زراً من أزرار الكمبيوتر الموصول إلى شاشة مسطحة معلقة على الحائط. خمنت أن نتائج الفحوصات هي ما ظهر على اللوحة اللماعة.

- «سأكون صريحاً معك يا أليس، الفحوصات التي أجريت لك مقلقة»، صمت لحظة ثم نهض كي يشرح.

- «إنها صور دماغك الملتقطة عند الفحص بتقينة الرنين المغناطيسي MRI، وبالضبط الصور المتعلقة بذلك الجزء من دماغك الذي يلعب دوراً أساسياً بالنسبة إلى الذاكرة، والتموقع في الفضاء».

وعيَّن بواسطة قلم خاص ذلك الجزء على اللوحة اللماعة.

- «هذا الجزء مصاب قليلاً، وهو أمر غير طبيعي في سنك».

أمهلني بعض الوقت ريثما أتقبّل الخبر كي ينتقل إلى صورة أخرى.

- «أجري لك في الأسبوع الماضي فحص ثانٍ بواسطة PET Scan مكّننا من مشاهدة عمل كل جزء من أجزاء دماغك، و...».

قاطعته:

- «طيب، وماهي النتيجة؟».

تنهّد البروفسور.

- «لاحظنا بداية إصابة في بعض الأجزاء».

اقترب من الصورة وأشار إلى جزء منها.

- «هل ترين هذه البقع الحمراء؟ إنها تشير إلى إصابة بمرض ألزهايمر».

خيَّم الصمت على المكتب. كنت مندهشة، ثائرة، عاجزة عن التفكير.

- «مستحيل... فأنا لم أتجاوز الثامنة والثلاثين».

- «إنه شيء نادر فعلاً، ولكنه ليس مستحيلاً».

- «لا، لقد أخطأت».

رفضت التشخيص. كنت أعرف أنه لا يوجد أي دواء فعال ضدّ هذا المرض.

- «أتفهّم انفعالك يا أليس، وأنصحك الآن أن لا يكون ردّ فعلك مندفعاً. امنحي نفسك مدة للتفكير. لا شيء يرغمك الآن أن تغيري نمط عيشك...».

- «لست مريضة!».

- «إنه خبر يصعب تقبله يا أليس»، واصل كلوزو بصوت هادئ جداً، «ولكنك شابة، والمرض ما زال في بدايته. ثم إن مجموعةً من الأبحاث تُجرى حالياً حول أدوية جديدة. للأسف، نحن إلى حدٍّ الآن لا نستطيع تشخيص المرض مبكراً لعدم توفرنا على وسائل فحص فعالة، إلا أن كل ذلك في طريقه نحو التغير و...».

لم أعد راغبة في الاستماع إليه. نهضت فجأة وغادرت المكتب دون أن ألتفت.

*

البهو. المصعد الذي ينفتح على الممر الرئيس. توالي البنايات الأسمنتية. مرآب السيارات. صوت محرك السيارة.

فتحت كل نوافذ السيارة. قدتها متطايرة الشعر، وصوت الراديو على آخره. غيتار جوني ونتر يصاحب أغنية: «إلى أقصى الطريق»[1].

أحس أني بصحة جيدة. مليئة بالحياة. لن أموت. الحياة بأكملها ما زالت أمامي.

زدت من سرعة السيارة. أتجاوز السيارات الأخرى. أضغط البوق. رصيف غرنيل، فرصيف برانلي، فرصيف أرساي... لست مريضة. ذاكرتي قوية. ذاك ما قيل لي في المدرسة دائماً، وفي العمل، وعندما نقوم بالتحقيقات، فأنا لا أنسى وجهاً رأيته أبداً، وأخزّن كل التفاصيل، بل إن في إمكاني أن أستظهر، بشكل كامل تقريباً، عشرات من الصفحات من تلك التي يدبجها المكلف بالإجراءات. أتذكر كل شيء. كل شيء!

دماغي يغلي، يدور، يعمل بأقصى سرعة. ولكي أقنع نفسي بجودة ذاكرتي أخذت أستظهر كل ما يخطر لي على البال:

ستة × سبعة: اثنان وأربعون / ثمانية × تسعة: اثنان وتسعون / عاصمة باكستان: إسلام أباد / عاصمة مدغشقر: انتاناناريفو / مات ستالين في 5 مارس 1953/ بُني حائط برلين ليلة 12 إلى 13 أغسطس 1961.

---

(1) Further up on the road.

أتذكر كل شيء.

مساء باريس هو اسم عطر جدتي، وهو مزيج من البرغموت والياسمين / نزلت أبولو 11 على سطح القمر في 20 يوليو 1969 / بيكي تاتشر هو اسم حبيبة توم سوير / تناولت وجبة الغذاء عند دسريبه وكانت عبارة عن سمك الدوراد، وتناول سيمور سمكاً أيضاً، وشربنا قهوة، ودفعنا 79,83 يورو.

أتذكر كل شيء.

حتى لو لم يذكر، أعرف أن إريك كلابتون هو الذي عزف على الغيتار في أغنية البيتلز «جين يبكي غيتاري برقّة» في ألبومهم «وايت ألبوم» / ملأت هذا الصباح خزان البنزين في محطة BP في شارع مورا، وكان ثمن البنزين من دون رصاص 1,684 يورو / في فيلم «الموت يلاحقك»[2]، يظهر ألفريد هتشكوك بعد الافتتاحية مباشرة، إذ ينغلق باب الحافلة في وجهه ويتركه واقفاً على الرصيف.

أتذكر كل شيء.

في روايات كونان دويل، لا ينطق شيرلوك هولمز أبداً بعبارة: «بديهي، يا عزيزي واتسن» / رقم بطاقتي البنكية السري هو 9728 / رقمها 05735233375461 / أول فيلم أخرجه ستانلي كوبريك ليس فيلم «قبلة القاتل»[3]،

---

(1) While my guitar gently weeps.

(2) La mort aux trousses.

(3) Le baiser du tueur.

ولكنه فيلم «خوف ورغبة»[1] / الحَكَم الذي قاد مباراة بنفيكا ضد أولمبيك مارساي واعتبر الهدف الذي سجله «باتا»، لاعب بنفيكا، بيده هدفاً صحيحاً اسمه ماريسل فون لوجنهوف. يومها بكى أبي بسبب ذلك / عملة البارغواي هي الغراني / عملة البتسوانا هي البّولا / كوازاكي هو نوع دراجة جدي النارية / في سنه العشرين كان لأبي سيارة رينو 8 غورديني زرقاء.

أتذكر كل شيء.

زبغنييف بريزنر هو مؤلف موسيقى فيلم: «حياة فيرونيك المزدوجة»[2] / عندما كنت طالبة كان رقم غرفتي 308 / أتذكر أين كنت يوم 11 سبتمبر 2001، كنت في غرفة في أحد الفنادق، خلال العطلة التي قضيتها في مدريد، كنت مع عشيق أكبر مني سناً، عميد شرطة متزوج / وأتذكر تلك المرحلة المعقدة من حياتي التي تعرّفت خلالها إلى رجال مدمنين أكرههم. كان ذلك قبل أن أدرك أن عليك أن تحب نفسك قليلاً قبل أن تتمكن من حب الآخرين...

*

مضيت في قنطرة لزنفاليد حتى شارع فرنكلن-روزفلت، ومنه إلى المنحدر المؤدي إلى مرآب في قبو. والتحقت بالصديقات في موتور فيلاج عند مدار الشانزلزيه.

- «مرحباً يا أليس».

كنّ جالسات في شرفة مقهى فيات كافي. طلبت سبريتز

---

(1) Fear and desire.

(2) La double vie de Véronique.

بالشمبانيا وشربته دفعة واحدة. وانغمسنا في إعادة تشكيل العالم. لهونا، وتبادلنا النكت، وتحدثنا عن مشاكلنا مع الرجال، وعن الملابس، وعن العمل، ثم طلبنا كؤوساً من البينك مرتيني وشربنا نخب صداقتنا. ثم طفنا عدة مقاهٍ أخرى: المنلايت، الطابق الثالث عشر، اللوندنديري. ورقصت، ومنحت الرجال فرصة الاقتراب مني، والتحرش بي، وملامستي. لست مريضة؛ بل إني مستعدة لبعض اللهو.

لن أموت. لن يتحلل جسدي. لا أريد أن أكون امرأة مفككة. ولن أذبل كزهرة قطفت قبل الأوان. شربت البكاردي موخيتو، والشمبانيا، والبومباي تونيك...

لن أفقد الذاكرة. ولن أقضي ما تبقى من حياتي أشتم النساء اللواتي سيسهرن على مساعدتي وعلاجي، وآكل الفواكه المطبوخة بالسكر وأنا شاردة تماماً.

كل شيء يدور من حولي. سكرت قليلاً، مرحت كثيراً. كنت ممتلئة بالحرية. مرَّ الوقت. تجاوزت الساعة منتصف الليل. ودعت الفتيات ومضيت إلى المرآب. المرآب في الطابق الثالث من القبو. الضوء شحيح. رائحة البول منتشرة. كعبي العالي يطقطق فوق الإسفلت. شعرت بالغثيان، بالدوخة، فترنحت. انقلب السُكر، في ثوانٍ قليلة، إلى حزن. أحسست بالضغط، بالتراخي، بغصة في حلقي. ثم عاد كل شيء إلى السطح: صورة دماغي المهاجَم من المرض، وخوفي من الغرق النهائي. فتحت السيارة بجهاز التحكم عن بعد، وانهرت على المقعد خلف المقود. اغرورقت عيناي بالدموع. صوت ما... ثمّة شخص ما على المقاعد الخلفية! نهضت فجأة. انبثق من العتمة خيال وجه.

- «اللعنة يا سيمور، لقد أفزعتني!».
- «مساء الخير يا أليس».
- «ماذا تفعل هنا؟».
- «كنت أنتظر أن أنفرد بك. تلقيت مكالمة من كلوزو فقلقت عليك».
- «اللعنة، ألا يوجد شيء اسمه السر المهني؟».
- «لم يكن في حاجة إلى أن يخبرني، فمنذ ثلاثة أشهر ننتظر أنا وأبوك هذه اللحظة».

ضغطت زر الضوء الذي في سقف السيارة لأنظر إليه. كانت عيناه، هو الآخر، مبللتان بالدموع. لكنه مسحهما بكمه وواصل:

- «القرار بيدك يا أليس، غير أني أعتقد أن عليك أن تتصرفي بسرعة. لقد علّمتني في العمل أن لا أؤجل عمل اليوم إلى الغد، وأن أمسك الثور من قرنيه ولا أفلته أبداً. ما يجعل منك أحسن شرطية هو أنك لا تقتصدين الجهد أبداً، إذ كنت دائماً أول من يلتحق بمسرح الجريمة. إنك تنتصرين دائماً».
- «لا أحد يستطيع أن ينتصر على ألزهايمر».

رأيته في مرآة السيارة وهو يخرج من غلاف كارتوني تذكرة طائرة، وكُتيِّباً عليه صورة بناء كبير شيِّد حديثاً.

- «حدثتني أمي عن هذه المؤسسة الاستشفائية الموجودة في «المين»، واسمها مستشفى سوباغو كوتاج».
- «وما علاقة أمك بهذا؟».
- «تعرفين أنها تعاني من مرض بركنسون. قبل عامين كانت لا تتوقف عن الارتعاش، حتى تحولت حياتها إلى جحيم. وفي إحدى زياراتها لطبيبها المعالج اقترح عليها هذا الأخير علاجاً جديداً:

فقاموا بزرع قطبين كهربائيين دقيقين في دماغها، موصولين بعلبة منشّطة مزروعة تحت الناحرة. إنه شيء يشبه المُنظِّم».

- «سبق وحدثتني عن ذلك يا سيمور، واعترفت بنفسك بأن الشحنات الكهربائية لم تحل دون تفاقم المرض».

- «ربما، ولكنها قضت على أعراضه الأكثر مضايقة، وهي اليوم أحسن حالاً مما كانت عليه من قبل».

- «لا علاقة للألزهايمر ببركنسون على الإطلاق».

- «أعرف»، قال وهو يناولني الكُتيِّب، «ولكن انظري إلى هذه المؤسسة: إنهم يعملون هناك على تنشيط الدماغ لمحاربة أعراض ألزهايمر. ونتائجهم الأولى مشجعة. لم يكن من السهل أن أعثر لك على مكان ضمن برنامجهم. أديت كل المصاريف، لكن يجب أن تذهبي هناك أولاً. لقد حجزت لك على الطائرة المتوجهة إلى بوسطن».

أشرت برأسي رافضة.

- «احتفظ بنقودك يا سيمور. لا فائدة من كل ذلك. سأموت، هذا كل ما في الأمر».

- «أمامك الليل كله لتفكري»، قال ملحاً، «في انتظار ذلك، سأصحبك إلى المنزل، فأنت غير قادرة على السِياقة».

كنت جد متعبة، لذلك لم أصر على معارضته. انتقلت إلى المقعد المجاور وتركته يقود السيارة.

كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل وسبع عشرة دقيقة، حين التقطت كاميرا المراقبة في المرآب صورتنا ونحن نغادر المكان.

24

نقطة البداية

كلما تزايد الخطر تزايد ما ينقذنا منه.

فردريك هولدرلين

تربيكا

الرابعة صباحاً وخمسون دقيقة

ثلاث ساعات قبل اللقاء بين أليس وغابرييل

رنَّ هاتف الغرفة 308 في فندق غرينويتش ست مرات قبل أن ترفع السماعة.

- «ألو...»، أجاب صوت ثقيل خرج لتوه من نوم عميق.

- «هنا مركز استقبال المكالمات يا سيد كوين. يحرجني أن أقلق راحتك، إلا أن ثمّة مكالمة: شخص اسمه توماس غريك يودُّ مكالمتك».

- «في مثل هذه الساعة من الليل؟ ألا تدري ما الساعة الآن يا هذا؟».

- «ستحل الخامسة صباحاً بعد قليل، يا سيدي، لقد أخبرني أن الأمر لا يحتمل الانتظار».

- «أوكيه، حوّل المكالمة إلى الغرفة».

اتكأ غابرييل على الوسادة ليجلس على حافة السرير. كانت الغرفة غارقة في الظلام، إلا أن الضوء المنبعث من الراديو - المنبه كان يسمح بمشاهدة الفوضى التي تعم الغرفة. كانت الأرضية مبرقعة بما تساقط عليها من خمر، والملابس مرمية عليها كيفما اتفق. لم تستيقظ المرأة التي كانت نائمة في جانبه. احتاج إلى شيء من الوقت كي يتذكر اسمها: هلينا سباتيني، إحدى زميلاته في فلوريدا، التقاها في الفندق أمس، وأقنعها، بعد أن شربا بضعة كؤوس من المارتيني، بأن تصعد معه إلى غرفته حيث تعرفا إلى بعضهما أكثر، وشربا كل الخمر التي كانت في الغرفة.

حكّ غابرييل جفونه وتنهد. لقد كره ما آل إليه منذ تخلت عنه زوجته. كره أن يرى نفسه وقد تحول إلى شبح تائه لا شيء يقف أمام انزلاقه نحو الهاوية. **لا توجد تراجيديا أكبر من تراجيديا شخص انتهى أمره، ضائع في متاهة الحياة**: خطرت له جملة مارتن لوثر كينغ في تلك اللحظة نفسها. إنها تنطبق عليه تماماً.

- «غابرييل؟ ألو غابرييل!»، كان الصوت يصرخ في الهاتف.

نهض كوين من على السرير ووضع سماعة الهاتف على أذنه، ثم أغلق الباب الذي يفصل الغرفة عن الصالة الصغرى المجاورة.

- «طاب يومك يا توماس».

- «حاولت الاتصال بك على هاتفك الثابت في أستوريا، ثم على هاتفك المحمول، لكنك لم تجب».

- «قد تكون البطارية فارغة، كيف عرفت مكاني؟».

- «تذكرت أنه الأسبوع السنوي لمؤتمر الجمعية الأمريكية لعلماء النفس، فاتصلت بالسكرتاريا، فأخبروني أنهم حجزوا لك غرفة في غرينويتش».

- «ماذا تريد؟».

- «سمعت أنك لاقيت نجاحاً كبيراً على إثر إلقائك لمحاضرتك أمس حول النتائج النفسية لمرض ألزهايمر».

- «دع الإطراءات جانباً، من فضلك».

- «إنك على حقّ، سأتكلم بشكل مباشر إذن: أريد رأيك حول مريضة معينة».

- «في الخامسة صباحاً؟ أذكرك يا توماس أننا لم نعد شركاء!».

- «يا لها من خسارة، فقد كنا نشكل فريقاً جيداً نحن الاثنين. كنا تكاملاً مثالياً بين عالم نفس ومتخصص في الجهاز العصبي».

- «صحيح، غير أن ذلك انتهى الآن، وبِعتُك حصتي في العيادة».

- «تلك أكبر حماقة ارتكبتها في حياتك...».

غضب غابرييل.

- «لن نعود إلى النقاش نفسه مرة أخرى! فأنت على علم تام بدوافعي!».

- «نعم، أردت أن تنقل نشاطك إلى لندن كي تحصل على حقّ المشاركة في تربية ابنك. فماذا كانت النتيجة؟ صدر حكم قضائي بإبعادك عن تربيته أرغمك على أن تعود إلى الولايات المتحدة».

غامت نظرة غابرييل، وأخذ يمسّد صدغيه بينما صديقه يعود إلى الكلام.

- «هلّا ألقيت نظرة على الملف، من فضلك؟ إنها حالة ألزهايمر في سن مبكرة، وستجذبك! سأبعث لك بالملف على إيميلك، وسأعاود الاتصال بك بعد عشرين دقيقة».

- «أبداً، سأعود إلى النوم، ولا تتصل بي ثانية، من فضلك»، قال بشكل حاسم قبل أن ينهي المكالمة.

عكس الزجاج أمامه وجهه المتعب، غير الحليق، المحبَط. رأى على الأرض هاتفه المحمول - فارغ البطارية - فأوصله بالكهرباء. ذهب إلى الحمام حيث أمضى عشر دقائق كي يتغلب على النوم. عاد إلى الصالة مرتدياً رداء الحمام. حضّر لنفسه قهوة إسبريسو وأخذ يستمتع بلذتها وهو يتأمل مياه الهيدسون التي تلمع تحت ضوء الصباح. حضّر قهوة أخرى وشغّل الكمبيوتر. وكما كان متوقعاً، وجد إيميلاً من توماس.

يا له من شخص عنيد!

أرسل إليه المتخصص في الجهاز العصبي ملف مريضته، وهو يدرك أن غابرييل لن يصمد أمام الرغبة في الاطّلاع عليه، وقد كان محقاً في ذلك.

فتح غابرييل ملف الـPDF وتصفحه عمودياً. أثارته بالفعل تلك الحالة غير المعتادة: أليس شافر، شابة فرنسية في الثامنة والثلاثين من عمرها، جميلة، متناسقة القسمات، مشرقة الوجه. توقف عند الصورة قليلاً. التقت نظراتهما. بؤبؤان صافيان، ونظرة قوية وضعيفة في الوقت نفسه. فيها شيء من الغرابة لا يُسبر. وتنهّد. ها هو ذا المرض اللعين ينشر الدمار بين صفوف الشباب أكثر فأكثر.

أخذ يتصفح الملف بدقة. كل التحاليل والراديوهات تؤكد صحة تشخيص البروفسور كلوزو النهائي، حتى إن لم يسبق له أن التقى به، فقد كان على علم بشهرة المتخصص الفرنسي في الجهاز العصبي. إنه أحد المراجع الكبرى في مجال اختصاصه.

كان الجزء الثاني من الملف يتضمن إجراءات دخول أليس شافر

إلى سوباغو كوتاج، المستشفى المتخصص في اضطرابات الذاكرة وفي العلاج والبحث المعمق حول مرض ألزهايمر، الذي أسسه رفقة توماس وشريكين آخرين. كانت أليس قد استقبلت بالمستشفى قبل ستة أيام، أي في 9 أكتوبر، لتتلقى علاجاً عبر تنشيط خلايا دماغها العصبية، وهو أحد أهم اختصاصات المستشفى. وفي 10 أكتوبر، أجريت لها عملية زرع علبة منشطة لخلايا الأعصاب مهمتها تزويد تلك الخلايا العصبية بتنشيط كهربائي متواصل، يُعرف لدى المرضى باسم «المنظِّم الدماغي». ثم لا شيء بعد ذلك.

شيء غريب.

كان ينبغي بحسب البرتوكول الجاري به العمل أن تتم عملية زرع المنافذ الثلاث في اليوم التالي لوصول المريضة إلى المستشفى، وإلا فإن المنظِّم سيكون عديم الجدوى. كان غابرييل يرتشف آخر جرعة من قهوته حين رنَّ هاتفه المحمول.

- «هل قرأت الملف؟»، سأله توماس.

- «ما زلت أقرأه. ماذا تنتظر مني تحديداً؟».

- «مساعدتك، لأني في ورطة حقيقية. لقد فرّت أليس شافر من المستشفى مساء أمس».

- «هربت؟».

- «إنها شرطية، وتعرف كيف تقوم بذلك. غادرت غرفتها دون أن تخبر أحداً. نجحت في خداع الممرضين، بل جرحت كالب دون الذي حاول أن يقبض عليها».

- «دون؟ الحارس؟».

- «نعم، شهر ذلك الغبي مسدسه، وتعارك مع الفتاة محاولاً تقييدها بالأصفاد، لكنها تغلبت عليه. ويبدو أن طلقة المسدس

انطلقت بشكل عفوي، لكنها تمكنت من الفرار حاملة المسدس والأصفاد معها».

- «وهل جُرح جرحاً خطيراً؟».

- «لا، استقرت الرصاصة في عضلة فخذه. إنه يتلقى العلاج هنا في المستشفى، ومستعد أن لا يلجأ إلى الشرطة، شريطة أن نمنحه مئة ألف دولار».

- «هربت إحدى المريضات من المستشفى، وأخذت معها سلاح الحارس بعد أن جرحته ولم تبلغ الشرطة؟ إنك إنسان مستهتر، يا عزيزي، وستسجن بسبب ذلك!».

- «إخبار الشرطة يعني إخبار العدالة والصحافة بالأمر، ما قد يؤدّي إلى إغلاق المستشفى. لن أتخلى عما بنيته طوال عمر بأكمله بسبب ذلك الحارس الغبي. لهذا احتجت إليك يا غابرييل: أريدك أن تعيدها إليّ».

- «ولماذا أنا؟ وكيف أنفّذ ذلك؟».

- «قمت بتحرياتي. أليس شافر في نيويورك الآن، وأنت كذلك. ركبت تاكسي وتوجهت إلى بورتلاند في الساعة التاسعة مساء. بعد ذلك ركبت القطار، فالحافلة حتى مانهاتن. ووصلت إلى محطة الحافلات هذا الصباح في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة».

- «بما أنك تعرف أين توجد، فلماذا لا تأتي وتُلقي القبض عليها بنفسك؟».

- «لا أستطيع التغيب عن المستشفى في قمة الأزمة. لقد ركبت أغاتا، مساعِدتي، الطائرة متوجهة إلى هناك، وستصل بعد ساعتين. ولكني أودُّ أن تتكفل أنت بالأمر. إن لديك موهبة حقيقية في إقناع الآخرين. لديك اللمسة، والدافع الذي...».

- «حسناً، كفى إطراء، وقل لي كيف تأكدت أنها في نيويورك؟».

- «بفضل جهاز الـGSM الذي نضعه في نعال المرضى. لقد حددت مكانها بالضبط. إنها في قلب سنترال بارك، في مكان مشجر يدعى الرمبل. ويبدو أنها لم تتحرك منذ نصف ساعة. إذن، فهي إما ميتة أو نائمة، أو تخلصت من حذائها. أرجوك ياغابرييل، اذهب إلى هناك والقِ نظرة فقط. إنني أطلب منك ذلك كصديق. يجب أن نصل إليها قبل الشرطة».

فكر كوين قليلاً.

- «غابرييل؟ هل ما زلت في الاستماع؟»، تساءل توماس قلقاً.

- «زودني بمعلومات أكثر حولها. قرأت في التقرير أنك زرعت لها قبل أربعة أيام مولِّداً تحت الجلد».

- «نعم، هو آخر ما تمّ اختراعه، إنه صغير جداً، لا يتجاوز حجمه حجم شريحة SIM، ستطّلع عليه، إنه مدهش».

- «لماذا لم تُنجزوا الشطر الثاني من العملية بزرع منفذ كهربائي؟».

- «لأنها أصيبت بحالة جنون مفاجئة! فقدت كل صلة بالواقع. وإذا أضفت إلى ذلك فقدانها للذاكرة...».

- «ماذا تقصد؟».

- «تعاني شافر من فقدان الذاكرة بالنسبة إلى كل ما له علاقة بالحاضر بسبب رفضها للمرض. فعقلها يرفض كل الأحداث التي تلت إخبارها إنها مصابة بألزهايمر».

- «تعني أنها لم تعد تخزّن أية ذكريات جديدة؟».

- «ولا ذكرى واحدة، وذلك منذ سهرة الخمر تلك مع

صديقاتها قبل أسبوع، مباشرة بعد تلقيها تشخيص كلوزو للمرض. تعود ذاكرتها إلى النقطة نفسها دائماً. إنها لا تعرف أنها مريضة، وتعتقد كل صباح أنها في الأمس كانت رفقة صديقاتها في الشانزلزيه. ونسيت أيضاً أنها في عطلة مرض منذ ثلاثة أشهر».

قال غابرييل مشيراً إلى نسبية ما يقوله توماس غريك:

- «نحن نعرف أن نكران وزوال الذاكرة المتعلقة بالماضي من خصائص مرض...».

- «الفارق يكمن في أن هذه الفتاة لا يظهر عليها أنها مريضة على الإطلاق. إنها حادة الذكاء، وذات طبع خاص».

تنهّد غابرييل مستسلماً. لا أحد يعرف كيف يثير فضوله مثل غريك. وواضح جداً أن حالة هذه الفتاة لغز محيّر.

- «حسناً، أنا موافق، وسأذهب لأرى إن كنت أستطيع العثور عليها».

- «شكراً أيها الصديق! إنك تنقذني!»، قال توماس متحمساً.

- «لكني لن أعدك بشيء!»، وضّح كوين.

- «أنا متأكد أنك ستنجح في المهمة! سأبعث لك بالمعطيات المضبوطة على هاتفك المحمول. اتصل بي حين يجدّ جديد».

أنهى غابرييل المكالمة وهو يحس أنه خُدع. عندما عاد إلى نيويورك كان غابرييل قد أنشأ في أستوريا مركزه الطبي الخاص، المتخصص في التدخلات المنزلية لتقديم خدمات مستعجلة للمصابين بأمراض نفسية في منازلهم. بعث برسالة إلكترونية إلى سكرتيرته يطلب منها أن تتصل بالطبيب الذي اعتاد أن ينوب عنه في المداومة الصباحية، حين يكون ثمّة عائق.

ارتدى نفس الثياب التي ارتداها أمس - جينز داكن اللون،

قميص أزرق، سترة سوداء، وحذاء كونفرس - قبل أن يفتح الدولاب، حيث ترك في الأمس حقيبته الطبية. ثم وضع في محفظة جلدية صغيرة مِحقنة فيها مخدر قوي. من يدري، إنها فتاة مسلحة، وقد تكون خطيرة. وضع المحفظة الجلدية الصغيرة داخل الحقيبة وغادر الغرفة.

عندما نزل إلى مكتب الاستقبال طلب من البواب أن ينادي على تاكسي، ثم انتبه إلى أنه نسي في الغرفة الجهاز الذي يتحكم بسلامة الحقيبة، فهو ما أن يبتعد عنه بأكثر من خمسة وعشرين متراً حتى تنطلق صفارة إنذار تليها شحنة كهربائية مبرمجة للعمل تلقائياً.

ولأن التاكسي كان قد وصل في تلك اللحظة، قرر أن لا يصعد إلى الغرفة كي لا يضيع الوقت، وعهد بالحقيبة إلى مستودع الفندق.

سلمه العامل تذكرة تحمل رقم 127، ويظهر عليها حرفا G وH كشعار لفندق غرينويتش.

25

قُبيل ذلك

(...) ومن خلال رقَّة جفونها الأولى،
عرفتُها إنها هي، تلك التي لم أكن أنتظرها
وأنتظرها (...)

ألبير كوهين

مانهاتن
السابعة صباحاً وخمس عشرة دقيقة
قبل أول لقاء بين أليس وغابرييل بخمس وأربعين دقيقة

تتردد موسيقى الجاز داخل التاكسي.

لحظة قصيرة كانت كافية كي يتعرف غابرييل إلى ذلك التسجيل الأسطوري: إنه بيل إفانس يعزف «جميعكم»[1]، لكول بورتر، وقد تمّ التسجيل في قرية فرغارد سنة 1961. على الرغم من أنه لا يجيد العزف على أية آلة، فإن غابرييل الطبيب النفساني يعشق موسيقى الجاز، ويتردد على حفلاتها، باحثاً عن نغمة جديدة أو عن تلك الانفعالات الأولى التي عرفها في أندية شيكاغو يوم كان طالباً.

أجبرت الأشغال في شارع هارسون التاكسي على أن يبحث عن

---

(1) All of you.

طرق فرعية كي يصل إلى شارع هودسن. كان غابرييل يواصل، في المقعد الخلفي قراءة ملف شافر على شاشة هاتفه. كان الجزء الأخير من الملف عبارة عن معلومات حول شخصية أليس شافر دوّنها طبيب نفساني من أطباء المستشفى، وذيّلها بمقالات صحفية فرنسية مترجمة ترجمة مختصرة. كل الصحف كانت تتحدث عن قضية السفاح إريك فوغن، الذي نشر الرعب في العاصمة الفرنسية سنة 2011. قضية لم يكن غابرييل قد سمع بها. لم يكن حجم شاشة الهاتف واهتزازات التاكسي يسهّلان عليه عملية القراءة. لذلك حين قرأ أولى المقالات، اعتقد أن الأمر يتعلق بتحقيق قامت به شافر، وتهيّأ له أنه في صدد قراءة واحدة من تلك القصص البوليسية التي كان يقرؤها أحياناً وهو مسافر عبر القطار أو الطائرة.

من ضمن تلك المقالات التي تعرضت إلى مأساة أليس، مقالة في مجلة **باري ماتش**، مكونة من أربع صفحات: لقد طاردت الشرطية الشابة القاتل، ولكنها تحولت، هي الأخرى، إلى واحدة من ضحاياه. تجمّد الدم في عروق غابرييل لما قرأ أن فوغن بقر بطنها، وطعن ابنها في بطنها طعنات عدة، قبل أن يتركها شبه ميتة وسط بركة من الدم. وبلغت المأساة ذروتها حين تعرض بول زوجها لحادثة سير قاتلة حين كان في الطريق للالتحاق بها في المستشفى.

أحس بالغثيان بسبب الصدمة. واعتقد للحظة أنه سيتقيأ القهوة التي شربها. بقي غابرييل، في الوقت الذي كان يمضي التاكسي في الشارع الثامن، واضعاً جبينه على النافذة، جامداً لا يتحرك لعدة دقائق. بعد كل ما قاسته، كيف يعقل أن يُسلط عليها مرض ألزهايمر أيضاً، وهي لم تبلغ من العمر إلا الثامنة والثلاثين؟

*

حلَّ النهار وشرعت أشعة الشمس الأولى تخترق غابة ناطحات السحاب. مضى التاكسي في سنترال بارك غرباً، ثم نزل غابرييل عند منعطف الزُقاق 72، بمحاذاة مدخل الحديقة الغربي.

أدّى الطبيب النفساني الثمن للسائق، وصفق الباب. كان الجو بارداً، إلا أن السماء الصافية الخالية من السُحب، تبشر بيوم خريفي جميل. نظر حوله. كانت حركة السير قد شرعت في الاشتداد. وفي الشارع، كانت عربات البرتزلس والهوت دوغ قد أخذت مكانها المعهود. وشرع أحد الباعة يفرش فوق الرصيف، على عجل، ملصقاته، وقمصانه، وحليه الحامل لصور جون لينون.

دخل غابرييل البارك، حيث تسود أجواء كأجواء الأرياف. تجاوز حديقة ستراوبيري فيلدز، ثم مضى في الطريق المحاذي حتى شيري هيلز. كان ضوء الصباح جميلاً، والجو منعشاً جافاً، والمكان يعجُّ بالحركة: أشخاص، منهم من يمارس رياضة الركض، ومنهم من يركب الدراجات العادية، ومنهم من يفسّحون كلابهم.

رنَّ هاتف غابرييل في جيب سترته السوداء الواقية من المطر. إنها رسالة SMS من توماس، يحدد له مكان أليس شافر بالضبط. تقول آخر المعلومات إن أليس ما زالت في مكان ما من الضفة الأخرى للجسر الذي يعبُر البحيرة.

حدد غابرييل موقعه بسهولة: خلف ظهره ناطحتا سحاب سان ريمو التوأمان، وأبعد منهما قليلاً شرفة البتيسدا فونتين، وعلى يساره قنطرة بوو. مضى فوق القنطرة الطويلة التي تعبُر إحدى ضفاف البحيرة، متوجهاً نحو الرمبل.

لم يسبق لغابرييل أن وضع قدميه في ذلك الجزء الطبيعي من

سنترال بارك. وصل، بعد أن مرّ بأجَمات، وشجيرات متفرقة، إلى غابة حقيقية، أشجارها كثيرة ومتنوعة، وأرضيتها مفروشة بالأوراق الميتة، وتتخللها صخور عالية. كان يمشي دون أن يرفع بصره عن الهاتف حتى لا يتيه. كان يجد صعوبة في الاعتقاد أنه من الممكن أن توجد غابة حقيقية على بعد بضع مئات من الأمتار فقط عن مكان يعجُّ بالحركة. كان كلما تقدم ازدادت كثافة النباتات وتوارت ضجة المدينة، إلى أن اختفت تماماً. ثم لم يعد يسمع بعد ذلك إلا زقزقة العصافير وخشخشة الأغصان.

نفخ في يديه كي يبعث الدفء فيهما، ونظر إلى هاتفه مرة أخرى. في اللحظة التي اعتقد أنه تاه عن الطريق المقصود ظهرت أمامه فُرجة طبيعية.

إنه مكان خارج الزمان، محمي من كل ما حوله بقبة ذهبية مكونة من أوراق شجرة دردار عملاقة. كان الضوء المنتشر في المكان يبدو وكأنه شيء غير واقعي، وكأن فراشات من ضياء ترفرف في الأجواء. وكانت ريح خفيفة تعبث بالأوراق، وتنشر في الفضاء رائحة أرض مبللة، وأوراق أشجار متحللة.

وسط تلك الفُرجة تنام امرأة، مضطجعة على مقعد.

*

اقترب غابرييل بحذر. إنها أليس شافر نفسها، متكورة على نفسها، مضمومة الساقين، محتمية من البرد بسترة من الجلد. وتحت السترة يظهر قميص ملطخ بدم متجمد. ذعر غابرييل، لأنه اعتقدها مجروحة. ولكنه فحص القميص فتبيَّن له أنه ليس دمها، وأنه قد يكون دم كالب دون، حارس المستشفى. انحنى حتى لامس شعرها وأخذ ينصت إلى صوت تنفسها، ويتأمل انعكاسات الأشعة الذهبية

على شعرها المعقوف، ووجهها الشاحب الهشّ، وشفتيها الجافتين الورديتين اللتين يخرج منهما نفس دافئ.

أحس باضطراب غير متوقع، وبما يشبه النار تشتعل في كل كيانه. لقد أشعرته هشاشة هذه المرأة، والعزلة المنبعثة من جسدها المُتخلى عنه بألم يتردد صداه في أعماقه. لم يحتج إلا لثانيتين، ونظرة ألقاها عليها، كي تنطلق طلقات القدر الثلاث، وكي يتأكد، مدفوعاً بقوة خفية لا معقولة، من أنه سيقوم بكل ما في وسعه ليساعد أليس شافر.

الوقت محدود، وعليه أن يسرع. أخذ يبحث عما في جيوب سترتها بأناة. عثر على محفظة، وأصفاد، ومسدس كالب دون. ترك المسدس حيث وجده، واستحوذ على الأصفاد والمحفظة. وجد في المحفظة بطاقتها المهنية، وصورة لرجل أشقر ذي شعر مجعّد، وصورة إيكوغرافية.

والآن؟

اشتغل عقله بسرعة، ليؤلف سيناريو محبوكاً. تكونت عناصره حين ما زال في التاكسي يستمع إلى موسيقى الجاز المنبعثة من الراديو، ويقرأ المقالات حول فوغن، ويفكر فيما قاله توماس حول فقدان الذاكرة لدى أليس، ورفضها لمرضها:

«تعود ذاكرتها إلى النقطة نفسها دائماً، إنها لا تعرف أنها مريضة، وتعتقد كل صباح أنها كانت في الأمس رفقة صديقاتها في الشانزلزيه».

أفرغ جيوبه أيضاً ليتعرف إلى محتوياتها: محفظته، هاتفه المحمول، قلم حبر جاف، سكين سويسرية، تذكرة إيداع الحقيبة في مستودع الفندق.

كان عليه أن يرتجل معتمداً على ما بين يديه. الوقت يمر. عناصر السيناريو تتشكل في عقله بسرعة مدهشة. ثم اكتملت الخطة التي سيعتمدها في ثوانٍ معدودة، وكأن إلهاماً ما نزل عليه.

بحث في قائمة الأرقام التي في هاتفه عن رقم هاتف فندق غرينويتش، فكتبه على كف أليس بقلم الحبر الجاف، راجياً أن لا تستيقظ في تلك اللحظة.

ثم غادر الفُرجة لبعض الوقت. عثر، على بُعدِ خمسين متراً شمالاً، على بحيرة صغيرة فوقها قنطرة صغيرة هي الأخرى، قنطرة من خشب عتيق محاطة بشجيرات قصيرة الجذوع.

نزع سترته، ومزّق ثوبها الداخلي كي يصنع منه ضمادة. ثم شمّر عن ساعده ونحت بواسطة سكينه السويسرية 141197، الرقم السري لفتح قفلي حقيبته الطبية. أحس بالألم حين غرس نصل السكين في جلده، فلو أن حارساً غابوياً مر به في تلك اللحظة لوجد صعوبة في إقناعه بما كان يفعله.

أحاط ساعده بالضمادة التي صنعها من ثوب سترته الداخلي. أنزل كم قميصه، ولبس سترته، ثم جعل من معطفه المشمّع صرّة وضع فيها محفظته ومحفظة أليس، وسكينه السويسرية، وساعته اليدوية، وقلمه.

ثم قرر أن يتصل بتوماس.

- «قل لي إنك وجدتها، أرجوك، وإنها ما زالت حية!»، توسل إليه صديقه.

- «نعم، إنها نائمة فوق مقعد وسط منطقة غابوية».

- «هل حاولت أن توقظها؟».

- «ليس بعد، لكن يجب أن أفعل قبل أن يمر شخص ما».

- «هل أخذت منها مسدس دون؟».

- «ليس بعد».

- «وماذا تنتظر؟».

- «اسمع، سأحاول أن أعيدها إلى المستشفى، ولكن بهدوء، وبطريقتي، وبحسب قواعدي».

- «كما تشاء»، قال غريك متنازلاً.

أغلق غابرييل عينيه وحكّ رأسه.

- «في رأيك بمن ستحاول الاتصال حين تستيقظ؟».

- «بصديقها وزميلها سيمور لومبار من دون شك، إنه الشخص الذي أقنعها بالعلاج في مستشفانا، وتكفّل بكل المصاريف».

- «يجب أن تتصل به وتخبره بكل شيء، وقل له إن عليه ألا يتحدث عن مرضها كيفما كان الحديث الذي سيدور بينهما. واطلب منه أن يعمل على ربح الوقت واتّباع التعليمات التي سنزوده بها كلما تطلب الأمر ذلك».

- «هل أنت واثق من خطتك؟ لأن...».

- «لست واثقاً من شيء، ولكن إذا كانت لا تروقك فتكلف بإحضارها بنفسك».

لم يرد غريك إلا بزفرة عميقة.

- «لدي سؤال آخر: هل وصلت أغاتا إلى نيويورك؟».

- «اتصلت بي قبل دقيقتين، لقد وصلت إلى مطار كينيدي».

- «اطلب منها أن تتوجه إلى سنترال بارك حالاً. ستجد بحيرة شمال الرمبل. قرب قنطرة عتيقة ستجد أشجاراً علقت عليها مذاود

من خشب من أجل العصافير. في أكبر تلك المذاود سأترك حاجياتي وحاجيات شافر. اطلب من أغاتا أن تأخذها قبل أن يهتدي إليها شخص ما. واطلب منها أن تكون مستعدة لمساعدتي متى اتصلت بها».

- «سأخبرها حالاً»، طمأنه توماس، «متى ستتصل بي؟».

- «عندما أتمكن من ذلك، ولا تحاول أن تتصل بي على هاتفي، لأني يجب أن أتخلص منه».

- «طيب، حظ سعيد يا صديقي».

- «سؤال أخير: هل لأليس شافر علاقة غرامية؟».

- «لا أعتقد».

- «وذاك السيمور؟».

- «أعتقد أنه زميلها. لماذا تسألني هذا السؤال؟».

- «مجرد سؤال».

*

وضع غابرييل الهاتف في الصرة التي صنعها من معطفه المشمّع، ووضعها في أكبر مذود.

عاد إلى الفُرجة فلاحظ بارتياح أن أليس لم تتحرك من مكانها.

ثم اهتم بآخر التفاصيل. أخرج من جيبه تذكرة المستودع وأدخلها في أصغر جيوب جينز أليس. انحنى بعد ذلك إلى ذراعها وأخذ يُغيّر بحذر تاريخ ساعتها، فأعاده أسبوعاً إلى الوراء. أصبح التاريخ على الساعة الباتيك يشير إلى 8 أكتوبر بدلاً من 15 أكتوبر.

وأغلق الأصفاد على يده اليسرى، ويد أليس اليمنى.

إنهما الآن غير قابلين للانفصال. مقيّدانْ إلى بعضهما، من أجل الخير ومن أجل الشر.

ثم اضطجع بدوره على المقعد، وأغلق عينيه، وترك نفسه يميل ببطء نحو جنب أليس.

نجح ثقل الجسد الذكوري في أن يخرج أليس من نومها العميق.

الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً.

وبدأت المغامرة.

26

المرايا

لا ينبغي أن تترك المرايا معلقة على الجدران بقدر ما لا ينبغي أن نهمل في أي مكان دفتر شيكاتنا أو رسائلنا التي تعترف بأخطائنا الفظيعة.

فرجينيا وولف

فتحت عيني.

تعرفت على الغرفة: إنها غرفة بيضاء، هادئة، خارج الزمان. أرضيتها من حجر نافر، جدرانها نظيفة، وفيها دولاب ومكتب خشبي صغير، وستائر عريضة تسمح بتسرب أشعة الشمس. غرفة يذكّر ديكورها بالراحة التي توفرها غرفة في فندق أكثر من تلك التي توفرها غرفة في مستشفى.

أعرف أني في الغرفة رقم 06، في مستشفى سوباغو كوتاج، قرب برتلاند، في المين. وأعرف لماذا أنا هنا.

أسندت ظهري على الوسادة. أحس وكأني في اللامكان، كنجمة ميتة، انطفأت منذ مدة طويلة، إلا أن النور ما زال ينبعث منها.

نهضت ومشيت حتى النافذة وفتحتها. بعثت فيّ هبة الريح

الباردة الحياة من جديد. رأيت أمامي منظراً مبهراً. إنها بحيرة سوباغو المحاطة بغابة من أشجار التنّوب الممتدة على مدى كيلومترات كثيرة.

- «صباح الخير، آنسة شافر».

التفت متفاجئة. كان في أحد الأركان ممرضة آسيوية جالسة تراقبني منذ دقائق عديدة دون أن أنتبه إلى وجودها.

- «أتمنى أن تكوني بخير، الدكتور كوين ينتظرك قرب البحيرة».

- «الدكتور كوين؟».

- «طلب مني أن أخبرك بوجوده حالما تستيقظين».

اقتربَت من النافذة وأشارت إلى المكان. رأيت غابرييل بجانب سيارة الشِلبي. لوّح لي بيديه من بعيد، كما لو أنه يدعوني إلى الالتحاق به. وجدت في الدولاب حقيبتي التي أحضرتها معي. لبست جينزاً، قميصاً، سترة، وحذاء ثقيلاً وخرجت.

*

استسلمت لسحر ماء البحيرة الأزرق العميق.

صار كل شيء الآن واضحاً في ذاكرتي. كل الذكريات الآن مرتبة، منظَّمة في رفوف ذاكرتي. ثمّة أولاً تشخيص الدكتور كلوزو المحذِّر، فحديث سيمور عن مستشفى سوباغو كوتاج، فالإجراءات من أجل التحاقي بالمستشفى، فسفري إلى الولايات المتحدة، فأيامي الأولى في المستشفى، فزرع المنظِّم الدماغي الذي عقبته أزمة خوف حادة، ورفض قوي لمرضي، فهروبي من المستشفى بعد الصراع مع الحارس، ففراري إلى نيويورك، فوصولي إلى ذلك المقعد في سنترال بارك...

ثم ذلك اللقاء الغريب بذلك الشخص المرح غابرييل كوين، الذي رافقني في ذلك الطريق المحفوف بالمخاطر طوال ذلك اليوم الذي لا يصدَّق. كانت رحلتنا عبارة عن مطاردة طفحت خلالها كل مخاوفي: شبح فوغن، موت طفلي، صدمة فقدان بول، شكي في إخلاص أبي وفي إخلاص سيمور، وذلك الرفض الدائم لتقبل حالتي الصحية، وصولاً إلى اعتقادي في أني استيقظت صباح يوم الثامن من أكتوبر، بينما الحقيقة هي أني استيقظت أسبوعاً بعد ذلك.

- «صباح الخير، أليس. أتمنى أن تكوني قد نمت بشكل جيد»، قال غابرييل وهو يغلق غطاء محرك السيارة.

كان يرتدي بنطالاً بجيوب كثيرة، وحزاماً غليظاً، نابت اللحية، فوضوي الشعر، وحول عينيه البراقتين هالتان سوداوتان. وكانت آثار زيوت المحرك على وجهه قد جعلته يبدو أقرب إلى ميكانيكي منه إلى طبيب.

حين رآني صامتة، حاول أن يستدرجني إلى الحديث.

- «آسف على الحقنة المهدئة، كانت الوسيلة الوحيدة كي أهدئك».

أشعل السيجارة التي كان قد وضعها خلف أذنه. أعرف الآن أن هذا الرجل ليس فوغن. لكن من هو بالتحديد؟ مدّ إليّ يداً ملطخة بالزيوت وكأنه قرأ أفكاري.

- «أنا غابرييل كوين، طبيب نفساني»، قدَّم نفسه بحسم.

رفضت مصافحته.

- «عازف جاز، فساحر، فشرطي في مكتب التحقيقات الفدرالي، والآن طبيب نفساني. . . أنت ملك الكذابين، هذه هي حقيقتك».

- «أتفهّم الغضب الذي تشعرين به نحوي، يا أليس. آسف لاستغلالي سذاجتك، لكني صادق هذه المرة».

أحسست كالعادة بالشرطية التي في داخلي تستيقظ، فأمطرته بالأسئلة. علمت أن شريكه السابق توماس غريك، مدير المستشفى، هو من طلب منه أن يبحث عني في نيويورك ويحضرني إلى هنا.

- «ولماذا ادّعيت أنك عازف بيانو في فرقة جاز؟ ولماذا دبلن؟ لماذا الأصفاد وتذكرة المستودع والرقم على كفّي؟ لماذا كل هذا الهراء؟».

سحب نفساً عميقاً من السيجارة.

- «كان كل ذلك وليد سيناريو كتب على عَجل».

- «سيناريو؟».

- «لنقل إنها عملية إخراج لأدوار خاضعة لتحليل نفسي».

فهم غابرييل من خلال نظرتي غير المصدقة أن عليه أن يشرح أكثر.

- «كان يجب أن تتوقفي عن رفض حقيقة مرضك، أن تواجهي أوهامك لتتخلصي منها. مهنتي تتلخص في إعادة بناء الأشخاص، ومحاولة إعادة ترتيب أدمغتهم».

- «واخترعت هذا «السيناريو» هكذا، بشكل اعتباطي؟».

- «حاولت أن ألج إلى منطقك الخاص، وطريقة تفكيرك. تلك هي الطريقة الأنجع للتقرب من الأشخاص في مثل هذه الحالات. كان عليّ أن أرتجل كل شيء معتمداً على ما تحكينه، وما تتخذينه من قرارات».

حركت رأسي حركة رافضة.

- «لا، لا يمكن، مستحيل».

نظر إليّ نظرة صريحة.

- «لماذا؟».

عادت إلى ذاكرتي أحداث الأمس متلاحقة. ثم تجمدت الصور مثيرة أسئلة عدة.

- «والرقم المنحوت على ساعدك؟».

- «نحتّه بنفسي بواسطة سكين سويسرية».

وجدت صعوبة في تصديق ما يقول.

- «وتذكرة مستودع فندق غرينويتش؟».

- «في ذلك الفندق قضيت ليلتي بعد أحد المؤتمرات».

- «والحقيبة المكهرِبة؟».

- «إنها حقيبتي. تنطلق صفارة الإنذار والشحنة الكهربائية أوتوماتيكياً، ما أن تبتعد الحقيبة بأكثر من خمسة وعشرين متراً عن آلة التحكم عن بعد».

- «والـGPS الذي كان في حذائي؟».

- «كل المرضى الذين يلتحقون بالمستشفى يركّب واحد من تلك الأجهزة في نعال أحذيتهم. إنها واحدة من الشكليات التي هي في صدد التعميم في جميع مستشفيات الولايات المتحدة الأمريكية بالنسبة إلى المرضى المصابين بخلل في الذاكرة».

- «لكنك كنت تحمل واحداً أنت أيضاً...».

وتذكرت مشهد غابرييل في محل بيع الألبسة المستعملة وهو يلقي بحذائه الكونفرس في أحد القُمامات العمومية.

- «فعلاً، لقد أخبرتك إني وجدت واحداً في حذائي، ولكنك لم ترينه، وصدّقتني دون أن تتأكدي».

أخرج العُدة كي يغير عجلة السيارة.

- «لكن. . . ماذا عن قصة فوغن؟».

- «بحثت عن وسيلة كي نغادر نيويورك»، أخذ يشرح وهو يغير العجلة، «أدركت، من خلال قراءتي ذلك الجزء من ملفك المتعلق بما مارسه فوغن في حقك، أني متى وجَّهتك نحو تعقبه، تمكنت من أن أوجِّهك إلى حيث أريد أن تذهبي».

أحسست بالغضب يتعاظم في داخلي، وأني قادرة على أن أرتمي عليه كي أشبعه ضرباً، لكنني كنت راغبة في أن أفهم كل ما حدث.

- «والبصمات التي على المِحقنة، هل هي بصماتك؟ فقد مات فوغن. . .».

- «نعم، إذا كان أبوك قد قال إنه مات، وأن جثته «تتحلل» في قعر بئر، فليس ثمّة أي سبب للشك فيما قاله. سأحتفظ بهذا السر بطبيعة الحال. لست من هواة الدفاع عن النفس عادة، ولكن من يستطيع أن يلوم أباك على ما فعله في مثل هذه الحالة؟».

- «وسيمور؟».

- «طلب منه غريك أن يتعاون معنا. وقد اتصلت به بعد ذلك بنفسي كي أدعوه إلى أن يمكّنك من دلائل مزورة، وإلى أن يدفع بك إلى التوجه صوب المستشفى».

- «متى اتصلت به ولم نبتعد عن بعضنا طوال الوقت؟».

نظر إليّ محركاً رأسه.

- «ليس طوال الوقت، يا أليس: انتظرت في تشاينا تاون خروجك من المحل لأطلب من المُقرِض مقابل رهن أن يأذن لي بإجراء مكالمة. بعد ذلك، أمام حديقة بلدية هيلز كتشن، بقيتِ داخل السيارة معتقدة أني ذهبت لأتصل بصديقي كيني من هاتف عمومي».

واصل عمله وحديثه:

- «في المحطة، في الوقت الذي ذهبت لشراء التذاكر، سمحت لي جدّة رائعة بأن أجري اتصالاً عبر هاتفها المحمول. وفي أستوريا، وأنت تستحمّين، كان لدي متسع من الوقت لأستعمل هاتف حانة الشيشة. والمرة الأخيرة كانت عندما تركتك برفقة «الباربي»، مدعياً أني ذاهب لشراء سجائر».

- «وكنت تتصل بسيمور خلال ذلك الوقت؟».

- «سيمور هو من ساعدني على أن أبدو مقنعاً في لعب دور الشرطي الفدرالي. وأعترف أنه قام بذلك على أفضل وجه. فكرة جثة معمل السكر المهجور الذي لم يذهب إليه أبداً كانت فكرته».

- «يا له من نذل...».

- «بل إنه يحبك كثيراً. وأنت محظوظة لأن لك صديقاً مثله».

عندما كان يرفع السيارة بالرافعة ارتسمت على وجهه علامة تألم، فتذكرت أني ضربته أمس بالسكين، وأنه جُرح دون شك جرحاً عميقاً شيئاً ما في العضل. غير أني لم أكن راغبة أن أبدو عطوفة.

- «وأبي؟».

- «آه، ذكرتني بوالدك، لقد أقلقني كثيراً، إذ لم أكن متأكداً أن الشرطي الشهير ألان شافر سيقبل أن يشاركنا اللعبة، فانتهز سيمور فرصة سانحة كي يسرق هاتفه».

كنت أتقبل اللكمات المتلاحقة كملاكم حوصر في ركن الحلبة. لكني كنت أريد أن أعرف. أن أعرف كل شيء.

- «وشقة أستوريا؟ وصديقك كيني فورست؟».

- «لا وجود لشخص اسمه كيني. لقد اخترعت قصة عازف الساكسفون في فرقة جاز لأن الجاز يسحرني. أما شقة أستوريا

فشقتي. بالمناسبة، إنك مدينة لي بزجاجة نبيذ من نوع لاتاش 1999. كنت أحتفظ بها لمناسبة مهمة».

اعتقد كعادته أن المزاح سيُزيل غضبي.

- «طز في زجاجتك. وصاحبة العمارة لماذا لم تتعرف إليك؟».

- «لأني بكل بساطة اتصلت بها من المحطة وطلبت منها أن تتظاهر بذلك».

أزال العجلة المعطلة، ثم واصل:

- «سبقتني أغاتا، مساعدة غريك، إلى الشقة بلحظات قبل أن نذهب إليها، كي تخفي كل ما له علاقة بي: الصور، الملفات، الفواتير... كتفي تؤلمني، فهل في إمكانك أن تناوليني العجلة الاحتياطية؟».

- «اذهب إلى الجحيم. وماذا عن منزل الغابة؟».

فحص غابرييل جرحه الذي آلمه بسبب ما بذله من جهد. كان الدم قد طفح فوق الضمادة، لكنه قاوم الألم وحمل العجلة الاحتياطية.

- «إنه منزل كالب دون فعلاً. أما الصور الثلاث المعلقة خلف الباب، والتي عثرتُ عليها في محفظتك، فأنا من طلب من أغاتا أن تفعل ذلك».

- «وسيارة الشِلبي، هل هي سيارتك أيضاً؟».

- «ربحتها في البوكر، عندما كنت أسكن في شيكاغو»، قال الطبيب النفساني وهو ينهض ويمسح يديه.

لم أعد أتحمل الإنصات إليه. أحسست أني لم أُقدَّر، وأني

أمنت. لقد جرّدني تمكن غابرييل من أن يخدعني بهذه الطريقة من آخر شيء ما زلت أملكه: يقيني التام أني شرطية جيدة.

- «أعترف أني كنت محظوظاً»، تابع غابرييل، «فقد كدتِ أن تكشفي لعبتي في مناسبتين. الأولى حين أصررتِ على مرافقتي إلى مختبر التحليلات الطبية لإجراء تحليل على عينة الدم».

لم أفهمه جيداً، فتركته يواصل.

- «إليان من معارفي، والمستشفى تعمل مع مختبرها منذ مدة طويلة. لم تتح لي فرصة أن أحذّرها، إلا أنها لم تناديني بـ«الدكتور» في حضرتك ولا مرة واحدة».

لم تعجبني نبرة السخرية في صوته وهو يسرد الواقعة.

- «والمرة الثانية؟».

- «مارشال زميلك في العمل. كاد تعاملي معه أن يسفر عن كارثة. وجدت صعوبة، أول الأمر، في أن أقنعه بأن يتظاهر بعدم علمه بإجازتك المرضية. وحين قام بتحرياته حول كاميرات المراقبة، اكتفى بأن أجرى التحقيق معتمداً على رقم سيارتك، ولو كان كتب في إيميله إن الصور تعود إلى أسبوع مضى، لانهارت خطتي تماماً!».

شعرت بالغضب يتعاظم في داخلي، غضب يصعب التحكم فيه. سيطر على جسدي سيل من الرفض والإحساس بالظلم. انحنيت صوب الأرض فجأة وأمسكت بالآلة الرافعة، وتقدمت صوبه فضربته على بطنه بكل ما أملك من قوة.

27

الأطياف البيضاء

علينا أن لا نخشى قول الحقيقة.

أوفيد

ضربته ضربة ثانية فسقط على الأرض، ملموماً، منقطع النفس.

- «إنك ملك الأوغاد حقاً!».

أمسك بطنه. استمريت في صبّ غضبي عليه.

- «كل ما حكيته لي إذن عن ابنك، وعن موت أخت زوجتك، لم يكن إلا كذباً، إنه لشيء مقرف أن تخترع مثل تلك الأكاذيب!».

حاول أن ينهض وقد شبك يديه أمامه كي يتفادى ضربة أخرى محتملة.

- «إنها الحقيقة يا أليس، هذا الجزء من القصة حقيقي! باستثناء أني لم أكن حينها شرطياً، وإنما طبيباً نفسياً متطوعاً في جمعية لمساعدة العاهرات».

رميت الآلة الرافعة وتركته ينهض.

- «لقد ذهبت زوجتي إلى لندن فعلاً، وأخذت ابني معها»، أخذ يشرح وهو يلتقط أنفاسه، «وتركت المستشفى كي أقترب منه».

لم يهدأ غضبي رغم هذا الاعتراف.

- «لقد تسليت بهذه المسخرة، أليس كذلك؟ فما فائدة كل ذلك بالنسبة إليّ أنا؟».

ارتميت عليه وأخذت ألكمه على صدره، ثم صرخت:

- «قل لي ما هي فائدة ذلك بالنسبة إلي».

ضمّ قبضتَي يدي بين يديه الكبيرتين.

- «اهدئي الآن!»، أمرني بصرامة، «لقد قمنا بكل هذا من أجل أن نساعدك».

هبّت الريح، فاقشعر بدني. صحيح، لقد دفعني انشغالي التام بالبحث عن القاتل أن أهمل مرضي إهمالاً شبه كامل.

*

لا أصدق أني سأموت. عقلي يقظ هذا الصباح، وأفكاري واضحة. يعكس زجاج سيارة الشِلبي صورتي المطمئنّة، الداعية إلى الافتخار: صورة امرأة ما زالت شابة، رشيقة، متناسقة القسمات، شعرها يتطاير مع الريح. ومع ذلك، فأنا أدرك الآن كيف أن المظهر خدّاع وزائل. أدرك أن المرض يهاجم دماغي وخلاياه العصبية. أدرك أني لن أعيش كثيراً.

- «عليك أن تقبلي إجراء الشقّ الثاني من العملية»، ألحّ غابرييل.

- «وما الفائدة. إنها مجرد طريقة للابتزاز، فكل الناس يعرفون أن لا أمل من الشفاء من ألزهايمر».

قال بصوت وديع:

- «صحيح ما قلت، وخطأ في الوقت نفسه. اسمعي، إني أجهل ما قالوا لك بخصوص هذه العملية، لكني أعرف، في

المقابل، أن مستشفانا هذا متخصص في مجال تنشيط مسالك الذاكرة بواسطة الكهرباء، وأننا حصلنا على نتائج ممتازة».

أخذت أستمع إليه. حاول أن يتحدث بشكل منهجي تعليمي.

- «بفضل منافذ كهربائية عدة، نتمكن من إرسال شحن كهربائية خفيفة ومتواصلة إلى عدة مناطق استراتيجية في الدماغ. يُحدث هذا التنشيط ذبذبات لها تأثير فعال. لم نتوصل بعد إلى التعرف على كل التفاصيل المتعلقة بآلية التشغيل، إلا أن القصد، الذي هو تحسين حركة عمل الخلايا العصبية، حاصل».

- «لكن ذلك لا يعالج المرض».

- «لاحظنا لدى كثير من المرضى تحسناً طفيفاً، لكنه لا يستهان به حين يتعلق الأمر بالذاكرة العرضية والذاكرة الخاصة بالتموقع».

- ««طفيفاً»؟ يا للعبقرية!».

- «ما أحاول أن أشرح لك يا أليس هو أنه لم يمضِ وقت طويل على ممارستنا لهذه العملية كي نتمكن من إصدار حكم. صحيح أنها لم تُرقَ بعد إلى مرتبة علم دقيق، لكنها نجحت في أن تنشّط لدى المرضى الذين أجريت لهم هذه العملية مجموعة من الذكريات التي كانوا قد نسوها تماماً. يتراوح الأمر عند أمثال هؤلاء بين استقرار الأعراض وتراجعها. ويستمر المرض للأسف في الزحف لدى مرضى آخرين».

- «أرأيت. . .»

- «ما أراه هو أن الأمر غير محسوم، وأن الأعراض يمكن أن تتسارع فتؤدي إلى الموت، كما يمكن أن تستقر. أما لدى الشباب، فإن الاحتمالات في جعل المرض مستقراً لا يستهان بها. وأنت شابة يا أليس».

كررت وكأني أحدث نفسي.

- «جعل المرض مستقراً...»

- «كبح المرض ومنع انتشاره، يعني بالنسبة إلينا ربح الوقت، فالأبحاث تحقق تقدّماً كل يوم، وستتطور لا محالة...».

- «نعم، بعد ثلاثين سنة».

- «قد يكون ذلك بعد ثلاثين سنة كما قد يكون غداً، تأملي ما وقع مع مرض السيدا. بداية الثمانينيات، الإصابة به كانت تعني الموت حتماً. ثم ظهر الـAZT وبعده العلاج الثلاثي، والآن ثمّة أشخاص يتعايشون مع المرض منذ ثلاثين سنة».

طاطأت رأسي وقلت بصوت خافت:

- «ليست لدي القوة الكافية. ذاك ما جعلني أخاف بعد العملية الأولى. أردت أن أعود إلى فرنسا كي أزور أبي لآخر مرة...».

اقترب مني وركز نظره عليّ.

- «وماذا أيضاً؟ إطلاق رصاصة على رأسك؟».

تحديته بنظراتي.

- «نعم، شيء كهذا».

- «أعتقد أنك أكثر شجاعة...».

- «من أنت كي تحدثني عن الشجاعة؟».

اقترب أكثر، حتى كاد أن يتلامس جبينانا كملاكمين قبل انطلاق المباراة.

- «أعمتك مأساتك عن الانتباه إلى الحظ الذي تتمتعين به. لديك صديق سهر على دفع كل المصاريف، ووظف كل علاقاته كي تتمكني من الالتحاق بالمستشفى، لتستفيدي من هذه الطريقة الجديدة

في العلاج. قد لا تكونين على علم بأن لائحة الذين يرغبون في الاستفادة من هذا العلاج طويلة».

- «بذلك سأكون قد أخليت مكاناً لمريض ينتظر».

- «واضح أنك لا تستحقين الاستفادة من هذا العلاج فعلاً».

لم أكن أتوقع في تلك اللحظة أن أرى عينيه تبرقان. رأيت فيهما الغضب، والحزن، والرفض.

- «إنك شابة، ومكافحة، إنك أكثر إصراراً وعناداً من أية امرأة أخرى صادفتها في حياتي، وإذا كان هناك شخص يستطيع أن يتحدى المرض، فهو أنت من دون شك! تستطيعين أن تكوني مثلاً لكل المرضى الآخرين و. . . ».

- «لا يهمني أن أكون مثلاً، يا كوين! فأنا لن أربح هذه المعركة أبداً، توقف عن هذيانك».

قال منتفضاً:

- «إذن، أنت تستسلمين؟ إنه أسهل ما يمكن القيام به فعلاً. تريدين وضع حدّ لحياتك، هيا افعلي. حقيبتك على المقعد الخلفي للسيارة، وفيها مسدسك».

ابتعد غابرييل نحو المستشفى بخُطى واثقة.

إنه يتحداني. يثير حنقي. وأنا متعبة، وهو لا يدرك أنه لا ينبغي أن يجرني إلى أرضية هذا الميدان. إنه لا يدرك أني أعيش على حافة الهاوية منذ وقت طويل. فتحت باب السيارة. فتحت الحقيبة، المسدس في داخلها، والهاتف الذي كادت أن تفرغ بطاريته. وضعت الهاتف في جيبي، وتأكدت أن المسدس محشو، ثم وضعته في حزامي.

الشمس تكاد تصبح عمودية.

نظرت إلى الأفق البعيد وعيناي تطرفان لأن انعكاسات أشعة الشمس الفضية على البحيرة أعمتني. ابتعدت عن السيارة دون أن أنظر إلى غابرييل، ومضيت فوق الرصيف.

كان ينبعث من ذلك المنظر الهادئ أمامي شيء يوحي بالصرامة والتناغم. بدت المياه عن كثب صافية، بل تكاد تكون فيروزية.

والتفت أخيراً. لم يعد غابرييل يبدو من بعيد إلا كطيف يسير في ممر. فات أوان أن أحاول فعل شيء ما.

أمسكت بالمسدس وتنفست بعمق.

إني منهارة، عاجزة، وعلى حافة هاوية بلا قعر منذ سنوات.

أغلقت عيني. انبثقت في دماغي أجزاء من قصتي التي كنت على معرفة بنهايتها. ألم أكن مقتنعة دائماً، في أعماقي، بأنني سأنتهي على هذا النحو؟

وحيدةً، لكن حرة.

كما حاولت أن أعيش دائماً.

28

بقلب واحد

الطرق الوحيدة التي تستحق أن نسلكها
هي تلك التي تؤدّي إلى أعماقنا.

شارل جولييه

وضعتُ فوهة المسدس الباردة في فمي.

أريد أن أبقى متحكمة في نفسي. أن لا أصير امرأة بذاكرة ميتة. امرأة مريضة يُغلق عليها في غرفة مستشفى.

أريد أن أختار حتى النهاية الطريق الذي ستسلكها حياتي.

بكل يقظة.

ولن يحرمني أحد من ذلك.

تلك حريتي الأخيرة.

أغلقت عيني، فرأيت لحظات السعادة التي عشتها مع بول. إنها عبارة عن صور بالآلاف تعبث بها الرياح وتبعثرها في الفضاء، فاتحة معبراً نحو السماء.

وفجأة رأيت ذلك الطفل الذي لم نكن قد اخترنا له اسماً بعد، والذي لن يكون له اسم أبداً، وهو يمسك بيد أبيه. إنه الطفل الذي لن أراه أبداً، ولكني تصورت وجهه مرات لا تُحصى.

إنهما حاضران هنا، معاً، وسط هذا الظلام الرحيم. الرجلان اللذان لم أحب غيرهما في حياتي.

أحسست بالدموع تتساقط على خدي. احتفظت بعيني مغلقتين، وبالمسدس في فمي، وبسبابتي على الزناد، مستعدة لإطلاق النار. مستعدة للالتحاق بهما.

ترك الطفل يد أبيه في تلك اللحظة وتقدّم نحوي بضع خطوات. إنه وسيم جداً... لم يعد مولوداً جديداً. صار طفلاً صغيراً. طفلاً يرتدي قميصاً بمربعات وشورتاً. ما عمره؟ ثلاث سنوات؟ ربما أربع. بقيت مشدودة إلى صفاء نظرته، إلى براءة تعابير وجهه، وإلى تلك الوعود والتحديات التي قرأتها في عينيه.

- «ماما، أنا خائف، تعالي معي، من فضلك».

استعطفني صوته. مدّ إلي يده.

أنا خائفة أيضاً.

جاذبيته قوية. خنقتني دمعة.

ورغم ذلك، فأنا أعرف أن هذا الطفل ليس حقيقياً. وأنه ليس إلا انعكاساً لما في دماغي.

- «تعالي من فضلك. ماما...».

أنا قادمة.

أحكمت القبض على الزناد. الهاوية تنفتح أمامي. أحس بالضغط في كل جسدي، كما لو أن الشرخ الجلي الذي حملته في داخلي منذ طفولتي يزداد اتساعاً.

إنها قصة فتاة حزينة ووحيدة، لم تجد لنفسها مكاناً أبداً في أي مكان. قنبلة بشرية على وشك الانفجار. طنجرة ضغط وضعت تحت

الضغط المستمر، وتتفاعل في داخلها، منذ مدة طويلة، الضغينة، وعدم الرضى، والرغبة في الرحيل.

اضغطي، اضغطي الزناد. سيزول الألم والخوف في الحال. افعلي ذلك الآن. إن لديك الشجاعة لفعل ذلك، واليقظة، والضعف... إنها اللحظة المناسبة.

شعرت بهزهزة في جيبي. إنه رقّاص هاتفي المحمول.

حاولت أن أتمسك ببول وبطفلي، إلا أنهما تبخّرا. حلَّ الحزن محل الغضب. فتحت عيني. سحبت المسدس من فمي واستقبلت المكالمة.

سمعت صوت غابرييل.

- «لا تفعلي ذلك يا أليس».

التفتّ. إنه خلفي، على بعد خمسين متراً. إنه يقترب.

- «انتهى الكلام يا غابرييل».

- «لا، لا أعتقد».

صرخت يائسة.

- «ابتعد عني! إنك خائف على مستقبلك، أليس كذلك؟ سيكون لانتحار إحدى مريضاتك في مستشفاك الجميل وقع سيئ، أليس كذلك؟».

- «لم تعودي مريضتي، أليس...».

استعدت وعيي.

- «كيف؟».

- «إنك تعرفين ذلك. فليس من حقّ الطبيب أن يحب مريضته».

- «محاولتك الأخيرة مثيرة للشفقة يا كوين!».

- «ولماذا تحملت كل هذه المخاطر في رأيك؟»، واصل وهو

يتقدم خطوة نحوي، «لقد انجذبت إليك منذ أول نظرة ألقيتها عليك وأنت نائمة على ذلك المقعد».

- «إنك مثير للسخرية».

- «لست هازلاً، يا أليس».

- «إننا لم نتعارف».

- «أعتقد أننا تعارفنا، أو بالأحرى عرف كل واحد منا في الطرف الآخر الشخص الذي يبحث عنه».

صددته.

- «أنت تحبني، أيها المنساق وراء غريزته بلا حدود؟ أنت يا من له «في كل ميناء فتاة»، هل تعتقد أني لا أتذكر شعارك».

- «لم تكن إلا كذبة لتلميع شخصية عازف الجاز التي اخترعتها».

- «إنك تتلصص على كل امرأة تصادفها».

- «أنت جميلة يا أليس، وقد أحببت طبعك السيئ، وحضور بديهتك. لم أشعر قط بمثل هذا الارتياح مع أي امرأة أخرى».

ركزت نظراتي عليه دون أن أتفوه بأية كلمة. أدهشتني الصراحة التي شعرت بها من خلال كلماته. صحيح أنه عرّض حياته إلى الخطر من أجلي، وأني كدت أرميه بالرصاص أمس...

واصل ملحّاً:

- «أرغب في القيام بأشياء لا تحصى بصحبتك: أريد أن أحدّثك عن الكتب التي أحب، أن أعرفك إلى الحي الذي نشأت فيه، أن أطبخ لك الطعام الذي أجيد طبخه، أن...».

حجبت الدموع الرؤية عني. كانت كلمات غابرييل قد أحاطتني بعذوبتها، فرغبت في الاستسلام لهذا الإحساس. وتذكرت المرة

الأولى التي رأيت فيها وجهه على ذلك المقعد الشهير. حينها صرنا متواطئين على الفور. وتذكرته في متجر اللعب وقد ارتدى عباءة، وشرع ينفّذ ألعابه السحرية لتسلية الأطفال.

ورغم ذلك قاطعته:

- «هذه المرأة التي تدعي أنك تحبها يا غابرييل... أنت تعرف جيداً أنها ستختفي بعد أشهر قليلة. سوف لن تتعرف إليك حينها، وستناديك بـ«يا سيدي»، وسيكون عليك أن تغلق عليها في إحدى غرف المستشفى».

- «إنه احتمال وليس حتماً، وأنا مستعد لخوض هذه المعركة».

أسقطت الهاتف من يدي في اللحظة التي نفذت فيها بطاريته.

غابرييل يقف أمامي، على بعد عشرة أمتار.

- «إذا كان ثمّة شخص يستطيع خوض هذه المعركة، فهو أنتِ يا أليس».

اقترب حتى صار على بعد سنتيمترات قليلة.

- «ليس الأمر في يدي».

- «سنحارب معاً إذن يا أليس. أعتقد أننا نؤلف فريقاً جيداً، أليس كذلك؟».

- «أنا خائفة! خائفة جداً...».

ثارت زوبعة فتطاير الغبار وتحركت أوراق شجرة الأرزية. وجمّد البرد أصابعي.

- «أعرف أنه سيكون أمراً صعباً جداً، ولكن سيكون...».


سیکون...

ستكون صباحات مضيئة وأخرى معتمة نتيجة الغَمام.

ستكون أيام الشك، وأيام الخوف، وساعات مهدورة كئيبة في قاعات انتظار تفوح منها رائحة المستشفى.

ستكون لحظات قليلة، ربيعية، مراهقة، سيتوارى خلالها المرض.

كما لو أنه لم يوجد قط.

وستستمر الحياة.

وستصمدين.

*

سيكون صوت إيلا فيتزجيرالد، وغيتار جيم هال، وإحدى أغنيات نيك دريك القديمة.

ستكون نزهات على شاطئ البحر، ورائحة العشب، ولون سماء رحبة.

ستكون أيام للصيد أثناء ساعات الجزر.

وشالات حول العنق اتقاء للريح.

وقصور من رمال تصمد في وجه الأمواج المالحة.

*

سيكون لنا منزل في شارع وافر الظلال. ومصابيح متعددة الألوان. وقط أشقر، مُمتلئ بالحياة، وكلب كبير عطوف.

سيكون ذلك الصباح الشتوي الذي سوف أتأخر فيه عن العمل. وسأنزل الأدراج مسرعاً. وسأقبّلك على عجل، وأحمل مفاتيح السيارة.

ثم أمضي نحو الباب، فالممر، فالسيارة.

وعند أول إشارة مرور حمراء، سأنتبه إلى أن حمّالة المفاتيح عبارة عن رضاعة طفل.

*

سيكون...

عرق، ودم، وصرخة الطفل الأولى.

وتبادل النظرات.

وعهد أبدي.

ورضاعات كل أربع ساعات، وحفاظات، ومطر على النوافذ، وشمس في قلبك.

*

سيكون...

طاولة لتغيير الحفاظات، وحمام الطفل، وأمراض الأنين المتكررة، ومكان للعب، وأرجوحات ناطقة.

ابتسامات، وجولات في الحديقة، وخطوات الطفل الأولى، ودراجة بثلاث عجلات.

وقبل النوم ستكون حكايات الأمراء قاهري التنانين.

وأعياد الميلاد، والدخول المدرسي، والتنكر في لباس الكاوبوي، ورسومات لحيوانات معلقة على باب الثلاجة.

ومعارك الثلج، وألعاب سحرية، وخبز مدهون بالمُربّى يحمله معه إلى المدرسة.

*

وسيمضي الوقت.

وستكون حصص أخرى في المستشفى، وفحوصات أخرى، وتحذيرات أخرى، وعلاجات أخرى.

وستذهبين إلى المعركة، في كل مرة، خائفة، منقبضة القلب، لا تحملين معك سلاح غير سلاح الرغبة في أن تستمري على قيد الحياة.

وستقولين لنفسك، في كل مرة، إنه مهما يحدث لك الآن، فإن تلك اللحظات التي انتزعتيها من بين يدي القدر كانت تستحق أن تعاش.

وأن لا أحد سيستطيع يوماً أن يأخذها منك.